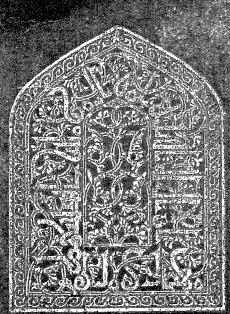
verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version





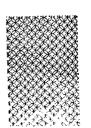
# 

نالیف: القانب الغرنسی چسیسرار دی نرقال زجره: دیمونزعبلالسلام البحیسری مراجعه: دکنورة سهسیرالفت لماوی



### الجيز الثالث

## الملاقي الملاق



للكانب الفرنسي چيراردي نرفال

تصة : دكنورة كونزعبارك للم البحيري مرامية : دكنورة سهيبرالعت لماوي

دار الكانب العزني للطباعة والنشر



nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لیالی رمضان استامبول ـ بیرا



#### ١ \_ سوق السمك

القسطنطينية ، يالها من مدينة غريبة ! مدينة تتكون من الفخامة والبؤس ، من الدموع والافراح ، ان الظلم فيها أكثر منه في سواها وكذلك الحرية ، ذلك أن أربعة شعوب مختلفة تعيش فيها دون أن يكون كرهها بعضها للبعض كبيرا ، فالاتراك والأرمن واليونانيون واليهود أبناء أرض واحدة ويتحملون بعضهم البعض أكثر مما يتحمل في بلادنا المقاطعات المختلفة أو أفراد الأحزاب المختلفة بعضهم البعض ،

هل كان مقدرا لى أن أشهد الفصل الأخير من التعصب والبربرية التى تمارس بمقتصى العادات الاسلامية القديمة ؟ (١) ولقد التقيت في بيرا بواحد من أعزا أصدقائى القدامى وهو رسام فرنسى يعيش هنا منذ ثلاث سنوات حياة غاية في الترف وذلك مما يربحه من صوره ولوحاته (٢) مما يثبت أن القسطنطينية ليست على خلاف شديد كما يعتقد الناس مع ربات الفن . وكنا قد رحلنا من بيرا ، تلك المدينة الافرنجية ، لنذهب الى أسواق استنبول المدينة التركية .

و بعد أن عبرنا باب غلطة الحصين كان ما زال علينا أن نهبط شارعا طويلا ملتويا يحيط به من الجانبين الملاهى وبائعو الحلوى والحلاقون والمجزارون والمقاهى الافرنجية التى تذكرنا بمقاهينا والتى ترى موائدها محملة بالصحف اليونانية والأرمينية ، ويصدر منها خمس أو ست في القسطنطينية وحدها بخلاف الصحف اليونانية التى تأتى من المورة

<sup>(1)</sup> يخلط نرفال دائما بين الدين والعادات التي تأصلت في بعض النسعوب باسم الدين وهو منها براء ٠

<sup>(</sup>۲) الله الرسام كامي روجييه .

وهنا يحدث لكل مسافر أن يرجع الى معلوماته في اليونانية ليلتقط بعض كلمات من هذه اللغة الحية التي تتجدد كل يوم • وتتعمد أغلب الصحف الابتعاد عن اللهجة الشعبية الحديثة وتزداد تقربا من اليونانية القديمة لدرجة انها بهذه الطريقة تصل الى حد ألا يفهمها أحد • ونجد هنا كذلك بعص الصحف الفالاشية والعربية الطبوعة بلغة رومانيا وهي اسهل بالنسبة لنا كثيرا من اللغة اليونانية لانها مختلطة بقدر كبير من الكلمات اللاتينية . وتوقفنا لحظات في أحد هده المقاهي لنتناول قدحا من «الجلوريا» المسكرة(۱) التي لا يعرفها اصحاب المقاهي التركية . ونجد اليعد من ذلك سوق الفاكهة التي تعرض عينات منها رائعة لخصوبة الريف المحيط بالقسطنطينية • وأخيرا ، وإذا استمررنا في الهبوط خلال الشوارع الملنوية والمزدحمة بالمارة فاننا نصل الى السملم الذي نبحر منه الى القرن الذهبي ، ذلك الخليج الذي يبلغ عرضه دبع فرسخ ويبلغ طوله ورسخا واحدا تقريبا • وهو أجمل وآمن مرفأ في العالم ويفصل استنبول عن الضاحيتين بيرا وغلطة •

ان علام الميدان الصلغير يعج بحركة مرور غير عادية و ونجد به من ناحية الميناء مهبطا الى السفن من الالواح الخشبية ويحيط به القوارب الطويلة الضيقة الانيقة ويرتدى النوتية ممن يقومون بالتجديف قمصلانا من الحرير ذات أكمام طويلة تمتاز بطريقتها جد أنيقة في التفصيل وتنساب زوارقهم بسرعة بفضل شكلها الذي يحاكى شكل السمكة وتنزلق دون ما صعوبة بين مئات السفن من جميع البلدان التي يمتل بها مدخل الميناء والتي يمتل بها مدخل الميناء والتي يمتل به المدخل الميناء والتي يمتل به المدخل الميناء والتي يمتل به المدخل الميناء والتي يمتل المدخل الميناء والميناء والمي

وفي عتر دقائق بلغنا السلم المقابل الذي يتصل بسوق السمك وهنا شهدنا منظرا فريدا . فلدى احدى نقط التقاطع الضيقة بالسوق كان جمع خفير من الناس قد التقوا في دائرة . فظننا لأول وهلة أن الأمر يتعلق بعرض للحواة أو برقص الدببة . ولما شهقنا الجمع رأينا جسدا مقطوع الرأس ملقى على الأرض وقد أرتدى سترة وسروالا من لون أزرق . وكانت الرأس مغطاة وموضوعة بين الساقين المنفرجتين قليلا . والتفت الينا أحد الاتراك وقال لنا وقد عرف أننا فرنسيون : « يبدو أنهم هنا يقطعون هكذا من يرتدون القبعات » .

ويعتبر التركى أن « الكاسكيت » والقبعة من الامور الكريهة أذ أنه من المحظور على المسلمين ارتداء غطاء رأس ذى حافة أمامية مادام يجب

<sup>(</sup>١) شراب لم يذكر عنه نرفال مزيدا من التفصيلات •

أن تمس جباههم الأرض أثناء تاديتهم للصللة مع احتفاظهم بفطاء رءوسهم • وابتعدنا في تقزز عن هذا المشهد وذهبنا الى السوق • وعرض علينا أحد الأرمن أن نتناول المرطبات في حانوته وقص علينا قصة هذه الطريقة الغريبة للاعدام •

ان هذا الجسد مقطوع الرأس الذى شاهدناه كان معروضا هنا منذ ثلاثة أيام فى « سوق السمك » مما استاء له بائعو السمك ، وكان الجسد لأحد الأرمن ويدعى يواقيم . وكان قد ضبط منذ ثلاث سنوات مع امراة تركية . وفى مثل هذه الاحوال عليه أن يختار بين ااوت واعتناق الاسلام . أما بالنسبة للاتراك فلا عقاب لهم الا ضربات العصا . واعتنق يواقيم الاسلام .

وبعد ذلك أنبه ضميره لأنه استسلم للخوف فانسمحب الى جزر اليونان حيث ارتد عن دينه الجديد .

وبعد ذلك بثلاث سنوات ظن أن مسألته قد طواها النسيان فعاد الله القسسطنطينية في لباس افرنجي وأبلغ عنه بعض المتعصبين واضطرت السلطات التركية رغم تسامحها الشديد في ذلك الوقت الى تطبيق القانون و وتدخل القناصل الأوربيون لصالحه ولكن ماذا يمكن عمله والنص صريح ألم والقانون في الشرق مدنى ودينى على السواء والقرآن والقانون شيء واحد . وهكذا اضطرت العدالة التركية الى الرضوخ لتعصب الطبقات الدنيا الذي كان ما زال عنيفا . وعرضوا في بادىء الأمر على يواقيم أن يمنح الحرية نظير عودته مرة ثانية الى الاسلام ولكنه رفض . فعرضوا عليه ما هو اكثر من ذلك بأن سهلوا له سبيل الفرار . ولكن باللغرابة! قد رفض ذلك أيضا قائلا انه الاستطيع الحياة الا في القسطنطينية وأنه يموت من الحزن لو تركها أو يموت من الخجل لو بقى فيها نظير عودة جديدة الى الاسلام . وهكذا تم تنفيذ الاعدام فيه . وقد اعتبره الكثير من أبناء دينه قديسا واحرقوا الشموع تحية له .

وقد أثرت فينا تلك القصة تأثيرا كبيرا . فقد أدخل القدر فيها ظروفا تجعل تلك النهاية أمرا محتوما وفى مساء اليوم الثالث لعرض الجسيد في « سوق السيمك » حمله ثلاثة يهود ، حسب العادة المتبعة ، على اكتافهم وألقوا به في البسفور بين الكلاب والخيول الغريقة التي يلفظها البحر هنا وهناك على الشاطئ ،

ولست أود مطلقا ، بناء على هذه القصة المؤلمة التى شاء حظى السيىء أن أشهدها أن أشك في الاتجاهات التقدمية لتركيا الحديثة · اذ أنه يحدث هنا كما يحدث في انجلترا أن يشل القانون جميع الارادات وجميع العقول حتى لا يمكن أن يفسر تفسيرا أفضل ، ولم يتبق اليوم من الأمور التي تؤدى الى مثل هذه الاحداث التعسة الا الزنا والردة .

وجبنا الأسواق الرائعة التي يتكون منها قلب مدينة استنبول . وهي تيه كامل متين البناء من الحجارة ذو ذوق بيرنطى يجد فيه المرء ملجأ فسيحا يحميه من حرارة النهاد . وثمة اروقة كبيرة بعضها مقوسة وبعضها ذات أقواس مدببة وأعمدة منحوتة وأخرى مبنية قدد خصص كل منها الى نوع معين من البضائع . وأن المرء ليعجب بصفة خاصة بالملابس وأخفاف النساء وبالأقمشة المطرزة واللامعة والكشمير والطنافس وقطع الأثاث المطعمة بالذهب والفضة والصدف والمصوغات ، بل وكذلك بالأسلحة اللامعة التي تجمعت في هذا الجزء من السوق الذي يسمى بالبرستان .

ويقودنا أحد أطراف هذه المدينة التى تقع تحت الأرض الى مكان الطيف جدا تحيط به الابنية والمساجد ويسمى ميدان السيراسكييه . انه مكان النزهة بالنسبة لوسط المدينة وتكثر النساء والاطفال من ارتياده . والنساء في استنبول اشد تزمتا في الحجاب ممن في بيرا . وهن يرتدين « الفراجية » الخضراء أو البنفسجية ويسدلن على وجوههن خمارا من الحرير الكثيف ، ومن النادر أن يكشفن عن شيء غير أعينهن وبداية انوفهن . اما الأرمنيات واليونانيات فيحطن ملامحهن بمنسوج اخف من ذلك كثيرا .

ويشغل الكتاب وصناع التماثيل الصغيرة والكتبية جانبا بأكمله من الميدان و تضفى المسساجد المجاورة الرشيقة البناء والتى زرعت أفنيتها بالأشجار وترتادها آلاف الحمائم التى تأتى وترفرف أحيانا على الميدان والمقاهى وواجهات الحوانيت الحافلة بالمجوهرات وبرج سيراسكييه المجاور الذى يشرف على المدينة بأكملها ، بل وأبعد من ذلك مشهد السراى القديمة بجدرانها الكثيبة حيث تسكن السلطانة الأم ٠٠ كل ذلك يضفى على هذا الميدان طابعا مليئا بالطرافة .

#### ٣ \_ السلطان

حينما كنت أهبط نحو الميناء رأيت السلطان في عربة مكشوفة جد غريبة في شكلها . لقد كان ثمة جوادان الواحد تلو الآخر يجران هذه العربة ذات العجلتين التي تتميز بفطاء مربع كالمظلة يتهدل منه الي الأمام جانب من القطيفة ذات النقوش الذهبية · وكان السلطان يرتدي « الرذنجوت » البسيط ذا الأزرار التي تصل الى الرقبة والذي اعتدنا أن نراه على الاتراك منذ عهد الاصلاح · وكانت العلمة الوحيدة التي تميز شخصيته هي شعاره الامبراطوري المطرز بالاحجار اللامعة على طربوشه الأحمر · لقد كان ثمة شعور بالكآبة مرتسم على وجهه الشاحب المرموق · وبحركة آلية رفعت قبعتي لتحيته ، ولم يكن ذلك في واقع الأمر سوى مجاملة يوجهها أجنبي لا الخوف من أن أعامل معاملة الأرميني الذي رأيناه في « سوق السمك » · · · وحينئذ نظر الي السلطان باهتمام لانني أظهرت بذلك جهلي بالتقاليد فان العرف يقضي بعدم توجيه التحية للسلطان .

وقال لى رفيقى الذى افتقدته لحظة بسبب الزحام: « لنتبع السلطان فهو ذاهب مثلنا آلى بيرا . الا أنه لابد أن يعبر القنطرة المقامة على القرن الذهبى • ان هذا هو أطول الطرق الا أن المرء لا يحتاج فيه الى ركوب القوارب ، والبحر في هذه الآونة مضطرب بعض الشيء » .

وأخذنا نتبع العربة المكشوفة التى أخذت تهبط ببطء شارعا طويلا تحف به المساجد والحدائق الفناء من الجانبين . وفى نهاية هذا الشارع، وبعد أن يلف المرء بعض اللفات نصل الى حى الفنار الذى يقطنه التجار اليونانيون الأثرياء وكذلك أمراء هذا البلد . وكثير من منازل هذا الحى

تعتبر بحق من القصور الرائعة . وكانت بعض الكنائس المزينة من الله المرافعة الارتفاع في قلب المساجد شاهقة الارتفاع في قلب السنبول ذاتها تلك المدينة ذات الطابع التركي المتميز .

وفى أثناء الطريق كنت اتحدث الى صديقى عن الانطباع الذى أحدثه في نفسه هيئة عبد المجيد التى لم اكن أتوقعها ، وصفاء نظرته العميقة التى كانت تبدو كأنها تعاتبنى لا ننى حييته كما يحيى الناس الملوك العاديين ، ان هذا الوجه الشاحب الناحل وهاتين العينين اللوزيتين اللتين تلقيان نظرة دهشة من خلال أهدابها الطويلة يخففها مع ذلك مايتسم به من حسن الطوية ، وهيئته الهادئة وقامته المشدوقة كل ذلك أعدنى اعدادا طيبا في صالحه ، وقلت لرفيقى : « كيف استطاع أن يأمر باعدام هذا الرجل المسكين الذى دأينا جسده مقطوع الرأس فى « سدوق السمك » ؟ .

فقال لى: « انه لا يملك من أمر ذلك شيئا . فنفوذ السلطان أكثر قيسودا من نفوذ الملك الدسستورى و وهو مضطر الى مراعاة نفوذ العلماء الذين يشكلون فى آن واحد الهيئتين القضائية والدينية فى البلاد، كما هو مضطر كذلك لمراعاة الشهب الذي يعبر عن اعتراضاته بالثورات والحرائق و وهو يستطيع بلا شك بواسطة القوات المسلحة التى تحت يديه والتى كانت هى التى تقضى فى غالب الأمر على أجداده (١) أن يأتى عملا فرديا و ولكن من يحميه بعد ذلك من السم وهو سلاح المحيطين به أو الاغتيال وهو سلاح الجميع ؟

وهو مضطر في جميع أيام الجمعة الى التوجه الى أحد المساجد وسط جموع الشعب حيث يؤدى الصلاة وذلك حتى يستطيع كل حى من أحياء المدينة النيراه على التوالى • وهو يتوجه اليوم الى تكيه بيرا وهى مقر « الدراويش الراقصين » (المولوية) .

ولقد قدم لى صديقى بعض التفصيلات الأخرى عن موقف هذا الأمير ، مما فسر لى بعض الشيء تلك الكآبة المرتسمة على سمات وجهه. وفي الواقع ربما يكون هو الوحيد بين الاتراك الذي يحق له أن يشكو من عدم المساواة في المراكز ، وانها لفكرة ديمقراطية حقة تلك التي أوحت

<sup>(</sup>١) يضيف نرفال في الهامش الملاحظة التالية : «والتي تقضى عليه» .

الى الاتراك أن يضعوا على رأس دولتهم رجلا يعتبر في وقت واحد فوق الجميع ومختلفا عن الجميع . (1)

انه الشخص الوحيد في امبراطوريته الذي يحظر عليه أن يتزوج زواجا شرعيا . فلقد خشى الآتراك النفوذ الذي تمنحه مصاهرة سامية كهذه لبعض الأسر .

كما أنه لا يستطيع الزواج بأجنبية . ولذا فقد ألفى نفسه محروما من الزوجات الأربع الشرعيات اللاتى منحهن النبى محمد لكل مؤمن يستطيع اعالتهن . أما سلطاناته اللاتى لا يستطيع أن يطلق عليهن زوجاته فلسن فى العادة سوى جاريات . ونساء الامبراطورية التركية جميعا من أرمينيات الى يونانيات الى كاثوليكيات الى يهرويات يعتبرن حرات . وهو لا يستطيع أن يملأ حريمه الا من بلاد غريبة عن الاسلام لا تقوم بينه وبين سلاطينها علاقات رسمية .

وفى الوقت الذى كان فيه الباب العالى في حرب مع اوربا كان حريم السلطان آهلا بشكل عجيب . فلم تكن تنقصه الحسسناوات البيضاوات والشقراوات والدليل على ذلك تلك التى تدعى روكسلان وهى فرنسية ذات أنف طرفه متجه الى أعلى • ولم تكن تلك من بطلات المسرح وتستطيع أن ترى نعشها المغطى بالكشمير ويظله ريش النعام مسجى بالقرب من نعش زوجها فى مسجد السليمانية . أما اليوم فلم يعد فى امكان هذا السلطان سيىء الحظ أن يحصل على أية فرنسية ولا حتى أية اوربية . ولو أنه تجاسر وأمر باختطاف احدى غوانى بيرا اللاتى يرتدين آخر المستحدثات الأوربية فى نزهات يوم الأحد لانهالت عليه الاحتجاجات الديبلوماسية من السفراء والقناصل وربما تسبب ذلك فى حرب أطول من تلك التى أثارها فى الماضى اختطاف هيلين .

وحينما يمر السلطان في بيرا تتدفق جموع النساء اليونانيات لرؤيته . وحينئذ عليه أن يبعد عينيه عن أى اغراء لأن نظام القصر لا يبيح له العشيقات العابرات ولن يكون له الحق في احتجاز امرأة حرة

<sup>(</sup>١) ثمة ملاحظة يضيفها نرفال اذ يقول : « وتحت الجميع » .

المولد . ولا بد انه قد أصابه الملل سريعا من الشركسيات و فتيات الملايو أو الحبشيات ، وهن وحدهن اللاتى تنطبق عليهن الشروط اللازمة للعبودية ، كما أنه لابد قد هزه الشوق للشقراوات الانجليزيات أو الفرنسيات اللبقات . ولكن تلك هي الفاكهة المحرمة .

ولقد أخبرنى رفيقى كذلك عن العدد الراهن للنساء فى السراى . وهو رقم يبعد كثيرا عما يفترضه الناس فى أوربا ، ان حريم السلطان لا يضم الا ثلاثا وثلاثين سيدة ليس بينهن سوى ثلاث فقط يعتبرن محظيات ، أما باقى نساء القصر فلسن سوى وصيفات ، ان أوربا اذن تعطى معنى خاطئا لكلمة وصيفة ، وكذلك فثمة عدد من الراقصات والمغنيات الا أنهن لا يرقين الى طبقة السلطانات الا اثر نزوة من نزوات السلطان أو بخروجه عن التقاليد المتبعة ، وهكذا فان السلطان وقد اضطر ألا يتخذ من النساء سوى الجاريات هو نفسه ابن جارية ، وتلك ملاحظة لايقتصد الاتراك فى توجيهها اليه في لحظات السخط الشعبى ،

وأخذنا نوالى ذلك الحديث ونحن نكرر من حين لآخر: "باللسلطان السكين! وفى تلك الأثناء هبط من عربته الى رصيف الفنار لأنه لايمكن المرور بالعربة على القنطرة التى تعبر القرن الذهبى لدى اكثر مواضعه ضيقا. وهنا يجد المرء قنطرتين مرتفعتين الى حد ما قد أعدا لمرور القوارب . وامتطى السلطان صهوة جواده ولما وصل الى الشاطىء الثاني سلك الطرق الجانبية الضيقة التى تحاذى الاسوار الخارجية لحى غلطة مارة بسياحة الموت الصغيرة التى تظللها أشيجار السرو الضخمة حتى يصل الى الشارع الكبير فى بيرا . وكان الدراويش فى انتظاره وقد اصطفوا فى فنائهم حيث كان من المستحيل بالنسبة لنا أن ندخل . تلك اذن هى التكية التى يوجد بها قبر الكونت دى بونفال الشهير ، والذى تخل عن دينه المسييحى واعتنق الاسلام وظل لفترة طويلة على رأس الجيوش التركية وحارب فى ألمانيا ضيد الجيوش المسيحية . وكانت زوجته ، وهى من مدينة البندقية وقد تبعته الى القسطنطينية ، تقوم له بدور المساعد فى معاركه .

وبينما كنا متوفقين لدى باب التكية صعد الشارع موكب جنائزى يتقدمه القساوسة اليونانيون متجها صوب الطرف الخارجى للحى الا أن حرس السلطان أمر القساوسة بالتراجع فقد يخرج السلطان في أية لحظة وليس من اللائق أن يتقابل هكذا مع الجنازة ، ومرت لحظات من التردد ، وأخيرا قام رئيس القساوسة وكان مرتديا تاجه ذا الطراز الإمبراطورى وثيابه البيزانطية الطويلة الموشاة بالزينات المعدنية البراقة ويبدو فيها مختالا كشارلمان قام بتوجيه الاعتراض الى رئيس الحرس ، ثم استدار نحو قساوسته وقد بدأ عليه الغضب وأشار اليهم بيده أشارة تدل على وجوب الاستمرار في الطريق وعلى أنه إذا خرج السلطان في هذه اللحظة فعليه هو أن ينتظر حتى يمر الميت .

وانى أذكر هذا التفصيل كمثل للتسمامح القائم في القسطنطينية بالنسبة للاديان المختلفة .

<sup>(</sup>۱) اتكونت دى بونفال (۱۹۷۰ ـ ۱۷۷۷) كان ضابطا فرنسيا من ضباط البحرية وقد اشترك فى أول حياته فى معارك ضد الاتراك كمعركة بلجراد . واثر مبارزة بسبب الشرف ذكر فيها اسم ملكة اسبانيا وهى تمت له بصلة قرابة بعيدة حكم عليه بالسجن فهرب واعتنق الاسلام ولجأ لتركيا حيث قربه السلطان محمود اليه واشترك فى اعادة تنظيم الجيش وحصل على عدة ألقاب . ثم ما لبث أن الصبح أقرب المقربين الى السلطان وكان له دور كبير فى السياسة العالمية ابتداء من سنة ١٧٣٠ .

#### ٣ - ساحة الموت الكبيرة

انى أستشعر بعض الحرج فى التحدث كثيرا عن الجنازات والجبانات فى مدينة القسطنطينية تلك المدينة الضاحكة الرائعة التى لا ينبغى أن توحى آفاقها المتموجة الخضراء ومنازلها المطلية ومساجدها شديدة الأناقة بقبابها المصنوعة من القصدير ومآذنها الرقيقة الا بأفكار المتعة والاحلام الهادئة والا أن الموت نفسه فى هذا البلد يأخذ طابع العيد وان الموكب اليونانى الذى كنت أتحدث عنه الآن لا يحمل شيئا من المظهر الجنائزى الذى تتسم به مراسم الدفن لدينا و فالأساقفة ذوو الوجوه المضيئة والملابس المتألقة بما عليها من وشى وتطريز وما يليهم من رجال الدين الشبان بملابسهم الطويلة ذات الألوان الزاهية ثم أصدقاؤهم وقد ارتدوا أغلى ما لديهم من ثياب ، ثم فى الوسط الفقيدة وهى ما زالت فى سن الشباب ، وهى شاحبة كالشمع الا ان وجهها يطلى بالمساحيق وقد سجى أغلى ما لديها من المخمل والأطلس وتحلت بكمية كبيرة من الحلى الماسية النى ما لديها من المخمل والأطلس وتحلت بكمية كبيرة من الحلى الماسية النى ربما لا تترك معها فى القبر و ذلك هو مشهد ذلك الموكب الذى بتسم بالكاربة أكثر مما يتميز بالآسى و

أما المنظر الذي نراه من تكية الدراويش الراقصين فيمتد على ساحة الموت الصغيرة التي تهبط ممراتها الغريبة نحو البحر حتى مباني البحرية وثمة مقهى يحب الدراويش الجلوس فيه ، وهم أناس ذوو طبيعة مرحة وحديث لطيف ، وهذا المقهى يمد صفوف موائده ومقاعده في مواجهة التكية ، ويأتي الناس اليه لتناول القهوة وهم يدخنون النرجيلة والشبق وهمناك يتمتع الناس برؤية المارة من الأوربيين وكثيرا ماتمر مواكب أثرياء الانجليز والسفراء من هذا الشارع وكذلك العربات المذهبة تحمل النساء

والتى نشبه عربات اليد التى تجرها غاسلات الملابس لولا ما يضفيه عليها طلاء الدهب من مظهر لطيف • وهماده العربات تجرها الثيران ، ومن مميزاتها أنها تستطيع فى سهولة ويسر أن تحمل حريما بأسره ذاهبا الى الريف ولا يرافق الزوج أبدا زوجاته في تلك النزهات التى غالبا ما تتم يوم الجمعة ، وهو يوم الأحد بالنسبة للاتراك •

وفهمت من الزحام ومن ارتفاع مستوى الجمهور أن الجمع يتوجه نحو حفل ما ربما كان مكانه فيما وراء الضواحي وكان رفيقي قد تركني ليتناول غذاءه لدى بعض الأرمن الذين طلبوا اليه رسم احدى اللوحات اكما كان قد تفضل ودلني على مطعم لأحد سكان فيينا ويقع في أعالى بيرا وان المرء ليجد نفسه ، ابتداء من التكيه والمساحة الخضراء التي تمتد في الجهة الأخرى من الشارع في حي باريسي صميم ، فلا يصادف طيلة ربع فرسخ الاحوانيت متألقة لبائعات المستحدثات وبائعي المجوهرات والحلوى والملابس الداخلية والفنادق الانجليزية والفرنسية والكتاتيب والمقاهي وتطل واجهات أكثر القنصليات كذلك على هذا الشارع وأكثر ما تميزه وتطل واجهات أكثر القنصليات كذلك على هذا الشارع وأكثر ما تميزه الوسيه وفي الامكان تحويله وقت الحاجة الى قلعة يخشى باسها تسيطر الموسيه وفي الثلاث :

بيرا وطوقانا وجالاتا · أما السنفارة الفرنسية فتقع في مكان أقل من ذلك ، في شارع يهبط نحو طوقانا · أما هذا القصر الذي تكلف الملايين الكثيرة فلم يتم بناؤه بعد ·

واذا تبعنا ذلك الشارع وجدناه يتسمع فيما بعد وصادفنا الى اليسار المسرح الايطالى الذى يفتح أبوابه مرتين فى الأسبوع فقط ثم ثم بعد ذلك تأتى المنازل البورجوازية المجميلة التى تطل على حدائقها . ثم الى اليمين مبانى الجامعة التركية والمدارسي الخاصة ثم أبعد من ذلك الى اليسار تجد المستشفى الفرنسي ث

وينتهى الحى فيما وراء تلك النقطة حيث يمتلى الطريق الفسيح بباعة المقليات وتجارة الفاكهة والبطيخ والسمك وتبدأ المسلاهى فى الظهور فى حرية أكثر مما فى المدينة ، وهبى عادة ذات أبعاد كبيرة وهبى تبدأ بعاعة فسيحة تشبه داخل المسرح ، وهبى ذات رواق مرتفع يحيط به دربزين من الخشب وفى أحد جوانبه تجد نضدا يباع عليه النبيذ الأبيض والأحمر فى زجاجات ذات أفواه كاباريق يحملها كل شارب الى المائدة التى يختارها وفى الجانب الآخر تجد فرنا كبيرا محملا بالمشهيات

تورع على الناس في صحون تحمل دنك الى المواتد وحيند ينبغى التعود على الأكل على هذه القطعة الصحغيرة من الآثاث التي لا ترتفع الى الركبة والجمهور الذي يتزاحم على هذا النوع من الاماكن لا يتكون الا من اليونانيين ، الذين تعرفهم بطرابيشهم التي تصغر طرابيش الاتراك ومن اليهود الذين يرتدون العمامات الصغيرة المحاطة بقطعة من القماش الرمادي، والأرمن ذوى ( الكلبك » (۱) البشع الهائل الذي يبدو كغطاء رأس الجنود قاذ في القنابل اليدوية وقد تورم من اعلى ، أما المسلم فلا يجرؤ على الدخول علنا الى هذه الحانات .

ولا ينبغى أن توحى الينا أغطية الرأس هذه التى تميز كل جنس لا سيما فى الأوساط الشهبية بأن تركيا ما زالت كما كانت فى الماضى بلدا لا مساواة فيه وقديما كانت الأحدية ، شأنها فى ذلك شأن أغطية الرأس تدل على ديانة كل ساكن من السكان . وكان الاتراك وحدهم الذين يملكون حق ارتداء الأحذية الصفراء بينما الأرمن يلبسون الاحذية الحدية الححداء ويلبس اليونانيون الاحذية الزرقاء واليهود الاحذية السوداء وكذلك كان المسلمون وحدهم هم الذين يملكون الملابس الزاهية الفاخرة و بل حتى المنازل كانت تشهارك فى هذه التفرقة ، وكانت منازل الأتراك تتميز بالوانها الزاهية أما منازل الآخرين فلا يمكن أن تطلى الا بالألوان القاتمة و أما اليوم فقد تغيرت الحال وأصبح لكل رعية من رعايا الإمبراطورية الحق في ارتداء الزى الشبيه بالأوربي الذى بضمن بعيد الاصلاح وأن يغطى رأسه بالطربوش الأحمر الذي يختفى جزء منه تحت الحرير الأزرق الفزير حتى ليبدو كالشعر الازرق و

هذا هو ما اقتنعت به وأنا أرى عددا كبيرا من الناس يتوجهون في هذا الزى ، سواء على الائقدام أو على ظهور الجياد نحو المنتزه الأوربي في بيرا الذى قليلا ما يرتاده الاتراك الحقيقيون ، كما أخفت الاحذية اللامعة ذات الرقبة قد أخفت بالنسبة لمعظم الوجهاء من جميع الاجناس التفرقة القديمة التي كانت تسببها الأحذية . الا أننا ينبغي أن نلاحظ أن التعصب مأزال شديد لدى الرياس (٢) أكثر منه لدى المسلمين ، وليست العاده أو الفقر من ناحية أخرى بأقل تأثيرا في المحافظة على الملابس القسديمة التي تفرق بين الاجناس ،

ولكن من ذا الذي مازال يعتقد أن القسطنطينية متعصبة وهو يرى

<sup>(1)</sup> لباس الرأس لدى الارمن .

<sup>(</sup>٢) من كلمة ريس ( رئيس ) وكانت تطلق على غبر المسلمين .

المشهد المزدحم للمتنزه الافرنجي ؟ ان العربات من جميع الانواع تتقابل بسرعة لدى نهاية الضاحية والجياد تستعرض وتتجه النساء المتزينات من وهناك نحو غابه تهبط نحو البحر أو الى اليسار نحو طريق الباب العالى (بولوك درى) حيث المنازل التي يتخذها كبار التجار وصحاب البنوك للترفيه و وأذا توجهت أمامك رأسا لوصلت بعد بضع خطوات الى طريق جانبي مغلق تحيط به الأحراش وتظلله أشجار الصنوبر والشربين وترى من خلال فجواتها البحر ومصب المضيق بين اسكودا وطرف السراى الذي تتنهى لديه مدينة استنبول أما برج لياندر الذي يسميه الأتراك برج الفتاة فيرتفع فيما بين المدينتين وسط ذراع البحر الذي يمتد كالنهر الى يسارك انه مبنى ضيق مربع يقع على احدى الصخور ويبدو من بعيد وكأنه كشك لدوريات الحراسة وفيما وراء ذلك ترى جزر الأمراء وقد ارتسمت في غموض لدى مدخل بحر مرمرة والتسمت في غموض لدى مدخل بحر مرمرة والتسمت في غموض لدى مدخل بحر مرمرة ومدينات المراء وقد الرسمت في غموض لدى مدخل بحر مرمرة والمراء وقد

ولست في حاجة الى القول بأن هذه الغابة الطريفة الغامضة الرطبة هي الأخرى جبانة و فيجب أن نعلم في هذا الصدد أن جميع أماكن اللهو في القسيطنطينية تقع وسط المقابر ولتشاهد وسط كتل الاشتجار أشباحا بيضاء تنتصب في صفوف ويكفي شعاع واحد من أشعة الشمس لرسمها في وضوح هنا وهناك وانها شواهد من الرخام الأبيض في ارتفاع قامة الانسان رأسها كرة تعلوها عمامة وبعضها مطلي ومذهب زيادة في الابهام ويدل شكل العمامة على مكانة الفقيد أو قدم عهده وبعضها لم يعد يتبع آخر المستحدثات وكثير من هذه الحجارة الرمزية قد كسرت رأسه لأنها تعلو قبور الانكشارية وحينما قضى على هذه الفرق لم يتوقف غضيب الشعب لدى الأحياء منهم بل توجه الى جميع المقابر وكسر رءوس قبور الاموات وكسر رءوس قبور الاموات وكسر رءوس قبور الاموات .

و تعلو الشواهد قبور النساء كذلك الا أن الرأس فيها قد استبدلت بزينة تمثل زهورا منحوتة ومذهبة ولتستمع كذلك الى الضحكات الصاخبة التي ترن تحت هذه الأشجار الجنائزية . انهن الأرامل والأمهات والاخوات اللاتي يتجمعن في اجتماعات عائلية بالقرب من قبور أعزائهن و

ان العقيدة الدينية في هذا البلد من القوة بحيث لا يفكر أحد بعد الدموع التي تذرف لحظة الفراق الا في السعادة التي لا بد سيتمتع بها الفقيد في الجنة و وتأتى الائسرة بغذائها بالقرب من القبر ويملأ الاطفال الجو بصيحاتهم المرحة ويحرص الناس على اعطاء الميت نصيبه ووضعه في فتحة خصصت لهذا الغرض أمام كل قبر وهكذا تأمل الكلاب

الضائة التي تحضر عادة هذا المسهد في عشاء مقبل ، وتكتفى انتظارا لذلك ببقايا الطعام التي يقذفها الاطفال • ولاينبغى الاعتقاد بأن الأسرة تظن أن الميت سوف يستفيد من حصة الطعام التي خصصت له فتلك عادة قديمة تعود الى الماضى السمحيق • وقديما كانت التعابين المقدسة تتغذى بهذه الهبات الخيرية الا أن الكلاب في القسطنطينية كذلك مقدسة •

وحينما خرجت من تلك الغابة التي تحيط أحدى ثكنات المدفعية ذات البناء الشاسع الابعاد ألقيت نفسى فى الطريق المؤدى الى بويودرى وكان ثمة سهل غير منزرع ومغطى بالحشائش يمتد أمام الثكنات وهنا رأيت مشهدا لا يمكن فصله عما تقدم لقد تجمعت بعض مئات من الكلاب على الحشائش وهى تصدر صيحات الشكوى وعدم الصبر وبعد قليل رأيت بعض جنود المدفعية يحملون فوق ظهورهم كل أثنين معاه القدور الضخمة على الواح خشبية طويلة وهنا أطلق الكلاب صيحات الفرح وما أن وضعت القدور على الأرض حتى انقضت تلك الحيوانات على ما تحتوى عليه من طعام وكان شغل الجند هو تقسيم الزحام الكبير للكلاب بواسطة الألواح الخشبية التي ظلوا محتفظين بها وقال لى أحد المارة الإيطاليين: «انه الحساء الذي يقدمونه للكلاب ، انهم ليسوا نعساء » و

وأعتقد في واقع الأمر أن تلك القدور لم تكن تحتوى الا على بقايا طعام الجنود وأن المزايا التي يتمتع بها الكلاب في القسطنطينية ترتكز على أنها تخلص الطريق العام من بقايا المخلفات التي اعتاد الناس القاءها فيها (١) والمنشآت الخيرية الخاصة بها والاحواض المليئة بالمياه التي تجدها لدى مدخل المساجد وبالقرب من الصنابير لاهدف لها بلا شك الاذلك .

وكان الأمر يتعلق بالوصول الى مشاهد أكثر اغراء · وبعد أن نتعدى واجهة الثكنات نجد انفسنا لدى مدخل ساحة الوت الكبيرة . وهى هضبة شاسعة تظللها اشجار الجميز والصنوبر · ونمر اولا وسط قبورالافرنج ونميز وسطها كثيرا من العبارات الانجليزية والاسلحة المنحوتة وكلها على أحجار طويلة مسطحة يأتى الناس للجلوس عليها دون حرج وكلها مفاعد من الرخام · وقد أقيم أحد المقاهى في شكل كشك في

<sup>(</sup>١) ارجع الى الجزء الرابع الفصل الرابع فيما يختص بكلاب القسطنطينية .

مكان مكشوف وسط الأشجار ، ويشرف المنظر منه على البحر · ومن هنا نرى شاطئ أسيا في وضوح وقد غص بالمنازل المطلية والمساجد كما لو كنا نطل من احدى ضفتى نهر الرين على الضفة الأخرى، وينتهى الأفق من بعيد بجبل أولمب في بيثينيا الذي يكاد سفحه أن يختلط بالسحاب ، والى اليسار على الشاطئ تمتد مباني القصر الصيفي للسلطان باعمدتها اليونانية الطويلة وأسقفها المعرجة وأسوارها المذهبة التي تلمع تحت أشعة الشمس .

ولنذهب الى أبعد من ذلك ١٠ انه الجزء من الساحة المخصص للأرمن ان القبور المسطحة قد غطيت بأحرف لغتهم المنتظمة الشكل ٠ وعلى شواهد القبور الرخامية نجد الصفات التجارية التي مارسها كل منهم في حياته منحوتة : فهنا المجوهرات وهنا المطارق والمتلثات ، وهناك الموازين وآلات من أنواع مختلفة ٠ أما النساء فلا يميزهن جميعا الا بقات من الزهور ٠

ولنبعد أنظارنا عن هذه الانطباعات الثقيلة على نفس الأوربى ، ان الجمع خفير والنساء لسن محجبات اطلاقا وتتألق ملامحهن ذات الخطوط الثابتة بتأثير المرح والصحة تحت غطاء الرأس الشرقى كما يحدث للأوربيات تحت غطاء الرأس أو القبعة ، ولم تحتفظ على الوجوه بقطعة من الحرير الشفاف الا الارمينيات ، تستندها انوفهن المقوسة . ولما كان هذا الخمار لا يكاد يخفى ملامحهن فقد أصبح بالنسبة لأكبرهن سنا مصدرا من مصادر التأنق . أين يذهب هذا الجمع بزينته ومرحه ؟ انه ذاهب كذلك الى بويوكدرى .

#### چ - سان دیمتري

الا أن جمعا خفيرا كان يتوقف لدى المقسساهي الأنيقة التي تحف بالطريق واننا لنصادف احداها الى اليسار وقد فتحت أروقتها الفسيحة من ناحية على الساحة الكبيرة ومن الناحية الأخرى على مساحة واسعة من الوديان الصغيرة والتلال المليئة بالمباني الخفيفة التي تتخللها الحدائق وفيما وراء ذلك يبدو من جديد الخط البعيد الذي يموج بمساجد ومآذن استانبول واننا لنلتقي من جديد بهذا الأفق المطرز الذي يبدو لطوله رتيبا في معظم مناظر مدخل البوسفور و

وهذا المقهى هو ملتقى الصحبة الطيبة وكأنه مقهى غنائى من مقاهينا فى « الشانزليزيه » • وانك لتجد فيه صفوف الموائد على جانبى الطريق وقد ازدانت بالأعيان والوجهاء فى پيرا • وكل شىء فيه يقدم على الطريقة الفرنسية من مثلجات وشراب الليمون والقهوة • والشيء الوحيد الذى يدل على الطابع المحلى هو وجود ثلاث أو أربعة لقالق بصفة مستمرة ، وما أن تطلب، قدحا من القهوة حتى تأتى هذه اللقالق فتقف أمام منضدتك وكأنها علامات الاستفهام • ولا يجرؤ منقارها الطويل بما يتبعه من رقبة طويلة تسيطر من عل على المائدة على مهاجمة وعاء السكر • وتنتظر البجعات باحترام • وتظل هذه الطيور الخاصة تذهب هكذا من مائدة الى أخرى وهي تجمع السكر أو البسكويت •

والى مائدة قريبة من مائدتى كان يجلس رجل متقدم فى السن نوعا ذو شعر أبيض مثل رباط عنقه وقد ارتدى ملابس سودا، ذات طراز على شىء من القدم ووضع فى عروة سترته شريطا ذا ألوان مختلفة غريبة ، وقد استولى هذا الرجل على جميع الصحف الموجودة فى المقهى ووضع

جريدة استانبول فوق جريدة أزمير وجريدة مالطة فوق جريدة أثينا ، أى كل ما كان فى الامكان اسعادى فى هذه اللحظة اذ يطلعنى على أخبار أوربا وفوق هذا الصف من الصحف أخذ يقرأ باهتمام جريدة مونيتير العثمانية.

و تجرأت وسحبت احدى هذه الصحف نحوى وأنا أرجوه المعذرة • وحينئذ حدجنى بأحدى هذه النظرات الوحشية التى لم أراها الألدى مرتادى أقدم مقاهى باريس •

وقال لى : « سوف انتهى توا من قراءة « المونيتير » .

وانتظرت بضع لحظات وأخيرا تساهل وناولني الجريدة بتحية لها كل سمات القرن الثامن عشر الذي ينتمي اليه ·

م أضاف : « سوف نقيم الليلة يا سيدى حفلا كبيرا • فان الموينتير تنبئنا بمولد أميرة جديدة • وهذا الحادث الذى سوف يملأ جميع رعايا عظمته بالبهجة يتصادف وقوعه لدى أول شهر رمضان •

ولم أدهش منذ تلك اللحظة لرؤية الجميع في عيد ٠

وانتظرت فى صــبر متسـليا اما بالنظر الى الطريق المزدحم بالعربات والحيول واما بتصفح الجرائد الافرنجية التى كان جارى هذا يتناولنى اياها بعد أن يفرغ من قراءتها .

ولقد قدر الرجل بلا شك أدبى وصبرى فقال لى حينما رآنى على أهبة الاستعداد للخروج:

« أين تراك ذاهب ؟ الى المرقص ؟

فأجبت قائلا: « هل هناك مرقص ؟ »

\_ انك تسمع موسيقاه من هنا .

وفى الواقع كانت النغمات الحادة لفرقة موسسيقية يونانية أو فالاشيه تصل الى أذنى • ولكن هذا لم يكن يثبت أن ثمة رقصا يدور اذ أن أغلب ملاهى القسطنطينية ومقاهيها لها من الموسيقيين من يلعب للاته حتى خلال النهار •

<sup>(</sup>۱) الاميرة التى يتحدث عنها المؤلف هنا هى السلطانة جميلة وقد ولدت قبل بداية شهر رمضان فى هذه السنة المساقة عن شهر ، وقد كانت بداية شهر رمضان فى هذه السنة ١٨٤٣ هى ٢٥ سبتمبر ،

وقال لى الرجل الغريب : « تعال معى » ·

ورأينا على بعد مائتى خطوة تقريبا من الكشك الذى غادرناه توا بابا مزدانا بزينة رائعة يؤدى الى حديقة مثلثة الشكل لأنها تقع فى ملتقى طريقين • وكانت صفوف الأشجار المتقابلة التى تربط بينها الأكاليل وأبهاء الخضرة التى تحيط بالمناضد كل ذلك كان يكون منظرا على شىء من الابتذال بالنسبة للباريسى •

وكان مرشدى شديد الحماسة · ودلفنا الى الداخل الذى كان يتكون من قاعات عديدة غاصة بالشاربين · وكانت الفرقة الموسيقية مستمرة فى تدريباتها بعمية على آلات الكمان ذات الوتر الواحد والناك والطبول والجيتار وكانت النغمات التى ترسلها لا ينقصها الطرافة · وسألت أين توجد حلبة الرقص ؛ فقال لى الشيخ :

« انتظر ، ان الرقص لا يمكن أن يبدأ الالدى غروب الشمس تلك قاعدة من قواعد الشرطة • ولكن الامر لن يطول كما ترى » •

وقادنى الى احدى النوافذ ، ولم تلبث الشمس أن هبطت خلف خيوط الأفق البنفسجية التى كانت تحيط بالقرن الذهبى ، ولم نلبث أن سمعنا ضوضاء كبيرة تصل الينا من جميع الجهات ، كانت تلك طلقات مدافع « طوفانا » تليها طلقات بواخر الميناء جميعا التى كانت تحيى ذلك العيد المزدوج ، وفى نفس الوقت بدأ مشهد سحرى فوق الأفق البعيد الذى كانت تقطعه آثار استانبول ، وكلما ازداد هبوط الظلام من السماء كلما بدت لنا مسابح طويلة من النور تحدد شكل قباب المساجد وترسم عليها كتابات عربية تقص بلا شك بعض الاساطير بحروف مزينة ، وكانت المآذن التى تنطلق الى أعلى وكأنها آلاف من الصوارى فى أعلى المبانى تحمل خواتم من النور ترسم خطوط الأروقة الدقيقة التى تحملها ، وكانت أناشيد تأتى الينا من كل مكان ، وكانت فى ذلك اليوم صاخبة وكأنها أناشيد النصر ولو أنها فى المعتاد حلوة عذبة ،

وعدنا نحو القاعة وكان الرقص قد بدأ ٠

كان ثمة فراغ قد تكون وسط القاعة ورأينا نحو خمسة عشر راقصا يدخلون الى القاعة من الداخل وقد علت رءوســهم الطرابيش وارتدوا صديريات مطرزة ومناطق ذات ألوان زاهية • وكانوا كلهم من الرجال •

وكان يبدو أن الأول يقود الآخرين الذين كانوا متشـــابكي الأيدي

يؤرجحون أذرعتهم بينما كان هو يربط رقصه الدائرى برقص زميله بواسطة منديل كان كل منهما يمسك بطرف منه وكان يبدو وكأنه رأس ثعبان ذى رقبة متحركة وكان زملاؤه يكونون حلقات جسم هذا الثعبان تلك ولا ريب رقصة يونانية بما يميزها من هز الأرداف والتداخل والخطوات الاكليلية التى كانت ترسمها تلك الرقصات و

وما أن انتهوا من رقصهم حتى بدأت أعبر عن ضيق نفسى برقص الرجال الذى كثيرا ما رأيته فى مصر وحينئذ رأينا عددا مساثلا من النساء يعيد المشهد نفسه وكن جلهن جميلات شديدات الرشاقة فى ثيابهن الشرقية وكانت الطاقية الحمراء ثات الحافة الذهبية الموجة والزهور والغلالات اللامعة التى يزين بها رءوسهن والضلفائر الطويلة المزدانة بالقطع الذهبية والتى كانت تنسدل حتى أقدامهن تجلب لهن الكثير من المعجبين من الحاضرين ومع ذلك فلم يكن الا فتيات أيونيات خصرن مع أصدقائهن أو اخوتهن وكانت كل محاولة لاغرائهن لا بد أن تؤدى الى استعمال السكاكين وكانت كل محاولة لاغرائهن لا بد أن تؤدى الى استعمال السكاكين و

وقال لى الشبيخ اللطيف الذي تعرفت به منذ قليل :

« سوف اربك الآن خيرا من ذلك » .

وبعد أن تناولنا المرطبات خرجنا من هذا المبنى الذى يعتبر أشبه شيء بالمرقص العام في الشانزليزيه بالنسبة للافرنج في بيرا ·

كانت استانبول تتلألاً ضياء من بعيد في الأفق الذي غدا أكثر ظلمة وكانت صورتها الجانبية ذات المنحنيات العديدة الرشيقة تظهر ناطقية في وضوح وتذكرنا بتلك الرسوم التي يصنعها الاطفال من ثقوب بالدبابيس ويلهون بها أمام الضوء ولقد كان الوقت متأخرا جدا للذهاب اليها اذ أن عبور الخليج بعد غروب الشمس أمر غير مستطاع و

وقال لى الشيخ: « اعترف معى أن القسطنطينية هى المقر الحقيقى للحرية ، وسوف تزداد اقتناعا بذلك توا ، فما دام المرء يحترم الكلاب، وهو على أى حال حذر واجب، وما دام يشعل مصباحه حينما تغيب الشمس فقد حصل طوال الليل على حرية مماثلة لتلك التى يتمتعون بها فى لندن ولا يحصلون عليها الا « قليلا فى باريس ! » ،

وكان قد أخرج من جيبه مصباحا من الصفيح كانت ثنياته المصنوعة من القماش تطول كجلد الكور ( المنفاخ ) حين يتباعد ، وغرس به شمعة •

واستطرد ت ثلا: « انظر كيف أن هذه الممرات الطويلة من اشجار السروفي ساحة الموت الكبيرة ما زالت غاصة بالناس الى هذه الساعة » • وفي الواقع كانت الثياب الحريرية أو الحبرات (١) المصنوعة من الصوف الدقيق تبدو هنا وهناك وهي تحتك بأوراق الأحراش وكانت المغازلات الغامضة والضحكات المختلفة تخترق ظلام المر المحاط بالائسبجار • وكان تأثير المصابيح وهي تطير في كل مكان في أيدى المتنزهين يذكر ني بفصل الراهبات في أوبرا « روبير الشيطان » (٢) كما لو كانت هذه الآلاف المؤلفة من الحجارة المسطحة المضاءة للمارة قد نهضت فجأة ، ولكن لا ، كان كل شيء ضاحكا وهادنا الا أن نسيم البحر كان يؤرجع الحمائم النائمة في الشربين وفي أشجار السرو • وتذكرت هذا البيت من شعر جوتة :

انك تبتسم على القبور أيها الحب الحالد (٣) .

وفى هذا الوقت كنا نتجه الى بيرا ونحن نتوقف من حين لآخر لتأمل المشهد الرائع للوادى الذى يهبط نحو الخليج ، والأضواء التى تتوج قلب الخليج المائل للزرقة الذى تبرز فيه أطراف الاشتجار المدببة ويلمع فيه البحر من ممان لاخر وهو يعكس أنوار المصابيح الملونة المعلقة بصوارى السفن ، وقال لى الشيخ:

« انك لا تشك في أنك تتحدث الآن الى وصيف قديم للامبراطورة كاترين الثانية » •

فقلت في نفسى : « ان هذا لا مر يدعو الى الاحترام لأنه يعود على الا قل الى السنوات الأخيرة من القرن الماضي » •

وأضاف الشيخ بشىء من الزهو: « ينبغى لى القول بأن امبراطورتنا ( أذ أننى روسى ) كانت في ذلك العهد في نفس الحالة التي أنا فيها اليوم تقريبا •

وتنهد الرجل ـ ثم أخذ يتحدث طويلا عن الامبراطورة ولباقتهـا وجاذبيتها الساحرة وطيبتها وأضاف قائلا : « أن حلم كاترين الدائم

<sup>(</sup>۱) ثوب تركى تخرج به السيدات كان معروفا فى مصر حتى أوائل هذا القرن (۱) كتبب المسرحية سنة ١٨٣٦ . وفى الفصل الثالث تعرض رقصة فى منتصف الليل بين أطلال أحد الاديرة تؤديها الراهبات وقد خرجن من أحداثهن .

<sup>(</sup>٣) من ترجمة جيراردى نرفال ، هذه مقطوعة باسم ( المسافر ) نشرها فى ديواند « أشعار المانية » وهذا البيت ذكره نرفال من الذاكرة لأما النصف المترجم فى ديواند فهو : وأنت أيها الانسان ! انك تبغى لنفسك كوخا ببقايا الماضى السامية وتمنح لنفسك المتعة فوق القبور » .

كان رؤية القسطنطينية » • وكانت تذكر أحيانا أنها سوف تذهب اليها متخفية في زى بورجوازية ألمانية • ولكنها كانت تفضل قطعا أن تدخلها دخول الظافرين ولذلك فقد بعثت الى اليونان بتلك الحملة برياسية أورلوف التى مهدت من بعيد لثورة اليونانيين » • ولم يكن لحرب القرم كدلك من هدف أخر • الا أن الترك قد دافعوا عن أنهسهم بمهارة جعلتها لا تتمكن الا من السيطرة على هذه المقاطعة التى ضمنتها في آخر الأمر معاهدة السلام •

« لقد سمعت عن الحفلات التي كانت تقام في هذا البلد والتي كان يحضرها الكثير من وجهما الكم المغامرين ٠ لم يكن الناس يتحدثون الا بالفرنسية في بلاطها، ولم يكن يشغلهم سوى فلسفة كتاب دائرةالمعارف والمآسى المسرحية التي كانت تعرض في باريس والشعر الخفيف ٠ وكان الأمير دى ليني قد وصل متحمسا لمسرحية « افيجيني في توريد » للكاتب جيمون دى لاتوش (١) ٠

والمتو أهدته الامبراطورة جزءا من توريد القديمة كانوا يتوقعون العثور فيه على المعبد الذى أقامه تواس قاسى القلب، ولقد ضاق الأمير ذرعا بهذه الهدية التى تبلغ بضع فراسخ مربعة يشغلها المزارعون المسلمون الذين يكتفون طول اليوم بالتدخين وشرب القهوة ولما كانت الحرب قد جعلتهم فى فقر مدقع لا يمكنهم من الاستمرار فى هذه الطريقة لقتل الوقت فقد وجد الأميز دى لينى نفسه مضطرا الى أن يقدم لهم النقود كذلك حتى يتمكنوا من تجديد مئونتهم و

ولذا فقد افترق عنهم وقد ربطتهم به صداقة وطيدة ٠

لم يكن هذا الاكرما • أما پو تمكين فقد كان أكثر روعة •

فلما كانت المنطقة الرملية التى يقيمون بها تؤذى عينى امبراطورته فقد جلب غابات كاملة من الصنوبر من مسافة تبعد خمسين فرسخا • والواقع أنها لم تكن تعطى الظلال الاخلال اقامة البلاط الامبراطورى •

ولم تكن كاترين تتعزى عن ضياع فرصة زيارة ساحل آسيا · ولكى تشغل وقت فراغها خلال اقامتها في القرم فقد ألحت على السيد دى سيجور لكى يعلمها قرض الشعر بالفرنسية · لقد كان لهذه المرأة جميع أنواع النزوات · وبعد أن تبينت الصعاب التي تكتنف ذلك حبست نفسها

<sup>(</sup>۱) ۱۷۲۳ \_ ۱۷۲۰ وقد نشرت هذه المسرحية سنة ۱۷۵۷ ·

فى مكتبها لمدة أربع ساعات وخرجت وقد نظمت بيتين من البحر الطويل (الاسكندرى) لا تزيد قيمتها عن أن تكون مفبولة . وهذان البيتان هما:

في سراى أحد الخانات على الوسائد المطرزة

في كشك من الذهب محاط بسياج

« ولم تستطع أن تكمل « الباقي » ٠

وقلت ملاطفا: « ان هذين البيتين لا ينقصه اللون الشرقى · بل انهما يعبران عن رغبة ما لمعرفة ما يمكن معرفته عن الغزل لدى الاتراك ·

« لقد رأى الأمير دى لينى أن القافية في هذا الشعر بشعة ممل ثبط حمية الامبراطورة وصرفها عن الشعر الفرنسى كله • اننى أحدثك عن أمور وصلتنى عن طريق النقل • لقد كنت حينئذ في المهد ، ولم أشهد الا السنوات الأخيرة لهذا العهد العظيم • وبعد موت الامبراطورة ورثت عنها بلا شك بعض هذه الرغبة العنيفة التي كانت لديها لرؤية القسطنطينية ، فتركت أسرتي وأتيت الي هنا لا أحمل الا ألنذر اليسير من النقود • وكنت في العشرين من عمرى أملك أسنانا قوية وساقين رائعتى التكوين • • »

#### مغامرة في السراي القديمة (١)

وتوقف رفيقى الشيخ وهو يرسل تنهيدة ، ثم قال وهو ينظر الى السماء : « سوف استأنف حديثى ، ولكنى وددت فقط أن أريك ملكة الحفل الذى يبدأ فى استأنبول والذى سوف يستمر ثلاثين ليلة » · ثم أشار بأصبعه الى نقطة فى السماء يظهر فيها هلال هزيل : لقد كان هذا هو الهلال الجديد ، هلال رمضان الذى بدا ضعيفا فى الافق · والحف لا تبدأ الا اذا رؤى فى وضوح من فوق المآذن أو الجبال المجاورة للمدينة · وثمة اشارات ترسل لاخطار الناس بذلك ·

وقلت بعد هذه الحادثة وقد رأيت أن الشيخ يحب أن يستعيد ذكريات شبابه : « ماذا فعلت حين وصلت الى القسطنطينية ؟ »

لقد كانت القسطنطينية يا سليدى أكثر تألقا منها اليوم ، وكان الطابع الشرقى هو السائد على بيوتها ومنشئاتها التى أخذوا منذ ذلك الحين يعيدون بناءها على الطريقة الاوربية . وكانت العادات صادمة الا أن صعوبة التحايل كانت أكثر ما في الأمر سحرا » .

فقلت له في اهتمام بالغ وقد رأيت أنه عاد الى التوقف: « استمر »

لن أحدثك يا سيدى عن بعض العلاقات الرائعة التى عقدتها مع أناس من طبقة عادية ١٠ خطر مثل هذه العلاقات لا يوجد فى الواقع الا بالنسبة للمرأة ، الا اذا بلغ بنا التهور حد زيارة امرأة تركية فى بيتها

<sup>(</sup>۱) هذا سرد مطول لقصة سبق لنرفال اختصارها في أصل للبحق (۱) الذي عاد فغيره فيما بعد .

أو التسلل اليه خفية · انى لا أريد الزهو بمغامرات من هذا النوع جازفت بها · ان آخر هذه المغامرات وحدها هي التي يمكن أن تثير اهتمامك ·

« لقد شعر أهلى بالأسى لبعدى عنهم • وقد اضطرنى الحاحهم على رفض كل وسيلة تمكننى من اطالة اقامتى فى القسطنطينية الى أن التحق بأحد بيوت التجارة فى حى غلطة • فتوليت الشئون الكتابية لدى أحد تجار المجوهرات من الأرمن • وذات يسوم قدمت نساء كثيرات يتبعهن العبيد الذين كانوا يحملون الثوب الرسمى للسلطان •

« وكانت نساء السراى في ذلك العهد يتمتعن بحرية القدوم لشراء ما يلزمهن لدى تجار الاحياء الافرنجية لأن خطر معاملتهن بغير ما ينبغى من الاحترام كان كبيرا لدرجة أن أحدا لم يكن يجرؤ على ذلك · كما أن المسيحيين في ذلك العهد كان ينظر اليهم وكأنهم لا يكادون يكونون من الناس · ولما كان السفير الفرنسي نفسه يأتي الى السراى كانوا يقدمون له العشاء بمفرده ، ثم يقول السلطان فيما بعد لوزيره الأول : « هل أطعمت الكلب؟» فيجيب الوزير قائلا ، ۔ « نعم ، لقد أكل الكلب » ۔ « حسن! فليلق به فيجيب الوزير قائلا ، ۔ « نعم ، لقد أكل الكلب » ۔ « حسن! فليلق به الى الخارج! » وكانت هذه العبارات تقليدية · وكان المترجمون يترجمونها بتوجيه احدى المجاملات الى السفر وينكرون كل شيء »

و تو قفت لدى هذا الاستطراد راجيا محدثى أن يعود الى زيارة سيدات السراى لتاجر المجوهرات ·

« تعلم أن في مثل هذه الظروف تكون هذه المخلوقات الجميلة دائما في صحبة حراسهن المعتادين بقيادة رئيس الخصيان (كيسلار أنما) • ثم أن المظهر الخارجي لهؤلاء السيدات لا يسمحر الا الخيال لأنهن كن دائما ملتفات ومحجبات في احكام وكأنهن متنكرات في حفلة رقص في المسرح • وقد طلبت تلك التي يبدو أنها تقود الأخريات رؤية عدد كبير من الحلى . ولما اختارت احداها استعنت لأخذها معها • فبينت لها أن الصياغة في حاجة الى تنظيف وأنه ينقصها بعض الحجارة الصغيرة • فقالت : «حسن! متى أستطيع أن أرسل في طلبها ؟ • • انني في حاجة اليها لحفل أظهر فيه أمام السلطان •

« فحييتها في احترام · وفي صوت تعروه رعشة خفيفة بينت لها أننا لا نستطيع تحديد الوقت اللازم لهذا العمل ·

فقالت السيدة : « ما دام الأمر كذلك فحينما يتم اعدادها ابعثوا

بها مع أحد صبيانكم الى قصر بشيك \_ طاش · ثم ألقت نظرة شاردة حولها ·

فأجبت قائلا: « سأذهب بها أنا نفسى يا صـــاحبة السمو لأننا لا نستطيع أن نعهد الى عبد أو حتى الى صبى بحلية بمثل هذه القيمة ٠

فقالت : « حسن ، ائت بها الى وسنوف تقبض ثمنها ·

« وعين المرأة هنا أكثر تعبيرا منها في أى مكان آخر لأنها كل ما تستطيع أن تراه منها في مكان عام وظننت أننى تبينت في تعبير عين الأميرة وهي تحدثني حسن نية خاص كان وجهي وسنى يبررانه ٠٠ وأستطيع أن أذكر اليوم يا سيدى دون فخر أننى كنت من أجمل شبان أوربا » ٠٠

واستقام وهو ينطق بهذه العبارات وبدا أن قامته قد استعادت نوعا من الرشاقة لم أكن قد لاحظتها بعد ٠

واستأنف كلامه قائلا: « ولما تم اعداد الحلية توجهت الى بشيك ـ طاش متبعا طريق بيوكدرى هذا نفسه الذى نحن فيه فى هذه اللحظة . ودخلت الى القصر عن طريق الأفنية المطلة على الحقول • وانتظرت بعض الوقت فى قاعة الاستقبال •

ثم امرت الأميرة أن امثل في حضرتها ، وبعد أن قدمت لها الحلية وتلقيت الثمن أخذت أهبتي للانصراف حين سألني أحد الضباط عما اذا انت أرغب في حضور مشهد للرقص على الحبل يقام في القصر كان المثلون فيه قد سبقوني في الدخول ، وقبلت الدعوة وأمرت الأميرة بأن يقدم لي العشاء ، بل وتنازلت وسألت عن الطريقة التي تم بها تقديم العشاء ، ولقد كان في الأمر بالنسبة لي ولا شك بعض الخطر لرؤية سيدة في مثل مكانتها العالية تتصرف نحوى بكل هذا التشريف ، ولما أقبل الليل ادخلتني السيدة الى قاعة أكثر أبهة من سابقتها وأمرت باحضار القهوة والنرجيلة ،

وكان بعض عازفى الآلات قد استقروا فى رواق مرتفع يحيط به درابزين وكان يبدو أنهم فى انتظار شىء غريب سوف يصاحبونه بموسيقاهم وبدا لى امرا مؤكدا أن السلطانة قد أعدت هذا الحفل لى • وفى هذا الوقت كانت مى نصف راقدة على أريكة فى أقصى القاعة وقد اتخذت هيئة احدى الامبراطورات . وكان يبدو أنها مستغرقة فى تأمل التمرينات التى كانت

تؤدى أمامها • ولم أكن استطيع أن افهم هذا الحياد او هذا التحفظ الرسمي الذي كان يمنعها من الاعتراف لي بمشاعرها وظننت أنني في حاجة لمزيد من الجرأة ٠٠ واندفعت نحو يدها التي تركتها لي دون كثير من المفاومة وفي ذلك الوقت حدثت ضبجة كبيرة حولنا • وصماح الحمدم والعبيد : الانكشارية ! وبدا أن السلطانة قـــد استجوبت ضباطها ثم أصدرت اليهم أمرا لم أسمعه. وقادونا ، إنا والراقصين على الحبل، من سلم خفى الى قاعة خفيضة تركونا فيها بعض الوقت في الظلام • وكنا نسمع فوق رءوسنا خطوات الجندالمندفعة ثم نوعا من الصدام ارتعدت له أوصالناهلها وكان مؤكدا انهم يحاولون اقتحام بابكان يحمينا حتى الآن وأنهم لن يلبثوا أن يصلوا الى مخبئنا • وهبط ضباط السلطانة السلم مندفعين ورفعوا نوعا من الابواب الأفقية في القاعة التي كنا فيها وهم يقولون لنا : « لقد ضاع كل شيء ٠٠ اهبطوا من هنا ! » وكانت أقدامنا تتوقع أن تصادف درجات سلم ما ولكنها فقدت فجأة كل سند وغطسنا نحن الثلاثة في البسفور ٠٠ كانت القصور التي تحف بالبحر وخصوصا قصر بشيك ـ طاش الذي استطعت رؤيته على الضفة الأوربية على بعد ربع فرسخ من المدينة، كانت منشأة جزئيا على ركائز في الماء • وكانت القاعـــات السفل مغطاة بألواح من خشب الأرز تغطى وجه الماء مباشرة وترفع حين ترغب سيدات السراى التدريب على السباحة • ولقد كان احد هذه الحمامات هــو الذي غطسنا فيه وسط الظلمات • ولقد عادت الالواح الخشبية فمسدت فوق رءوسنا وكان من المستحيل رفعها • وكانت الخطوات المنتظمة وقرقعة السلام ما زالت تسمع • وكنت بالكاد أستطيع التنفس من حين لآخر وأنا أستند الى سطح الماء . ولما لم أجد وسيلة للصعود ثانية الى القصر حاولت على الأقل السُّنباحة نحو الخارج · ولكن ما أن وصلت الى الحد الخارجي حتى وجدته في كل مكان ما يشبه السياج من الركائز المائية والذي ربما كان يستحدم عادة لمنع النساء من الهرب من القصر أثناء السباحة أو من أن يراهن الناس من الخارج •

« تخيل يا سيدى ما فى هذا الموقف الحرج · من فوق رءوسنا ألواح خشبية مغلقة من جميع الجهات و تحتها ست بوصات فقط من الهواء ، والمياه ترتفع شيئا فشيئا مع ارتفاع البحر الأبيض الذى لا يكاد يستشعر ، فيبلغ ارتفاعها قدما أو قدمين كل ست ساعات · ولم يكن أمامى الكثير من الوقت لأتأكد من أننى سوف أغرق سريعا · ولذا فقهد دفعت الالواح المحيطة بى كالقفص بقوة يائسة · وكنت من وقت لآخر أسمع تنهدات راقصى الحبل البائسين اللذين كانا يحاولان مثلى العثهدور على طريق للمرور · وأخيرا

وصلت الى ركيزة أقل صلابة من غيرها استسلمت لضربة يدى ولا ريب أن الرطوبة قد سببت في تآكلها أو أنها كانت أقدم من غيرها واستطعت بمجهود يائس ان أفصل منها جزءا تالفا وأن أنزلق الى الخارج بفضل القامة الرشيقة التي كنت أتمتع بها في هذا الوقت ، ثم توصلت بعد أن تعلقت بالركائز الخارجية الى بلوغ الشاطئ رغم ما كنت به من تعب ، ولا أعلم ما حدث لرفيقي في التعاسة ،

ولقد روعتنى الأخطار مختلفة الأنواع التي عرفتها فأسرعت بمغادرة القسطنطينية ·

ولم أستطع منع نفسى من أن أقول لمحدثي بعد أن رثيت لحاله للأخطار التي اقتحمها أنني أشك في أنه اختصر بعض تفاصيل قصته ·

فأجاب قائلا: « سيدى اننى لا أقدم تفسيرا في هذا الصدد · وان شيئا لن يجعلني أخون ودا · · »

ولم يتم حديثه · وكنت قد سمعت من قبل عن هذه المغامرات الحالكة التي تنسب لبعض السيدات في السرايات القديمة في أواخر القرن الماضي · · واحترمت احتفاظ هذا ال « بوريدان » (١) الذي جعلله طول العمر باردا كالثلج بسره ·

<sup>(</sup>۱) اشارة الى قصة بوريدان اللى القى به الى نهر السين فى جوال كمسا ذكرها الشاعر فرنسوا فيون فى مقطوعته الشهيرة : « سيدات الزمن الماضي » .

#### ٦ - قرية يونانية

وكنا قد وصلنا الى مرتفع يشرف على سان ــ ديمترى • وهى قـــرية يونانية تقع بين ساحتى الموت الكبيرة والصغيرة • ويهبط الناس اليها من شارع تحف به بيوت خسبية غاية في الأناقة وتذكرنا الى حد ما بالذوق الصينى في البناء وفي الزينات الخارجية •

وظننت أن هذا الشارع يختصر الطريق الذى علينا أن نقطعه لنشاهد بيرا • الا أنه كان علينا أن نهبط الى واد يخترقه جدول صغير • وتستعمل حافته كطريق ينزل الناس منه الى البحر • وقد اقيم عدد كبير من المشارب والملاهى على جانبيه .

وقال لي رفيقي : « أين تريد أن تذهب ؟

- « يسعدني لو استطعت الذهاب لأنام » ·

- « ولكن الناس لا ينامون الا بالنهار فى رمضان . فلنقض الليل الى نهايته ٠٠ وحينما تشرق الشمس سيكون من الحكمة أن نلحق بفراشنا · واذا سمحت لى فانى أقودك الى بيت يلعبون فيه البكاراه » ·

وكانت واجهات المنازل التي هبطنا بينها بمظلاتها الممتدة فوق الطريق ونوافذها ذات القضبان الحديدية مضاءة من الداخل ، كما كانت أعمدتها التي تتألق بألوانها الزاهية تدل على أنها ملتقى اجتماعات لا تقل بهجة عن تلك التي سبق أن جبناها •

ينبغى العدول عن وصف العادات والاخلاق في القسطنطينية اذا كان بعض الوصف ذى الطبيعة الحساسة سيسبب فزعا شديدا · ان الحسسة

عشر ألفا من الأوربيين الذين تضمهم ضاحيتا بيرا وغلطه من ايط\_اليين وفر نسيين وانجليز وألمان وروس ويونانيين لا تربطهم أية علاقة معنوية ، ولا حتى وحدة الدين اذ أن المذاهب منقسمة فيما بينها أكثر من أشد الاديان اختلافا · كما أنه في مجتمع كهذا يعيش مجتمع النساء فيه حياة شديدة التحمظ · لا شك أنه يغدو من المستحيل فيه رؤية وجه امرأة من مواليد هذا البلد لو لم تقم فيه بعض الملاهى او النوادى · ومع ذلك فينبغى الاعتراف بأن المجتمع في هذه المنتديات خليط الى حد ما ·

ان ضباط السفن والشبان العاملين في التجارة الكبيرة وموظفي السفارات على اختلافهم ، جميع هذه العناصر المتفرقة والمنعزلة من المجتمع الأوربي تشعر بالحاجة لأماكن للاجتماع تكون بمثابة أرض معايدة أكثر من سهرات السفراء والتراجمة وأصحاب البنوك ، وهذا يفسر هذا العدد الكبير من المراقص التي تقام بالاكتتاب والتي كثيرا ما نشاهدها في داخل بيرا ،

لقد ألفينا أنفسنا هنا في قرية يونانية تماما ، وهي تعتبر حي الملاهي للافرنج وكان قد سبق لي أن جبت هذه القرية في وضح النهار دون أن يخطر ببالي أنها تضم كل وسائل التسلية الليلية هذه وكل هذه الكازينوهات والمراقص بل ولابد من الاعتراف كذلك بوجود بيوت اللهو أن الطيبة البطريركية المرتسمة على وجوه الآباء والازواج وهم جلوس على المقاعد ويعملون في بعض مهن التجارة أو معامل الآجر أو النسيج ومظهر النساء المتواضع بملابسهن اليونانية ومرح الأطفال وما يتسمون به من من لا مبالاه والشوارع المليئة بالدواجن والخنازير والمقاهي ذات الاروقة المرتفعة ذات الدرابزين والتي تطل على الوادي الغارق في الضباب والجدول الذي تحف به الحشائش ، كل ذلك بالإضافة الى خضرة أشجار الصنوبر والمنازل، المصنوعة من الخسب المنحوت يذكرنا ببعض المناظر الجميلة في جبال الألب السفلي .

و كيف كان يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ليلا و نحن لا نرى أى ضوء يصدر من حلال فضبان النوافذ ؟ ومع ذلك فبعد اطفاء الأنواد ظلت بعض هذه الأماكن مضاءة من الداخل كما استمر الرقص واللعب فيها من المساء الى الصباح و ودون ما حاجة الى الاشسارة الى عادة \_ بيوت المرح \_ ال «هيديريسى» لدى اليونانين فثمة ما يبرر الاعتقاد بأن الشباب يستطيون أحيانا تعليق الا كاليل على هذه الا بواب المطلية كما كان يحدث فى الزمن

الغابر أيام السيمادور(۱) » ولم نر ثمة عاشقا يونانيا يحمل على رأسه أكليل الورود بل رجلا ذا هيئة انجليزية ، وربما كان بحارا وقد ارتدى ملابس كلها سوداء ورباط عنق أبيض وقفازا وسار يسبقه عازف على الكمان • وكان يسير في مشية جادة خلف العازف الذي كانت مهمته بعث البهجة في مسيرته رغم أنه هو نفسه كان ذا هيئة حزينة • وظننا أنه لابد أن يكون رئيس بحارة أتى لينفق راتبه بسخاء بعد رحلة بحرية •

و يوفف مرشدى أمام منزل أطفئت أنواره من الخارج بعناية أكثر من غيره ، ودق الباب المطلى دقات خفيفة • وأتى زنجى ليفتح وهو يأتى ببعض اشارات الحذر • ولما رآنا نرتدى القبعات حيانا ودعانا بالأفندية •

وقد كان مظهر البيت الذى دخلناه رغم أناقته يؤيد الفكرة التى نكونها عادة عن الأوساط التركية ولقد تغير الزمن وأخذ جمود الشرق القديم الذى كان مضرب الإمثال يتأثر بضربات الحضارة والاصلاح الذى ألبس العثماني الطربوش وحبسه في «ردنجوت» يقفل بأزرار حتى الرقبة قد ادخل كذلك الى المساكن بساطة الزينة التى تروق لمذوق التحديث وهكذا اختفت الكتابات العربية الكثيرة والأسقف التى تحاكى خلايا النحل أو طريقة بناء الكهوف الصناعية والحواف المسننة والصناديق المسنوعة من خشب الأرز لتحل محلها الجدران الناعمة ذات الألوان الموحدة اللامعة تميزها حواف ذات زينات بارزة بسيطة وثمة رسوم عادية تحف بالجوانب الخشبية وبعض أصص الزهور التى تحوى بعض الزينات الحلزونية والأغصان كل ذلك بلا طراز فنى معين ولا يذكرنا الامن بعيد بالذوق الشرقي القديم بما يتسم به من نزوات وجو سحرى والاحمن بعيد بالذوق الشرقي القديم بما يتسم به من نزوات وجو سحرى

لقد كانت الغرفة الأولى مخصصة للذين يقومون بالخصدمة وفى الثانية ، وهى أكثر من الأولى زينة ، أدهشنى المشهد الذى رأيته وكان فى وسط الغرفة شىء ما يشبه المنضدة المستديرة يغطيها بساط سميك وتحيط بها أسرة على الطريقة العتيقة يسميها أهل البلد «التندور» وهناكان عدد كبير من النساء راقدات نصف رقدة مكونات ما يشبه أنصاف أقطار العجلة وقد اتجهت أقدامهن الى مركز العجلة حيث توجد مدفأة تخفيها الأقهشة و

<sup>(</sup>١) اسم عاشق يوناني ورد في مقطوعة شعرية للشاعر الفرنسي لا فونتين ٠

كانت سيماهن الجليلة وملابسهن الزاهية وصدريرياتهن الموشاة بالفراء وغطاء رءوسهن القسديم كل ذلك يدل على أنهن بلغن من العمر مالا يجعل مجالا للنفور من كلمة « سيدة كبيرة » التى استعملها الرومان على محمل حسن ، لقد اقتصرت مهمتهن على اصطحاب بناتهن أو بنات اخواتهن الى السهرة وجلسن فى انتظار نهايتها كما تنتظر أمهات الأوبرا فى مكان الانتظار فى المرقص ، لقد أتى أكثرهن من المنازل المجاورة ولم يكن ليعدن اليها قبل بزوغ الفجر ،

## ٧ - وجوه أربعة

أما القاعة المزينة الثالثة ، والتي تمثل غرفة الاستقبال في عاداتنسا فكانت مفروشة بالارائك المكسوة بالحرير ذى الالوان الزاهية المختلفة ، وعلى الأريكة القائمة في أقصى القاعة تربعت أربع سيدات جميلات شاءت الصدفة الطريفة ، أو ربما حدث ذلك طبقا لاختيار معين ، أن تجعل ألل واحدة منهن تمثل طابعا شرقيا متميزا ،

وكانت تلك التى تحتل وسط الأريكة شركسية كما نستطيع أن تحدس ذلك فورا من عينيها الكبيرتين السوداوين المتناقضتين مع بشرتها شديدة البياض وانفها المقوس ذى الخط الدقيق الواضح وعنقها الذى يميل قليلا الى الطول وقوامها الفارع الرشيق وأطرافها الرقيقة ، وكلها من العلامات المميزة لجنسها . أما غطاء راسها المكون من غلالات مزدانة بنقط من الذهب وقد عقصت على شكل عمامة فقد أفلت ضفائر غزيرة ذات لون أسود فاحم تظهر جمال خديها اللذين زادتهما المساحيق نضارة ، وكانت ترتدى سترة مطرزة ذات حافة من زينة غير ذات قيمة والتعاريج الحريرية كانت ألوانها العديدة تكون ما يشبه أن يكون حبلا من الزهور حول المنسوج الذى صنعت منه السترة ، وكان ما ترتدبه من حزام فضى وسروال من الحرير الوردى يكمل هذا اللباس الرشيق البراق .

وطبيعى أن تكون عيناها حسب العادة قد حددت حافتاهما بخطوط من الكحل كانت تزيد من اتساعها وتضفى عليهما مزيدا من البريق • أما أظافرها الطويلة وبطن يديها فكانت فى لون برتقالى بفعل الحناء • وقد ازدانت قدماها العاريتان اللتان تعتنى بهما كما تعتنى بيديها بنفس الزينة وكانت تثنيهما فى رشاقة على الأريكة وهى تدق الخلخال الفضى الذى تضعه حولهما من حين لآخر •

وبجوارها كانت تجلس سيدة أرمينيه كان ثوبها ، وهو أقل تحميلا بالزينات المبتدلة ، يذكرنا بالمستحدثات الحالية في القسطنطينية ، وكانت تزين رأسها بطربوش يشبه ما يلبسه الرجال ، قد غرق في شعر كثيف أررف هو شعر الزر المتصل به ، وكان جانب وجهها مقوسا تقويسا طفيفا كما كانت ملامحها تتسم بالفخر ولو أن صفاءها يكاد أن يكون حيوانيا ، وكانت ترتدى سترة من القطيفة الخضراء محلاة بحافة سميكة من ريش البجع كانبياضها وسمكها يضفي على عنقها، المحاط بزينة دقيقة من الخيوط المتشابكة يتدلى منها كرات من الفضة ، الكثير من الاناقة ، وكان قوامها ملفوفا بأقراص من لذهب تعلوها زرار كبيرة من خيوط الذهب المتشابكة ملفوفا بأقراص من لذهب تعلوها زرار كبيرة من خيوط الذهب المتشابكة وكانت قدماها اللتان تخليتا عن خفيهما على الحذاء تتثنيان وقد اكتستا في ترف مستحدث بحوارب من الحرير ذات جوانب مطرزة .

وعلى العكس من رفيقاتها اللاتى كن يتركن ضفائرهن ، التى تتخللها خيوط من الرقائق المعدنية الصغيرة ، تتدلى على أكتافهن وظهورهن ، كانت اليهودية الجالسة بجوار الارمينية تخفى ضفائرها بعناية ، كما تفرض عليها قوانينها ذلك ، تحت ما يشبه القلنسوة البيضاء ذات الشكل الكروى وكانت تذكرنا بغطاء الرأس لدى النساء فى القرن الرابع عشر كما يعطينا فكرة عن ذلك غطاء رأس كريستين دى بيزان (١) كان ثوبها الذى يتسم بمزيد من الاحتشام يتكون من قطعتين وضع كل منهما فوق الآخر ، كان الاعلى يصل الى ارتفاع الركبتين ، وكانت ألوانهما أكثر هدوءا والتطريز أقل بريقا مما ترتديه النساء الأخريات ، وكان محياها الهادىء والتطريز أقل بريقا مما ترتديه النساء الأخريات ، وكان محياها الهادىء الوديع والملامح المنتظمة الدقية في شيء الأنواع التى نعرفها ، كان أنفها بالقسطنطينية والذى لا يشبه في شيء الأنواع التى نعرفها ، كان أنفها لا يتسم بشيء من التقوس الواضح الذى يدل لدينا على من تحمل اسم

أما الرابعة ، وهى الجالسة على طرف الأريكة ، فقد كانت يونابية شابة شقراء تتميز الصورة الجانبية لوجهها بالدقة التى اشتهرت بها التماثيل القديمة ، وكانت تضع على رأسها قبعة من الخوص من صنع أزمير تتميز بحافة معرجة ورمانات من الذهب كانت تميل فى أناقة على الاذن وتحيط بها ضفيرتان كبيرتان من الشعر المعقوص تكونان عمامة فوق الرأس ، كانت تلك القبعة تتناسب تماما مع محياها اللماح الذى تضيئه

<sup>(</sup>۱۱) أديبة فرنسية ولدت في فينيسيا ١٣٦٣ \_ ١٤٣١ .

عينان زرقاوان تتالقان ذكاء وتتعارضان مع ذلك البريق الساكن الخالى . من الأفكار الذي يصدر من العيون السوداء الكبيرة لمنافساتها في الجمال .

وقال لى الشميخ : « تلك عينة كاملة لنساء الشعوب الأربعة التي يتكون منها الشعب البيزنطي » •

وحيينا هؤلاء النساء الجميلات اللاتي رددن التحية على الطريقة التركية ونهضت الشركسية وصفقت بيديها فانفتح أحد الابواب ورأيت من خلاله قاعة أخرى كان اللاعبون بملابسهم المختلفة يحيطون فيها باحسدى الموائد الخضراء •

وقال لى رفيقى : « هذا هو فراسكاتى (١) حى بيرا · وفى استطاعتنا أن نلعب بعض الأدوار فى انتظار العشاء ·

فقلت له غير آبه بالاختلاط بهذا الجمع : « اننى أفضل تلك القاعـــة التي تتألق بكثير من الملابس اليونانية » •

وفى تلك الأثناء دخلت فتاتان صغيرتان تحمل احداهما سلطانيــة من البللور موضوعة فوق صينية كبيرة وتحمل الأخرى ابريقا للماء وبعض الكوبات، نما تانت تحمل أندك منشغة ذات حافة من الحرير ذى اللمعة الفضية وتقدمت الشركسية التى كان يبدو أنهاتقوم بدورربة البيت نحونا، وأخذت ملعقة من الفضة المذهبة مزجتها بمربى الورد ثم قدمت الى الملعقة أمام فمى مع ابتسامة من أرق الابتسامات وكنت أعرف أنه فى مشلل هذه الحالة ينبغى ازدراد محتويات الملعقة ثم شرب كوب من الماء للمساعدة على البلع ، ثم قدمت لى الفتاة الصغيرة المنشفة لتنشيف فمى ، وقد حدث كل ذلك طبقا لتقاليد أرقى البيوت التركية ،

وقلت : « يبدو لى أننى اشهد لوحة من ألف ليلة وليلة وأننى أرى الآن حلم النائم الصاحى • ولربما دعوت هؤلاء النسوة الجميلات عن طيب خاطر . سحر القلوب والضنى وعين النهار وزهرة الياسمين (٢) •

وكان الشيخ على وشك أن يذكر لى أسماءهن حين سمعنا ضجة شديدة

<sup>(</sup>۱) بيت شهير من بيوت القماد في باريس اختفي سنة ١٨٣٧ .

<sup>(</sup>٢) اشارة الى قصة النائم اليقظان من ألف لياة وليلة :

كانت أسماؤهن هي : عنق المرمر وفم المرجان ووجه القمر وريق الشمس ومتعة العيون ومتعة القلب » .

على الباب يصحبها الرنين المعدني لقبضات البنادق · وحدث هرج شــــديد في قاعة اللعب وحاول كثير من الحاضرين الهرب أو الاختفاء ·

فقلت وقد تذكرت القصة التى ذكرها لى الشيخ : « هل نحن لدى بعض السلطانات · وهل سيقذفون بنا الى البحر ! »

وطمأننى تعبير وجهه الهادى، بعض الشيء · وقال لى : «لنصخ السمع» وسمعنا صوت أناس يصعدون السلم ، وكان ضجيج أصبوات مختلطة يسمع فعلا في القاعات الاولى حيث توجد السيدات الكبيرات ودخل ضابط شرطة بمفرده الى قاعة الاستقبال وسمعت كلمة « افرنج » ينطق بها للدلالة علينا · وأراد أن يتجه الى قاعة اللعب حيث كان اللاعبون الذين لم يهربوا يواصلون اللعب في هدوء ·

لقد كانت تلك مجـــرد داورية من رجال الامن للتأكد من أن ليس بالبيت أتراك أو طلبة من المدارس العسكرية • وكان من الواضح أن من لاذوا بالفرار كانوا ينتمون إلى احدى هاتين الطائفتين • الا أن الداورية قد أحدثت كثيرا من الضجيج لدى دخولها حتى لا يفترض احد أنها تتناول أجرها مقابل ألا ترى شيئا وألا تبلغ عن أية مخالفة • لقد كانت الامور تجرى على هذا النحو مع ذلك في كثير من البلاد •

وحانت ساعة العشاء · وتصالح السعداء والتعساء من اللاعبين بعد الكفاح وأحاطوا بمائدة أعدت على الطريقة الاوربية · الا أن النساء لم يظهرن في هذا الاجتماع الذي أصبح وديا وذهبن فجلسن فوق احدى المنصات · وأخذت فرقة موسيقية في الطرف الآخر من القاعة تسمعنا أنغامها أثناء تناول الطعام طبقا للعادات الشرقية ·

ولم يكن هذا الاختلاط بين الحضارة والتقاليد، البيزنطية من ادنى الأمور التى تجذب الناس الى تلك الليالى المرحة التى خلقها الاحتكاك الحالى بين أوربا وآسيا والتى تعتبر القسطنطينية مركزه البراق والذى يجعله تسامح الاتراك ممكن الوقوع · لقد حدث فعلا أننا لم نشهد هنا الاحفلا بريئا كسهرات مقاهى مرسيليا · أما الفتيات اللائى كن يسهمن فى نجاح هذا الاجتماع فقد استخدمن فى مقابل بعض القروش لكى يعطين للأجانب فكرة عن ألوان الجمال المحلى · ولم يكن ثمة ما يحمل على التفكير فى أنهسن قد استدعين لغرض آخر غير الظهور فى صورة جميلة وفى ملابس تدل على مستحدثات البلد · والواقع أن الجمع قد افترق لدى الخيوط الأولى للصباح

وتركنا قرية سان ـ ديمترى بهدوئها وسكونها الظاهرين. وليس ثمة منظر أكثر فضيلة من هذا المنظر الشاعرى حين يرى في ضوء الفجر الا هـــذه البيوت الخشبية التى كانت أبوابها تفتح هنا وهناك لتظهر معها ربات البيوت المبكرات .

وافترقنا . وعاد رفيقى الى بيته فى بيرا ، أما أنا فقد كنت مازلت واقعا تحت سحر تلك الليلة فذهبت للنزهة فى ضاحية تكية الدراويش حيث يتمتع المرء بالمنظر الكامل لمدخل المضيق . ولم تلبث الشمس أن طلعت وأعادت الحياة الى الخطوط البعيدة للضفاف والرءوس المرتفعة .

وفى اللحظة ذاتها دوت طلقة مدفع فى ميناء طوفانا · ولم يلبث أن انبعث من المئذنة الصغيرة التى ترتفع فوق التكية صوت رقيق حزين يسدو قائلا : « الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! •

ولم أستطع التغلب على عاطفة غريبة من التأثر · الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! وهؤلاء الدراويش المسلكين الذين يكررون هذه الكلمات السامية دون تغيير من فوق مئذنتهم كانوا يبدون لى وكأنهم يوجهون لى نقدا على ليلة أسىء استعمالها · وكان المؤذن مازال يكرر . الله أكبر! الله أكبر!

« لا اله الا الله ! محمد رسول الله ! »

تلك هي كلمات تلك الدعوة الخالدة ٠٠٠ أما بالنسبة الى فالله في كل مكان مهما تغيرت اسماؤه . وكم أكون تعيسا لو شعرت انني مذنب في تلك اللحظة من أجل خطأ حقيقي ولكني لم أفعل سوى أن نشدت التسلية كما يفعل جميع الافرنج في بيرا في احدى ليالي الأعياد حيث يجتمع الناس من جميع الأديان في تلك المدينة الدولية ولم لماذا اذن نخشي عين الله ؟ أن الأرض التي تبللها قطرات الندى ترد بأريجها العطرى على نسمة البحر العابرة التي تصل الى فوق حدائق السراى التي خططت على الضفة الأخرى و

وكان كوكب الصباح الباهر يرسم من بعيد تلك الحريطة الجغرافية السحرية للبسفور التى تجهد الأنظار في كل مكان بسبب ارتفاع الضفاف وتغير مناظر الأرض حين تقطعها المباه . وبعد أن بقيت ساعة في التأمل والإعجاب شعرت بالتعب فعدت في وضح النهار الى فندق الآنسات « بيشفتيه » حيث كنت أقيم والذى كانت نوافذه تطل على ساحة الموتى الصغيرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسارح والاغياد



### \ \_ خان ييلدز (١)

بعد أن أخذت قسطى من الراحة استفسرت عن طريقة حضور الحفلات الليلية التي تقام في المدينة التركية · ولم يجد صديقي الرسام ، الذي عدت فرايته خلال النهار ، بما له من ألفة بعادات البلاد ، من طريقة سوى أن يجعلني أعيش في استانبول ، وهو أمر كانت تعترضه صعاب كبرة ·

واستقللنا قاربا لعبور القرن الذهبى وهبطنا من سلم سوق السمك نفسه حيث كنا فى الليلة البارحة شهودا لحادثة دامية · وكانت الحوانيت مغلقة فى كل مكان ، كما كانت السوق المصرية التى تلى ذلك والتى تباع فيها التوابل والأصباغ والمنتجات الكيميائية مغلقة اغلاقا محكما · وفيما وراء ذلك لم يكن يسكن الطرقات الا الكلاب وقد أدهشها ، خلال الأيام الأولى من رمضان ، أن لم تعد تتلقى غذاءها اليومى من حانوت مجاور للسوق يشغله أرمينى يعرفه صديقى · لقد كان كل شيء مغلقا لديه · ولكن لما كان لا يخضع للقانون الاسسلامى فقد أباح لنفسه أن يصحو بالنهار وينام بالليل كالمعتاد دون أن يجعل شيئا يبدو من خارج حانوته ،

واستطعنا أن نتناول غداءنا لديه فقد كان من الحذر بحيث اشترى بعض المؤن في الليلة البارحة • ولو لم يكن الأمر كذلك لاضطررنا للعودة

<sup>(</sup>١) كتب نرفال في مراسلاته لوالده يقول : «منسذ بداية شهر رمضان ذهبت للاقامة لا في بيرا ولكن في الجزء الواقع بين القرن الذهبي والبحر : لقد وجدت مسكنا لطيفا للغاية يطل على أجمل منظر ، وهو في خان ييلدز أأى فندق النجمة . أن كل هذا المجنى الضخم ملىء بفرس وأرمن غاية في الأدب ، ولا يحوى المسكن الا الجدران ولكن أثاله المكون من سرير سفرى وحصير وسجادة ومنضدة من سعف النخل فيه الكفاية » .

الى بيرا للحصول على الطعام . وبدت له فكرة اقامتى فى استانبول غريبة لأول وهلة اذ أن هذا الحق لم يكن يمنح لأى مسيحى ولم يكن يسمح لهم الا بالقدوم اليها أثناء النهار . ولم يكن ثمة فندق واحد ولا خان واحد بل ولا حتى نزل صغير معد لاستقبالهم . ولا يستثنى من ذلك الا الأرمن واليهود أو اليونانيون من رعايا الامبراطورية .

ومع ذلك فقد تشبثت بفكرتى وبينت له أننى وجدت طريقة للاقامة فى القاهرة خارج الحى الافرنجى وذلك بأن ارتديت ملابس البلاد وجعلت الناس يعتقدون أننى قبطى • فقال لى : «حسن! ليس ثمة الا وسيلة واحدة وهى أن تجعل الناس يعتقدون أنك فارسى • لدينا فى استانبول نزل يدعى خان يبلدز (أى خان النجمة) يستقبل جميع التجار الآسيويين من جميع الأقطار الاسلامية • وهؤلاء الناس ليسوا من معتنقى مذهب على فحسب بل منهم المجوس والبرسيون والكوريون والوهابيون مما يكون خليطا من اللغات يستحيل معه على الاتراك معرفة الى أى جزء من الشرق ينتمى هؤلاء الناس • وهكذا اذا امتنعت عن التحدث بلغة من لغات الشمال يعرفونها من طريقة نطقها فانك تستطيع الاقامة بينهم .

وذهبنا الى خان ييلدز الذى يقع فى أعلى مكان فى المدينة بالقرب من « العمود المحترق » ، وهو من أطرف مخلفات بيزنطة القديمة ، وكان الحان ، وهو مبنى كله من الحجارة ، يبدو من الداخل وكأنه كهف ، وكان لمة ثلاثة طوابق من الأروقة تشغل جوانب الفناء الأربعة ، وكانت المساكن ذات القباب كلها معدة اعدادا واحدا : فهى تتكون من قاعة كبيرة تستخدم كمخزن ، وحجرة صغيرة ذات أرضية خشبية يستطيع كل امرىء أن يضع فيها سريره ، كما أن المستأجر كان له الحق فى وضع جمل أو حصان فى الحظيرة المستركة ،

ولما لم يكن لدى مطية ولا بضاعة فكان لابد أن يظننى الناس تاجرا فرغ من بيع بضاعته وأتي بقصد التزود من جديد بالبضائع وكان الأرميني على صلة عمل ببعض تجار الموصل والبصرة الذين قدمنى اليهم واحضرنا الغلايين والقهوة وشرحنا لهم الامر فلم يجدوا أية غضاضة فى قبولى بينهم على شرط أن أرتدى ملابسهم ولكن لما كنت أمتلك فعلا أجزاء كثيرة من تلك الملابس ، لاسيما عباءة من وبر الجمل استخدمته من قبل فى مصر وسورية ، فلم أكن فى حاجة الالطاقبة مديبة من الاستراخان على الطريقة الفارسية أحضرها لى الارمينى .

وكان كتير من هؤلاء الفرس يتكلمون اللغة الافرنجية لبلاد الشرق الني يستطيع المرء بواسطتها دائما أن يتفاهم مع الناس بمجرد أن يعيش في المدن التجارية وهكذا استطعت بسهولة أن أعقد صلات صداقة مع جيراني ولقد كانت ثمة توصيات قوية بخصوصي وجهت الى جميع من يسكنون الرواق نفسه ولم يكن يضايقني الا لهفتهم على تكريمي والى اصطحابي في كل مكان وكان لكل طابق في الخان طاه خاص كان يقوم عي الوقت نفسه بصنع القهوة وهكذا استطعنا أن نستغني تماما عن العلاقات الخارجية ومع ذلك فحينما كان يحل المساء كان الايرانيون الذين كانوا كالأتراك ينامون سحابة اليوم ليستطيعوا الاحتفال بكل ليلة من ليالي رمضان وكانوا يصحبونني معهم لشهود الاحتفالات المستمرة التي تدوم تلاثين يوما .

واذا كانت المدينة تبدو لمن يراها من مرتفعات بيرا مزدانة بالأضواء المتلالئة الرائعة فان شوارعها الداخلية قد بدت لى أكثر رونقا وبهاء كانت جميع الحوانيت المفتوحة مزينة بالأكاليل وأصص الزهور، ومزدانة من الداخل بالمرايا والشموع، وكانت البضائع مزينة في فن والمصابيح الملونة تتدلى من الخارج وكانت الرسوم والمذهبات نضرة وبائعو الفطائر بصفة خاصة وكذلك بائعو الحلوى ولعب الأطفال وبائعو المجوهرات يعرضون مالديهم من تحف ، كان ذلك هو مايجذب الأنظار في كل مكان وكانت الشوارع غاصة بالنساء والأطفال أكثر مما تزدحم بالرجال ، وذلك لأن هؤلاء كانوا يقضون أغلب وقتهم في المساجد والمقاهى وذلك لأن هؤلاء كانوا يقضون أغلب وقتهم في المساجد والمقاهى وذلك لأن هؤلاء كانوا يقضون أغلب وقتهم في المساجد والمقاهى و

ولا ينبغى أن نعتقد أن الملاهى قد أغلقت ، فالأعياد التركية للجميع . كان لكل « ريس » كاثوليكى أو يونانى أو أرمينى أو يهودى الحق فى دخول هذه الأماكن . ولابد أن يظل الباب الخارجي مغلقا ، ولكن ماكان على المرء الا أن يدفعه وبعد ذلك يستطيع أن يروى ظمأه بكأس طيب من نبيذ «تنيدوس» مقابل عشر بارات (خمسة سنتيمات) .

كنت ترى فى كل مكان بائعى المقليات والفاكهة أو سنابل الذرة المسلوقة التى يستطيع المرء أن يعيش عليها طيلة اليوم بعشر بارات ، وكذلك بائعى البقلاوة ، وهى نوع من الكعك المشرب بالكثير من السمن والسكر يحبه النساء بصفة خاصة ، وكان ميدان سيراسكييه هو أكثر

الميادين تألقا · كان مثلث الشكل تحف به من اليمين ومن الشمال أضواء مسجدين ، ومن الداخل أضواء المنشئات الحربية · وكان ذلك الميدان مكانا فسيحا لألعاب الفروسية ولمختلف المواكب التي تجتازه · كان ثمة عدد كبير مما يعرضه الباعة المتجولون يشغل واجهات المنازل ، كما كانت عشرات المقاهي تحاصرك باعلانات مختلفة عن العروض المسرحية والرقص وخيال الظل (١) ·

<sup>(</sup>۱) خيال الظل أو الظلال الصينية هي بداية القراقوز الذي سوف نتحدث عنه فيما بعد (في الفصل الثالث) .

## ٣ ـ زيارة لبيرا

ولما لم أكن مضطرا ، مثل المسلمين ، الى النوم طيلة النهار والى قضاء الليل كله في المتعة خلال شهر رمضان السعيد الذي يجمع بين الصوم واللهو فقد كنت كثيرا ما أذهب الى بيرا لكى أستمتع بالحديث الى الأوربين •

وذات يوم لفت نظرى اعلان لأحد المسارح فوق الجدران كان يعلن افتتاح الموسم المسرحى وكانت الفرقة الإيطالية هى التى ستبدأ بثلاثة أشهر من العروض المسرحية وكان الاسم الذى يلم عروف كبيرة كالنجم المسرحى لهذا الوقت هو اسم رونزى للاسم الذى يلم الكاتب الفرنسى التى تمثل أجمل فترات الموسيقى روسينى وقد خصها الكاتب الفرنسى ستاندال ببعض صفحاته الراائعة (۱) وقد تخطت رونزى للأسف سن الشباب · وقد قدمت الى القسطنطينية كما حضرت اليها منذ سنوات ممثلة التراجيديا الشهيرة الآنسة جورج ، التى ذهبت لتعرض مسرحياتها في القرم بعد أن مثلت على مسرح بيرا وكذلك أمام السلطان ومثلت مسرحية ايفيجينى فى توريد فى نفس المكان الذى أقيم فيه فيما مضى معبد توآس · ان كبار الفنا ابنى ، ومثلهم فى ذلك مثل جميع العبقريات ، يمتازؤن بشعورهم العميق بالماضى · وهم يحبون كذلك رحلات المغامرات وتجذبهم دائما شمس الشرق كما الو كانوا يشعرون أنهم من طبيعة وتجذبهم دائما شمس الشرق كما الو كانوا يشعرون أنهم من طبيعة النسور · وكان دونيزتى يقود الأوركسترا بأمر خاص من السلطان الذى عينه منذ زمن طويل رئيسا لموسبقاه ·

<sup>(</sup>۱) ستاندال : حیاة هایدن . روما ونابلی وفلورنسا . حیاة روسینی . یلاحظ آن اسلم المغنیة غیر حقیقی وان جیرار قد خلط بین اسلم المغنی ۱ المتینود » تاتشیناردی والمغنیة جوزیفین روتزی ـ دیبجینس .

حقيقة لم يكن هذا الاسم المتالق الا شقيقا للموسيقار الذى طالما أعجبنا به ولكفه لم يكن أقل تألقا منه فوق الاعلان الذى كان له سيحر خاص على الأوربيين ولذا فلم يكن يشغل المدينة الافرنجية الا هذا العرض المسرحى القريب وكانت التذاكر توزع قبل الموعد فى الفنادق والمقاهى ولذا أصبح من العسير الحصول عليها وخطرت لى فكرة التوجه لزيارة مدير أهم جريدة فرنسية فى القسطنطينية يرتقع مكاتبها في حى غلطة ، وقد بدا مسرورا لزيارتى واستبقائى للعشاء الذى كرمنى بعده بدعوتى لزيارة منزله وقال لى : « اذا لم تكن قد نسيت مهنتك القديمة بعنوتى لزيارة منزله وقال لى : « اذا لم تكن قد نسيت مهنتك القديمة وتحصل هكذا على وسيلة لدخول المسرح » وقبلت ربما بشىء من التسرع وتحصل هكذا على وسيلة لدخول المسرح » وقبلت ربما بشىء من التسرع يومين ليلا بعد نهاية العرض المسرحى ،

وقد عرضت أوبرا بيوند لمونتي (١) • كانت قاعة المسرح التي تقع أعالى بيرا تميل الى الطول أكثر من العرض . وكانت المقصورات متتابعة على الطريقة الإيطالية دون أروقة • وكانت كلها تقريبا مشغولة بالسفراء ورجال البنوك • أما الأرمن واليونانيون والافرنج فكان يتكون منهم تقريبا كل جمهور الصالة • أما مقاعد الأوركسترا فقد كنا نلاحظ فيها بعض الأتراك من أولئك الذين أرسلهم عائلوهم منذ زمن طويل الى باريس أو فيينا ، وذلك لأنه اذا لم تكن التقاليد تمنع في واقع الأمر المسلم من مشاهدة مسارحنا فانه مما يجهدر أخذه في الاعتبار أن موسيقانا لا تستحوذ من اعجابهم لا بنقدر اليسير ، وتذلك فأن موسيقاهم التي تبدأ بأرباع النغمات تبهدو لنا غير مفهومة الا اذا ترجمت طبقا لنظامنا الموسيقى • وكانت النغمات الوحيدة التي يفهمها الجميع هي الألحان اليونانية أو الفالاكية • وكان دونيزتي قد كلف شهقيقه بأن يجمع منها أكبر قدر ممكن وكان يستخدمها دون شك في الأوبرات التي يقدمها •

وأراد مدير جريدة القسطنطينية أن يقدمني الى السفير الفرنسي · ولكنى تجنبت هذا الشرف اذ أنه كان من المحتمل أن يدعوني للعشاء ، ولقد حذروني من هذا الاحتمال ·

وكان هذا السفير يقيم طيلة الصيف في ترابيا وهي قرية تطل على البوسفور على بعد ست ساعات من القسطنطينية • ولكي يتوجه المراليها ينبغي أن يستأجر قاربا يقوده ستة من المجدفين مدة نصف يوم

Buondel Monte (1)

وهذا يكلف تقريبا عشرين فرنكا · وهكذا تجد أن هذا العشاء الذي يدعوك اليه السفير باهظ التكاليف · · · ويمكننا أن نضيف الى مضايقات هذه الدعوة المتاعب التي تلقاها في العودة بحرا في ساعة متأخرة وأحيانا في أحوال جوية رديئة في قارب على شكل سمكة ، مثل سلمك اليد يصاحبه كورس لا يكل ولا يمل من سمك القرش الذي يرقص في تهكم على قمم الأمواج على أمل أن يحصل على عشائه على حساب المدعوين المتأخرين لسفر فرنسا ·

وسار العرض كما يحدث على أحد المسارح الإيطالية · وانهالت باقات الزهور على رونزى وتكررت استعاداتها عشرين مرة ، ولابد أنها قد رضيت عن هذا الحماس البيزنطى · ثم عاد كل فأشعل مصباحه وتقدمت عربات السفراء وأصلحاب البنوك · وامتطى آخرون صهوات جيادهم · أما أنا فقد استعددت للعودة الى خان يبلدز لأنه في بيرا قد لا يجد الرء مكانا للمبيت ولو للبلة واحدة ·

وكنت أعرف الطريق الطويل المؤدى الى استانبول عن طريق القنطرة التي تعبر القرن الذهبي ، فلم أكن أخشى السير على ضوء قمر شهر رمضان وحده في تلك الليلة الجميلة التي تشبه طلوع الفجر لدينا ، أما الكلاب التي تقوم مقام الشرطة في الشوارع فهي لا تهاجم أبدا الاغير الحذرين الذين يستهزئون بالتعليمات ولا يكلفون أنفسهم عناء حمل المصابيح ، وتوجهت اذن عن طريق مقبرة بيرا خلال طريق يؤدى الى بأب غلطة المؤدى بدوره الى مباني البحرية ، ان السور المحصن ينتهي هنا الا أن أحدا لا يستطيع عبور القرن الذهبي دون المرور منه ، ويدق المرء على أحد النوافذ فيفتح له البواب مقابل نفحة من المال ، ويجيب على تحيات الحرس بكلمة : عليكم السلام ، وفي طرف الطريق الهابط الى البحر يصل المرائعة الطويلة والتي شيدها السلطان محمود ،

وما أن بلغت الشاطئ الآخر حتى سرنى ان وجدت من جديد أضواء العيد المتلألئة ، وهى لوحة من أكثر اللوحات ادخالا للبهجة على النفس لا سيما حينما يقوم المرء بمسيرة طويلة ليلا خلال أشجار السرو والقبور .

ورصيف الفنار المزدحم ببائعى الفاكهة والحلوى والفطائر والمقليات والباعة المتجولين واليونانيين الذين يبيعون شراب الينسون وشراب الورد المخمرين يغص بالبحارة الذين تصطف سفنهم بالمئات في الخليج أما الملاهي والمقاهي المزدانة باللوحات الشفافة المضاءة من الخلف وبالمصابيح فمازلنا نراها الى حسين في الشوارع المحيطة ثم تقلل الأنوار وتقل

الضوضاء شيئا فشيئا ثم لابد لنا من عبور سلسلة طويلة من الأحياء المنعزلة الهادئة ذلك لأن العيد لا يقام الا في الأجزاء التجارية من المدينة وما تلبث الأقواس العالية لقناة قالنسي أن تظهر مشرفة ببنائها الحجرى الضخم على المنازل التركية المتواضعة المبنية كلها من الخشب . ويرتفع الطريق أحيانا في شكل مدرجات مشرفا من ارتفاع خمسين قدما على الطريق الذي يتقاطع معه أو يتبعه بعض الوقت قبل أن يرتفع نحو التلال أو يهبط نحو البحر .

ان استانبول مدينة يتخللها كثير من التلال ولم يستطع الفن أن يصنع فيها شيئا يذكر لاصلاح الطبيعة • ويشعر المرء أنه قد بلغ أرضا أكثر استقرارا حين يبلغ طرف ذلك الشارع الطويل شارع المساجد الذي يشكل الشريان الرئيسي للمدينة والذي ينتهي بالأسواق الكبيرة . وهذا الشارع يثير الاعجاب خصوصا بالليل وذلك بسبب الحدائق الرائعة والأروقة المتقطعة والنافورات الرخامية ذات السيباج المذهب والأكشـــاك والبوابات والمآذن العديدة التي تتبينها تحت ضوء النهار الخافت المائل للزرقة · وتتألق هنا وهناك الكتابات الذهبية والرسوم المطلية بالألوان البراقة والسياجات ذات الخطوط الزاهية والرخام المنحوت والزينات التي تعلوها الألوان المختلفة ، مضمفية على الحدائق ذات اللون الأخضر القاتم التي تتمايل فيها غصون الكروم المعلقة على التكاعيب العالية ، مضفية عليهـــا الألوان الزاهية • واأخيرا تنتهى العزلة ويمتلى والجو بالضوضاء البهيجة وتتألق الحوانيت من جديد • وتبدو الأحياء الآهلة الغنية بكل ما فيها من رونق • ويعرض بائعو لعب الأطفال على واجهــــات محلاتهم آلافا من الكماليات الغريبة التي تدخل السرور على قلوب الأمهات وأرباب الأسر الطيبين الذين يسرهم أن يعودوا الى منازلهم حاملين اما قراقوزا من صنع فرنساً أو لعباً من صنع نورنبرج أو بعض اللعب الصينية التي تحملها القوافل الى تلك المدينة ٠ ان الصينيين هم أكثر شعوب العالم معرفية بما يلزم كتسلية الأطفال •

### ٣ - القراقوز

ومن بين هذه اللعب تتميز من كل جانب الدمية الغريبة المسماة بالقراقوز التي وصلت شهرتها الى الفرنسيين ومن غير المعقول أن يوضع هذا الوجه غير المناسب في متناول يد الأحداث دون مراعاة للنتائج ومع ذلك فهو الهدية الشائعة والتي يقدمها الآباء والأمهات لأطفالهم ان للشرق آراء أخرى حول التربية والأخلاق مخالفة لآرائنا ان الهدف هنا هو تنمية الحس في حين أننا نسعى الى اخماد شعلته ٠٠ (١)

وكنت قد وصلت الى ميدان سيراسكييه: وكان نمة جمهور كبير يتزاحم أمام أحد مسارح خيال الظل يدل عليه لوحة شفافة كتب عليها بالخط الكبير: قراقوز ضحية حيائه!

وهذا العنوان غريب ومروع لمن يعرف تلك الشخصية ٠٠ ولابد أن هاتين الصغتين اللتين استعملتهما قد ارتاعتا لاجتماعهما مع اسم كهذا ٠ ومع ذلك فقد دخلت لمشاهدة العرض متحديا فرصا قد تأتى بخيبة أمل طائشة ٠

وعلى باب هذا الملهى الليلى كان يقف أربعة من الممثلين ممن سوف يظهرون في التمثيلية الثانية • ذلك لأنه بعد عرض القراقوز سلوف تعرض تمثيلية « زوج الأرملتين » وهي مسرحية هزلية تهريجية مسايسمونه « تقليد » •

<sup>(</sup>۱) ان هـــده الشــحصية ، وأصلها غير مقطوع بصحته ، هي لبطل مسرح الخيالات وقد تحدث عنه الكاتب والشاعر تيوفيل جوتيبه في كتابه « القسطنطينية » أما عن عدم لياقته فلا تكون دائما ظاهرة ، ويقول تيوفيل جوتيبه انه لم يكتشف عدم اللياقة هذه الا في عرض شبه سرى ،

وكان الممثلون ، ويرتدون صديريات مطروزة بالذهب ، يحملون تحت طرابيشهم الأنيقة ضفائر طويلة من الشعر كضفائر النساء · وكانت جفونهم مطلية بالكحل وأيديهم بالحناء ، وقد الصقوا بعض حبات « الترتر» على جلد الوجه وبعض النقط السوداء على اذرعهم العارية · وكانوا يستقبلون الجمهور بلطف ويتلقون ثمن الدخول بابتسمامة رقيقة موجهة للأفندية الذين يدفعون أكثر مما يدفع الرجل الشعبي العادى · ان قطعة ذهبية من ذوات الفرنك والحمسة والعشرين سنتيما كانت تضمن للمتفرج تعبيرا حيا بالامتنان ومكانا محجوزا في الصفوف الأولى · وعلى كل فلم يكن أحد مجبرا على أن يدفع أكثر من عشر بارات · وينبغي أن نضيف أن ثمن الدخول كان يعطى الحق في طلب واحد من القهوة والتبغ · أما الشربات والمرطبات المختلفة فكانت خارج الحساب ·

وما أن جلست على أحد المقاعد ( الدكك ) حتى تقدم منى صبى أنيق الملبس مكسوف الذراعين حتى الكتفين قد تدل ملامحه الحيية على أنه فتاة، تقدم منى يسألنى ما اذا كنت أطلب شبوق أو نرجيلة ، ولما أبلغته باختيارى أحضر لى كذلك قدحا من القهوة .

وأخذت القاعة تمتلى، شيئا فشيئا بأناس من جميع الأنواع لاترى فيهم امرأة واحدة ولكن كثيرا من الأطفال قدموا بصحبه العبيد أو الخدم، وكان اكثرهم انيق الملبس ولابد أن ذويهم قد رغبوا في اعطائهم فرصة الاستمتاع بالعرض المسرحي دون أن يصحبوهم وذلك لأن الرجل في تركيا لايضايق نفسه لا بالمرأة ولا بالطفل فكهل يذهب بمفرده ويكف صغار الأولاد حين يتخطون السن الأولى عن السير في ركاب أمهاتهم ومع ذلك فان العبيد الذين يعهد اليهم بهؤلاء الأطفال بعتبرون من أفراد الأسرة .

ولقد اعفوا من الأعمال الشاقة وحددت مهمتهم بالأعمال المنزلية ، مثلهم فى ذلك مثل عبيد القدماء ، مما يجعل الخدم العاديين يحسدونهم • واذا كان العبيد من ذوى الذكاء فغالبا ما يصلون الى اعتاق أنفسهم بعد بضع سنوات من الخدمة مع الحصول على دخل جرى العرف بتحسينه فى مثل عهذه الظروف • ومن المخجل أن نذكر أن أوربا المسبحية كانت أكثر قسوة من الأتراك حين اضطرت عبيد المستعمرات الى القيام بالأعمال الشاقة •

ولنعد الى العرض المسرحى · فما أن امتلأت القاعة بعدد كاف من المشاهدين حتى اسمعنا الاوركسترا الجالس فى رواق مرتفع مقطوعة شبيهة بالافتتاحية · وفي أثناء ذلك كان أحد أركان القاعة يضاء بشكل

غير متوقع · كان ثمة ستارة من نسيج رقيق شفاف أبيض اللون تماما ويحيط بها زينات متعرجة ، تدل على المكان الذى سوف تظهر فيه الظلال الصينية · وأطفئت الأنوار التي كانت تضيء القاعة وترددت صرخة مرحة في جميع أرجاء المكان حينما توقف الأوركسترا · وساد السكون بعد ذلك ثم سمعنا خلف الشاشة رنينا أشبه برنين القطع الخشبية المستديرة حينما يهزها المرء في داخل أحد الأكياس · كانت تلك هي العرائس التي كانت تعلن عن نفسها بهذه الطريقة وقد استقبلها الأطفال بحماس شديد ·

وحينئذ صاح أحد المشاهدين ، ولابد أنه أب ، صاح بالممثل يلح عليه في أن يجعل عرائسه تتكلم قائلا :

- \_ ما الذي ستقدمه لنا اليوم ؟
- وقد أجاب الممثل على ذلك قائلا:
- ان ذلك مكتوب على الباب لمن يعرفون القراءة ٠
  - \_ ولكنى نسبيت ماعلمنى اياه « الخوجة » ·
- \_ حسن ! أن الأمر يتعلق اليوم بالقراقوز الشهير ضحية حيائه .
  - ـ كيف ستستطيع تبرير هذا العنوان ؟
- ـ بالاعتماد على ذكاء أصحاب الذوق السليم وبطلب المساعدة من أحمد ذى العيون السوداء » •

وأحمد هو اسم القراقوز · أما عن العيون السودا، فنلاحظ أنها الترجمة الحرفية لكلمة قراقوز ( قره كوز ) ·

#### وأجاب المتحدث :

ـ « انك تحسن فن الحديث ، وبقى أن نعرف ما اذا كان العرض سيستمر ! » فأجاب الصوت المنبعث من المسرح :

ـ « اطمئن ! فأنا وأصدقائي تحت اختبار النقاد » ·

وبدأ الأوركسترا يعزف من جديد ثم رأينا خلف الشاشة زينة تمثل ميدانا في القسطنطينة في مقدمته نافورة ومنازل • ثم مر أمامنا على التوالى أحد القواصين ثم كلب يتلوه سقا وغيرهم من الشخوص الآلية التي كانت تتميز بألوانها المختلفة والتي لم تكن مجرد خيالات كما يحدث عادة في الظلال الصينية التي نعرفها •

ومالبنا أن رأينا تركيا يخرج من أحد المنازل يتبعه عبد يحمل حقيبة سفر • وكان يبدو عليه القلق وفجأة اتخذ قرارا وذهب ليدق بأب منزل آخر في الميدان وهو يصيح : « قراقوز » ! قراقوز ! يا أعز أصدقائي أمازلت نائما ؟ » •

وأطل القراقوز بأنفه من النافذة وترددت بين المساهدين صيحة حساس لرؤيته · ثم طلب مهلة من الوقت ليرتدى ملابسه ثم عاد فظهر بعد برهة وقبل صديقه ·

### وقال هذا الأخر :

« انصت الى ! انى أنتظر منك خدمة كبيرة · فهناك مسألة هامة تضـطرنى للذهاب الى بروسا · وتعلم أننى زوج لامرأة جميلة جدا ، وأعترف لك أنه يصعب على تركها بمفردها لأنى قليل الثقة برجالى · حسن ياصديقى ، لقد سنحت لى هذه الليلة فكرة ، هى أن أجعل منك حارسا لفضيلة زوجتى · اننى أعرف رقتك والود العميق الذى تكنه لى ويسعدنى أن أعطيك هذا البرهان على احترامى ·

### وقال القراقوز:

- أيها التعس ! ما هذا الجنون ! أنظر الى اذن قليلا ! •

#### ـ حسن ؟

ماذا ؟ ألا تفهم أن زوجتك حين ترانى فلن تستطيع مقاومة الحاجة في أن تكون لى ؟

# فقال التركى:

ـ لست أرى ذلك فانها تحبنى · واذا كنت أخشى عليها مما قد تتعرض له من اغراء فان ذلك لا يأتى من ناحيتك ياصديقى ، وشرفك هو الذى يؤكد لى ذلك أولا · · وبعد ذلك · · تالله أن تكوينك لفريب · · . وأخيرا اعتمد على » ·

وابتعد التركى • وصاح القراقوز قائلا :

- « يالعشاوة الناس ! أنا غريب التكوين ! كان الأجدر بك أن تقول : بديع التكوين ! فائق الجمال فائق الاغراء شديد الخطر !

وقال يحدث نفسه :

« وأخيرا لقد عينني صديقي حارسا لزوجته · ويجب أن أرد على

هذه الثقة · لندخل الى بيته كما أراد ولنتربع على أريكته · · ولكن ياللتعاسة : ان زوجته بدافع من حب الاستطلاع المشهود لدى جميع النساء سوف ترغب فى رؤيتى · · ومادامت عيناها سوف تقعان على فسوف تسحر وتفقد كل سيطرة على نفسها · كلا ! يجب ألا ندخل · · لنبق على باب هذا المسكن كجندى فى نوبة حراسة · ان امرأة لا تساوى الشيء الكثير · · أما الصديق الحق فهو نعمة نادرة ! » ·

وأثارت هذه الجملة استحسانا حقيقيا بين المشاهدين من الذكور في هذه القهوة • وكانت محساطة باطار بقالب شعرى فان مثل هذه التمثيليات يخلط فيها الجد بالهزل كما يحدث في كثير من تمثيلياتنا • وكانت المقاطع التي تردد تكرر كثيرا كلمة « بقائم » وهي الكلمة المفضلة لدى الأتراك ومعناها : لا يهم ! اأو ان الأمر لدى سواء !

أما القراقوز فقد رسم نفسه ببراعة فائقة خلال الشاشة الرقيقة التي كانت تصمه ألوان الزينات والشخوص ، رسم نفسه ببراعة بعينيه السوداء ، وحاجبيه المرسومة بطريقة واضحة ، وكذلك أكثر الامتيازات بروزا لحديثه الرقيمة الناعم ، أما اعتداده بكرامته ، فيما يختص بالاغراءات فلم يكن يبدو أنها قد أدهشت المشاهدين .

وبعد مقطوعته الشعرية بدا أنه مستغرق في أفكاره · وقال في نفسه : ما العمل ؟ انه بلاشك أن أسهر بالباب في انتظار عودة صديقي · · ولكن هذه المرأة تستطيع أن تراني خلسة من المشربيات · وفوق ذلك فقد تغريها فكرة الحروج مع جارياتها للذهاب الى الحمام · · ليس ثماة زوج يستطيع منع زوجته من الحروج تحت هذه الحجة · · وحينئذ سوف تستطيع الاعجاب بي كما يحلو لها · · أيها الصديق الغافل ! لماذا كلفتني بهذه الرقابة ؟

وهنا تحولت التمثيلية الى الخيال الخرافى · فلكى يتجنب قراقوز نظرات زوجة صديقه انبطح على الأرض قائلا : سوف أبدو كما لو كنت قنطرة · · وينبغى أن نأخذ فى الاعتبار مالديها من استجابة من نوع خاص لفهم هذه الفكرة الشاذة · ويمكنك أن تتخيل « بوليشينيل» (١) وهو يجعل انتفاخ بطنه كما لو كان قوسا ويكمل شكل القنطرة برجليه وذراعيه · ولكن قراقوز ليس لديه احدوداب فوق كتفيه · وتمر جماعة من الناس وبعض الخيول والكلاب ثم دورية تتلوها عربة ، تجرها الثيران،

<sup>(</sup>١) أحد الشخوص المهرجين في الاوبرا الانطالية .

مليئة بالنساء · وينهض قراقوز التعس في الوقت المناسب حتى لا يجعل من نفسه قنطرة لمثل هذه العربة الثقيلة ·

ثم يأتي مشهد أكثر اثارة للضحك وأسهل في الوصف ليتلو هذا المشهد الذي أراد فيه قراقوز أن يتحول الى قنطرة ليتجنب نظرات زوجة صديقه و لابد لشرح هذا المشهد من الاستشهاد بفن الكوميديا التهريجية لدى الرومان ١٠٠ ان قرراقوز ليس الا بوليشينيل في تمثيليات «الأوسك» (۱) الذين مازلنا نرى صورا جميلة منها في متحف نابولى و ان هذا المشهد الغريب الذي يصعب علينا تحمل غرابته ينام فيه قراقوز على ظهره ويريد أن يظنه الناس قطعة من الحشب مدببة الطرف ويمر الناس والجميع يتساءلون: « من ذا الذي زرع هنا هذا اللوح الحشبي المدبب ؟ فلم يكن موجرودا هنا بالأمس و أهو من خسب البلوط أم الزان ؟ » و الزان ؟ »

وتمر غسالات عائدات من النافورة فينشرن بعض الغسيل على قراقوز الذي يرى بسرور أن افتراضه قد نجع و بعد لحظة يدخل بعض العبيد بجرون خيولا الى المستشفى ويقابلهم أحد الأصدقاء ويدعوهم الى اللاخول في احد الملاهى لتناول المرطبات ولكن أين يربطون خيولهم ؟ «حسن ، هاهو لوح مدبب » وهكذا تربط الخيول في قراقوز و

ثم لا يلبث صوت الغناء المرح أن يتردد في الملهى بفعل حرارة نبيذ نبيندوس ، وتثور الخيول وقد نفذ صبرها · ويرى قراقوز نفسه والخيول تجره الى الجهات الأربع فيصرخ مستجيرا بالمارة ويثبت وهو يئن من الألم أنه ضحية خطأ · ويخلصه الناس ويوقفونه على قدميه · وفي هذه اللحظة تخرج زوجة صديقه من البيت للذهاب الى الحمام ، ولا يجد قراقوز الوقت للاختفاء وتظهر هذه المرأة اعجابها بحماس شديد يدركه المشاهدون ادراكا تاما ·

وتصيح المرأة قائلة : « ياللرجل الوسيم ! لم أر من قبل رجلا في مثل وسامته ·

ويقول قراقوز الذي مازال متمسكا بفضيلته:

« معذرة ياهانم ، اننى لست الرجل الذى تستطيعين التحدث اليه ، اننى خفير ليلى من أولئك الذين يضربون بحرابهم لانذار الناس بأن حريقا قد اندلع فى الحى ،

<sup>(</sup>١) أحد شعوب ايطاليا .

- « ولم اذن مازلت هنا في هذه الساعة من النهار ؟

- اننى مذنب تعس رغم أنى مسلم مؤمن · فقد أغرانى بعض رفاق السوء بالقدوم الى هذا الملهى ولا أدرى كيف تركونى فى هذا الميدان مخمورا أقرب الى الموت ·

- يا للرجل المسكين . . لا بد انك مريض . . ادخل الى البيت حيث تستطيع أن تجد بعض الراحة » .

وتحاول السميدة الامساك بيد قراقوز دلالة على كرمها · فيصبح هذا الأخير في ارتباع:

- « لا تلمسيني ياهانم فانني لست طاهرا ! ولا أستطيع الدخول الى بيت مسلم شريف ٠٠ فقد تنجست بلمس أحد الكلاب » ٠

ولكى نفهم هذا الادعاء اللبق من جانب قراقوز لابد أن نعلم أن الأتراك رغم احترامهم لحياة الكلاب ، بل حتى تربيتهم لها في مؤسسات خيرية ، يرون أنه من النجاسة لمسها أو تركها تلمسهم .

وقالت السيدة : وكيف حدث ذلك ؟

ـ لقد عاقبتنى السماء العادلة · فقد كنت أكلت بعض مربى العنب أتناء تبذل هذه الليلة · وحينما استيقظت هنا فى الطريق العام شعرت والارتياع يملؤنى بأن كلبا يلعق وجهى · · تلك هى الحفيقة وليسامحنى الله ! » ·

وبدا أن هذا الادعاء هو الذي انتصر من بين جميع الادعاءات التي أخذ قراقوز يقدمها الواحد تلو الآخر لكي يرفض عروض زوجة صديقه ·

وقالت السيدة بعطف:

- « ياللرجل المسكين ! ليس ثمة من يستطيع لمسك قبل أن تتوضد خمس مرات كل مرة منها لمدة ربع ساعة وأنت تتلو آيات القرآن ١ اذهب الى النافورة حتى أجدك هنا لدى عودتى من الحمام » • وصاح قراقوز وقد غدا بمفرده :

يالجراءة نساء استانبول! ان هذا الخمار الذي يخفين به وجوههن يمنحهم مزيدا من الجرأة للمساس بحياء فضلاء الناس · كلا! لن تغريني هذه الوسائل المصطنعة ولا هذا الصوت العسلي وهذه العين الملتهبة خلف فتحات قناعها المخملي · لماذا لا تلزمهن الشرطة باخفاء عيونهن ؟

وسيطول بنا الأمر لو وصفنا بقية المغامرات التعسة لقراقوز · الناحية المضحكة في هذا المشهد ترتكز بصفة خاصة على فكرة حراسة المرأة بواسطة الشخص الذي يبدو مخالفا كل المخالفة لأولئك الذين يمنحهم الأتراك عادة ثقتهم · وتخرج السيدة من الحمام وتلتقى من جديد بحارس عفافها الذي اضطرته مضايقات كثيرة الى البقاء في مكانه ·

ولم تستطع أن تمنع نفسها من التحدث الى رفيقاتها فى الحمام عن الرجل الوسيم جميل التكوين الذى التقت به فى الطريق • وهكذا نجد حشدا من المستحمات يندفع فى اثر صديقتهن • ولنتصور الحرج الذى يقع فيه قراقوز وقد وقع فريسة لهؤلاء المعجبات الفاجرات الجديدات •

ومزقت زوجة صديقه ملابسها وأخذت تشد شعرها ولم تدخر وسعا لمقاومة قسوته وكان على وشك أن يخضع حين مرت فجأة عربة فرقت الجمع وانها عربة مقفلة طبقا للذوق الفرنسى القديم ، عربة أحد السفراء وتعلق قراقوز بهذه الفرصة الاخيرة وتوسل للسفير الافرنجى أن يأخذه تحت حمايته ويتركه يصعد الى عربته حتى يستطيع الافلات من الاغراء المحيط به ونزل السيفير وكان يرتدى ملابس غاية فى الأناقة : قبعة مثلثة القمة وضعت على « باروكة » كبيرة وبزه وصديريا مطرزين وسروالا قصيرا وقد وضع سيفه أى غمده وأعلن السيفير للسيدات أن قراقوز تحت حمايته وأنه أعز أصدقائه و وقبله هذا الأخير بحرارة وسارع بالصعود الى العسربة التى اختفت حاملة حلم المستحمات المسكينات ) و

ولم أكن لأعطى لهذه التمثيلية الشعبية كل هذا الاهتمام في التحليل لولا أنها تدل على بعض عادات هذا البلد • فثياب السفير تبين أنها تنتمى للقرن الماضى • وقراقوز هو الممثل الأبدى لهذه التمثيليات التهريجية ومع ذلك فهو لا يختص دائما فيها بالدور الأول • ويغلب على الظن بأن عادات القسطنطينية قد تغيرت منذ عهد الاصلاح • أما في العهود التي سبقت تولى السلطان محمود فربما رجح لدينا أن الجنس الضعيف كان يعترض بطريقته الخاصة ضد طغيان الجنس الأقوى • وهذا يفسر السهولة التي اتسمت بها النساء في الخضوع لمحاسن قراقوز •

وفى التمثيليات الحديثة نرى أن هذه الشخصية تمت دائما

للمعارضة · فهو اما البورجوازى الساخر أو الرجل السعبى ذو الحس السليم الذى ينتقد السلطات الشانوية · وفى العهد الذى حتمت فيه التعليمات لأول مرة عدم الخروج بدون مصباح بعد انتهاء النهار ، ظهر قراقوز وهو يحمل مصباحا قد تدلى بشكل غريب متحديا السلطات دون أن يقع تحت طائلة العقاب لأن الامر لم ينص على أن يحتوى المصباح على شمعة · ولما قبض عليه القواصون وأخلى سبيله نظرا لقانونية الملاحظة التي أبداها عاد فظهر بمصباح به شمعة كان قد أهمل اشعالها · ان هذا التهريج شبيه بقصصنا الخرافية الشعبية التي تنسب الى جان دى كاليه مما يدل على أن جميع الشعوب متشابهة · ويملك قراقوز حرية الكلام ولقد تحدى دائما الرمح والسيف والشرائط الحربية ·

وبعد الاستراحة التي تجدد خلالها تقديم الطباق والمرطبات المختلفة رأينا الشاشة الشنفافة تنسدل فجأة وظهر من خلفها العرائس وظهر ممثلون حقيقيون على المنصة لتقديم تمثيلية « زوج الأرملتين » وكانت الشخوص في هذه التمثيلية تتكون من ثلاث نساء ورجل واحد ومع ذلك فلم يكن ثمة الا رجال لأداء هذه الأدوار ولكن الشبان الشرقيين حين يرتدون ملابس النساء وبسحرهم النسائي ورخاصة بشرتهم وجرأتهم في التقليد التي قد لا نصادفها في بلادنا ، في استطاعتهم خداع المشاهدين خداعا تاما وهم في العادة اما من اليونانيين أو الشراكسة .

وظهرت على المسرح أولا امرأة يه ممن يقمن تقريبا بدور الدلالة ويشجعن ماتدبره النساء اللاتي يدخلن بيوتهن من حيل ومكايد وكانت تحسب المبالغ التي ربحتها وتأمل في الحصول على مزيد من الربح من عملية جديدة مرتبطة بشاب تركى يدعى عثمان يعشق أرملة غنية كانت الزوجة الرئيسية لضابط في الجيش برتبة بكباشي ( مقدم ) قتل في الحرب ولما كان لكل امرأة الحق في الزواج من جديد بعد ترمل ثلاثة شهور فقد كان يرجح أن السيدة سوف تختار العشيق الذي كانت قد اختارته في حياة زوجها والذي أرسل لها مرات عديدة عن طريق اليهودية باقات الورد التي تعتبر مقدمة لهذا العرض .

ولذا فقد سارعت هذه اليهودية بتقديم عثمان المحظوظ الذى لم يعد وجوده في البيت يشكل أى خطر ·

وكان عثمان يأمل فى ألا يتأخروا فى اشعال الشعلة وأخذ يحث حبيبته على التفكير فى ذلك ٠٠ ولكن ياللجحود! أو بالأحرى يالنزق النساء الأبدى! لقد رفضت هذه الموافقة على الزواج الا لو وافق عثمان على الزواج كذلك من الزوجة الثانية للبكباشي ٠

وقال عثمان : بحق الشهطان ان الزواج من امرأتين أمر أكثر خطورة : واستطرد قائلا للأرملة : « ولكن يا نور عينى من ذا الذى أوحى اليك بهذه الفكرة ؟ انه شرط غير عادى .

وقالت الأرملة: « سوف أشرح لك الأمر ١٠ اننى جميلة وشابة كما تعودت أن تقول لى دائما ٠ حسن ، ولكن في هذا البيت امرأة أقل جمالا منى وكذلك أقل شبابا استطاعت بحيلها أن تجعل زوجي المرحوم يتزوجها ثم يحبها ٠ وكانت تقلدني في كل شيء وانتهى بها الأمر بأن أصبحت تروق له أكثر منى ٠٠ حسن ، ولما كنت متأكدة من الود الذي تكنه لي فاني أريد منك أن تتزوج على هذه المخلوقة القبيحة كزوجة ثانية ٠ لقد تسببت لى في العذب المرير بسبب سيطرة حيلها على عقل زوجي الأول الضعيف جدا حتى أنني أردت من ذلك الحين أن تتعذب وأن تبكى حين ترى أنني المفضلة وأن تجد نفسها موضع الاحتقار ٠٠ وأن تصبح في مثل التعاسمة التي كنت فيها ٠

وأجاب عثمان: ان اللوحة التي ترسمينها ياسيدتي لعثمان قليلة التأثير في اجتذابي لصفها التي أفهم أنها شديدة القبح وأنني يجب أن أضيف الى سعادتي بزواجك ضرر ارتباط ثان قد يجر على المتاعب الكثيرة و تعرفين أن الشريعة تحتم العلمال بين الزوجات سواء أكان عددهن قليلا أو كان العدد قد وصل الى أربع ٠٠ وهذا ما أعفى نفسي من عمله ٠

ـ حسن ، اننى قد نذرت نذرا لفاطمة ( ابنة النبى ) ولن أتزوج الا الرجل الذي يفعل ما أخبرتك به ·

\_ سيدتي ، اني أطلب منك الاذن بالتفكر في الأمر •

وقال عثمان في نفسه حين صار بمفرده :

« يالتعاستي ! أأتزوج من امرأتين أحدهما جميلة والأخرى قبيحة ؟ يجب أن نمر على العلقم قبل الوصول الى المتعة ·

وعادت اليهودية وأخبرها بالموقف الذي يوجد فيه ٠

وأجابت هذه الأخيرة :

« ماذا تقول ؟ ولكن الزوجة الثانية رائعة الجمال ! لا تستمع الى امرأة تتحدث عن غريمتها · حقيقة ان من تحبها شقراء والأخرى سمراء · ولكن هل تكره السمراوات ·

وقال العاشق : « أنا ! ليس لى مثل هذه الأحكام » ·

فقالت اليهودية: «حسن! هل تخشى امتلاك زوجتين متساويتي الحسن الذلك الأنهما رغم اختلافهما في اللون متساويتان . • اني أعرف ذلك جيدا!

وقال عثمان : « لو كنت تقولين الصدق فان الشريعة التي تضطر كل زوج الى أن يقسم وقته بالتساوى بين روجاته تصبح أقل شدة ·

وقالت اليهودية :

سوف تراها . لقد أخبرتها أنك تحبها وأنها حينما رأتك تمر
 فى الشمارع وتتوقف تحت نوافذها فقد كان ذلك من أجل حبها .

وسارع عثمان بمكافأة اليهودية التي أثبتت أنها رسولة ذكية · ثم ما لبثت الأرملة الثانية للبكباشي أن دخلت · لقد كانت رائعة الجمال حقا رغم بشرتها البرونزية · وبدا عليها الزهو لعواطف هذا الشاب تجاهها ولم تتراجع أمام الزواج وقالت :

ـ لقد كنت تحبنى فى صمت وبلغنى أنك لم تكن تريد التصريح بحبك بسبب حيائك ٠٠ ولقد تأثرت لهذه المشاعر ٠ والآن أنا حرة وأريد ارضاء أمانيك ٠ أرسل فى استدعاء المأذون ٠

وقالت اليهودية: ليس ثمة أية صعوبات والا أن هذا الشاب التعسى مدين ببعض المال للسيدة الكبيرة ( الأرملة الأولى ) •

فقالت الثانية:

- ماذا ؟ أتقرض هذه المخلوقة القبيحة الشريرة ·

المال بالربا ؟

ـ نعم للأسـف ! • • وأنا التي تدخلت في هـذه العملية تدفعني رغبتي الدائمة في تقديم الخدمات للشباب • لقد أنقذ هذا الفتي المسكين من خطوة مؤذية بفضل تدخلي ولما لم يستطع رد المال فان الهانم لم تقبل ابراء ذمته الا بالزواج •

وقال الشاب:

ـ تلك هى الحقيقة المرة ( وبدا التأثر على السيدة ) · وأضافت اليهودية قائلة :

\_ ولكن أى متعة سوف تجدينها في رؤية تلك المرأة الماكرة وقد غدت موضع احتقار الرجل الذي تحبينه!

ومن طبيعة المرأة الفخورة المقتنعة بما لديها من ميزات ألا تشك في حدوث مثل هذه النتيجة ، ولذا فقد وافقت بدورها على هذا الزواج المزدوج ، وأرسل في استدعاء المأذون ،

وتم توقيع العقد · ومنذ ذلك الحين أصبحت المسألة تتعلق بمعرفة أى المرأتين ستكون لها الأولوية · وأحضرت اليهودية الى عثمان السعيد بافخة من الزهور لتكون رمزا لمن يقع عليها اختيار الزوج الجديد بالنسبة للملة الزفاف ·

ووقع هذا الأخير في الحيرة فان كلتا الزوجتين قد مدت يدها لتلقى عربون التفضيل هذا • ولكن في اللحظة التي بدا عليه التردد فيها بين السمراء والشقراء حدثت ضوضاء في البيت . وجرى العبيد مرتاعين وهم يقولون أنهم رأوا غفريتا •

وكانت الصورة تقترب من المأساة · وتدخل البكباشي بالعصا · وتبين ن الزوج الذي لم تحزن عليه المرأتان لم يمت كما كنا نعتقد . فقد قيد في عداد الأموات لأنه كان متغيبا عن الجيش ولكنه لم يكن الا أسيرا · وبعد توقيع المعاهدة بين الروس والأتراك أعيد الى وطنه · · · والى غرامياته · ولم بلبث أن فهم المشهد الدائر وتدخل بحملة من ضربات العصى على جميع الحاضرين · ومربت المرأتان واليهودية والعاشق لدى الضربات الأولى · أما المأذون الثقيل الحركة فقد انهال عليه الجميع ضربا مع التصفيق الحماسي الشديد من المشاهدين ·

هكذا كان هذا المشهد الذى أطربت نهايته الأخلاقية جميع الأزواج الحاضرين. •

ويمكن الاستحدلال على حالة الفن المسرحى فى تركيبا من هاتين التمثيليتين ومن المستحيل أن نتجاهل فى هندا الفن الميل الطبيعى للناحية الهزليه الذى نجده فى التمثيليات اليونانية واللاتينية ولكن الائمر لا يعدو ذلك فان تكوين المجتمع الاسلامى (١) يعارض اقامة مسرح لألوان من الفن اكثر جدية وفان المسرح لا حياة له بدون النساء

 <sup>(</sup>۱) كما وأينا مرات عديدة من قبل يخلط نرفال بين الدين وبين المجتمع الرجعى
 في هذا الوقت .

ولن يستطيع احد مهما بلال من جهد أن يقنع الأزواج بترك ازواجهم يظهرن أمام الجمهور أما الدمى العرائس وحتى الممثلين الذين يظهرون في عروض المقاهى فلا يستخدمون الا في تسلية روادها وهم عادة غير كرماء أما الأغنياء فيقيمون العروض المسرحية في منازلهم في قائمة كبيرة من قاعات وتدعو زوجاته صديقاتها ومعارفها ويتم العرض في قائمة كبيرة من قاعات البيت ولذا فمن المستحيل اقامة مسرح معد اعدادا ميكانيكيا الالدى الشخصيات الكبيرة والسيلطان نفسه رغم ولعه بالعروض المسرحية لا يملك أية قاعة للعرض ذات بناء متين ويحدث أن تسمع نساء السراى باحدى العسروض الجميسلة التي تمت على مسرح بيرا فيبدين رغبتهن في مشاهدة هذا العرض وحينئذ يسارع السلطان باستئجار الفرقة لليلة واحدة أو لعدة ليال و

ثم أقيم فى القصر الصيفى مسرح مؤقت يستند على احدى واجهات المبنى • وأصبحت نوافذ غرف السيدات المحاطة تماما بالقضبان مقصورات للمشاهدة ، ولذا فتصدر منها أحيانا الضحكات العالية أو علامات التأييد • أما القاعة المدرجة القائمة بين هذه المقصورات والمسرح فلا تجد فيها الا الذكور من المدعوين والشحصيات الدبلوماسية وغيرهم من المدعوين للسرحية •

وشاءت رغبة السلطان منذ وقت قليل في مشساهدة عرض احدى مسرحيات مولير: « مسيودي پورسونياك » • وكان تأثيرها هائلا • وكان المترجمون يشرحون المواقف التمثيلية لرجال البلاط الذين لا يفهمون الفرنسية • ولكن ينبغي الاعتراف بأن أكثر رجال الدولة الأتراك يعرفون لغتنا ان قليلا وان كثيرا بسبب أن الفرنسية هي لغة الدبلوماسية الأولى • ويضطر الموظفون الأتراك الى اسستعمال لغتنا في المراسلة مع الادارات الأجنبية • وهذا يفسر وجود المدارس التركية والمصرية في باريس •

أما عن نسساء السراى فهن عالمات · فكل امراة تنتمى الى بيت السلطان تتلقى ثقافة جدية فى التاريخ والشعر والموسيقى والرسم والجغرافيا · وكثيرا ما نرى الجغرافيا · وكثيرات منهن فنانات أو شمارات · وكثيرا ما نرى المقطوعات الشعرية وأشعار الحب التى تكتبها هؤلاء السجينات الجميلات تتشر بسرعة فى بيرا ·

# ع \_ شاربو الماء

لعلنا نستطيع أن نتوقف بعض الوقت أمام مشاهد ميدان سيراسكييه ، وأمام المساهد الجنونيه التى تتجدد فى جميع الأحياء الشعبية والتى تتخذ فى كل مكان طابعا تصوفيا لا يمكن تفسيره بالنسبة لنا معشر الأوربيين ، فمثلا ما هو قراقوز ، هذا النوع الغريب من النزوات والدنس ، الذى لا ينتشر وسط الجماهير الا فى الأعياد الدينية ؟ أليس هو ذكرى ضالة لاله لامبزاك (١) ، هذا الاله « بان » ، الأب العالمى ، الذى ما زالت آسيا تبكيه حتى اليوم ؟

ولما خرجت من المقهى تنزهت فى الميدان وأنا أفكر فيما رأيته ووجهنى الشعور بالعطش الذى كنت أشـــعر به الى البحث عن واجهات محلات بائعى المشروبات و

ففى هذا البلد الذى لا يمكن فيه بيع المشروبات الروحية أو التى تحتوى على الكحول علنا نلاحظ وجود صلىاعة غريبة ، صناعة بيع الماء بالمكيال أو بالزجاجة ٠

وهذه الحانات الفريبة تملك واجهات نلاحظ فيها طائفة من الأوانى والأقداح مليئة بنوع من الماء يطلبه الجميع • فالماء في القسطنطينية لا يأتي الا عن طريق قناة فالنس ولا يحتفظ به الا في الخزانات التي أقامها الأباطرة البيزنطيون حيث تأخذ طعما كريها • • • وهكذا نظرا لندرة هذا العنصر تكونت في القسطنطينية مدرسة من شماربي الماء الذواقة الحقيقين من وجهة نظر هذا السائل •

<sup>(</sup>۱) اسم قديم لآسيا الصغرى .،

وفي هذا النوع من الحوانيت يباع الماء المجلوب من بلاد مختلفة ومن سنوات مختلفة وأفضل المياه هي مياه النيل لأنها المياه الوحيدة التي يشربها السلطان وهي تشكل جزءا من الجزية التي يأتون اليه بها من الاسكندرية ومن شهرتها أنها ذات فائدة بالنسبة للخصوبة أما مياه الفرات وهي مائلة قليلا الى الخضرة وذات طعم آسن بعض الشيء فهي موصوفة في حالات الضعف أو الاسترخاء ومياه الدانوب المحملة بالأملاح يفضلها ذوو البنية القوية وثمة مياه من بلاد كثيرة ويعجبون هنا كثيرا بمياه النيل سنة ١٨٣٣ المحفوظة في زجاجات مغلقة مختومة تباع بسعر مرتفع جدا ٠٠

ولا يشعر الأوربي الذي لا خبرة له بالشريعة طبعا بالتعصب للماء وأذكر أنني سمعت طبيبا سويديا يثبت في فيينا ان الماء لم يكن الا نوعا من الحجارة ، من البللورات كان في حالة ثلج طبيعي ولم يتحول الى سمائل في أجواء جنوبي القطب الا تحت تأثير حرارة شديدة نسبيا لم تصل مع ذلك الى اذابة بقية الحجارة ، ولتدعيم نظريته كان يقوم بتجارب كيميائية على المياه المختلفة للأنهار والبحيرات أو الينابيع وأثبت أن بالمخلفات على المياه المختلفة للأنهار والبحيرات أو الينابيع وأثبت أن بالمخلفات الناجمة عن البخر بها مواد ضارة بصحة الانسان ، ومن الجدير بالذكر أن الهدف الرئيسي للدكتور من وراء الاقلال من قيمة الماء هو الحصول من المكومة على امتياز مصانع البيرة الامبراطورية ، ويبدو أن السيد ميترنخ قد أعجب بهدف الحجج لا سيما وأنه كان من صالحه ، كواحد من اكبر منتجى النبيذ ، أن يشاركه في فكرته .

ومهما يكن من أمر الاحتمال العلمى لهذا الغرض فقد تأثرت به تأثرا كبيرا: وقد لا يحب المرء أن يزدرد الحجارة الذائبة • وصحيح أن ذلك لا يضير الأتراك في شيء ولكن كم يتعرضون نظير ذلك للأمراض الخاصة والحميات والطاعون والأوبئة المختلفة •

تلك هى الأفكار التى عاقتنى عن شرب هذا المرطب ولقد تركت هواة الماء لمشروبهم المعتق المنتقى وتوقفت أمام واجهة أحد المحلات كانت تحوى قنينات لامعة بها سائل يبدو أنه عصير الليمون وابتعت واحدة منها بقرش تركى ( ٢٥ سنتيما ) وما أن رفعته الى فمى حتى اضطررت الى لفظ الجرعة دون ابتلاعها وضحك البائع من سنذاجتى ( وسوف تعرف فيما بعد ماذا كان هذا المشروب) وكان لا بد من العودة الى ييلدز خان لأجد مشروبا أحسن طعما و

وكان النهار قد طلع والايرانيون الذين عادوا في ساعة مبكرة جدا

قد ناموا منذ وقت طویل · أما أنا فلم أتمكن من النوم بسبب انفعالات. تلك الليلة في جولاتها ومشاهدها .وانتهى بي الأمر الى ارتداء ملابسي والعودة إلى بيرا لزيارة صديقي الرسام ·

وقيل لى أنه انتقل من منزله وأنه يقيم في «قوروقشمي» لدى بعض الأرمن الذين كلفوه برسم لوحة دينية ·

وتقع قوروقشمي على الضفة الاوربية للبسفور على بعد ساعة واحدة. من بيرا • وكان لا بد لي من أن أستقل قاربا لدى سلم طوفانا •

ليس هناك ماهو أجمل من هذا الرصيف البحرى للمدينة الافرنجية والمرء يهبط من بيرا بواسطة سوارع ملتوية تؤدى من أعلى الى الشارع الكبير ثم الى القنصليات المختلفة والسفارات و ثم يجهد المرء نفسه فى ميدان سوق خاص بواجهات محلات الفاكهة حيث تعرض المنتجات الفاخرة للشاطىء الاسيوى و فالكرز يوجد تقريبا على مدار السنة لأنه من المنتجات الطبيعية لهذه الأجواء و أما البطيخ والتين الشوكى والعنب فتدل على الموسم القائم و ويصل شمام القصبة(١) الكبير ، وهو أجود شهمام فى العالم ، من أزمير ، وكل هذه الفاكهة تدعو كل من يمر الى تناول وجبة غداء بسيطة ولذيذة و ومما يميز هذا الميدان نافورة رائعة على الذوق التركى بسيطة ولذيذة و ومما يميز هذا الميدان نافورة رائعة على الذوق التركى عربية منحوتة ومرسومة و ونرى حول الميدان وفى الشهارع المؤدى الى الرصيف عددا كبيرا من المقاهى لاحظت على واجهاتها لوحات شفافة ، قد الموقئت اضاءتها ، كانت تحمل هى أيضا اسم قراقوز الذى يحبونه هنا كما يحبونه فى استانبول و

ورغم ان طوفانا جزء من الأحياء الافرنجية فان فيها عددا كبيرا من المسلمين وأغلبهم من الحمالين وموجهي البواخر (قايدجي) • وكان على الرصيف بطاريات مدافع من ست قطع لتحية البواخر التي تدخل القرن الذهبي وللاعلان عن طلوع الشمس وغيابها في أجزاء المدينة الثلاثة التي تفصلها المياه وهي بيرا واستانبول واسكودار •

وفى عظمه تبدو هذه المدينة الاخيرة من الجهة المقابلة للبسفور وهى تعرج الافق بالقباب والمآذن والاكشاك مثلها فى ذلك مثل منافستها استانبول ٠

<sup>(</sup>١) مدينة تقع شرقى أزمير تعرف بجودة خضرواتها وفاكهتها .

ولم أجد عناء في العثور على قارب يقوده اثنان من المجدفين • وكان اللجو رائعا وأخذ القارب الرفيع الخفيف يمخر عباب الماء بسرعة غريبة • ويفسر احترام المسلمين للحيوانات المختلفة كيف أن قناة البسفور التي تقطع تلال أوربا وآسيا اليانعة كما لو كانت نهرا كيف أنها دائما مليئة بالطيور المائية التي تطير أو تعوم بالالوف فوق المياه الزرقاء وتبث الحياة في الافق الطويل المليء بالقصور « والفيلات » •

وابتداء من طوفانا تبدأ الضفتان المتقاربتان في المظهر أكثر مما هو في الحقيقة في تقديم خط طويل من المنازل المطلية بالالوان الزاهية والتي تتميز بالزينات والسياجات المذهبة •

ولا تلبث أن تظهر على الضفة اليسارية سلسلة من الاعمدة تستمر معدة ربع ساعة ١٠ انها أبنية القصر الجديد لباشيك ـ طاش ١٠ وهي مبنية كلها على الطراز اليوناني ومطلية بالزيت باللون الابيض ١٠ أما السياجات فمذهبة ١٠ وجميع مواسير المداخن قـد صنعت على شكل أعمدة يونانية والمظهر العام يتميز بالفخامة والجمال ١٠ وتطفو القوارب المذهبة وهي مشدودة الى الارصفة التي يهبط منها تجار الرخام حتى البحر ١٠ وثمة حدائق شاسعة تتبع ١٠ من أعلى تفاريج التلال ١٠ وتطفى أشجار الباوط ذي الظلال في كل مكان على الاشجار الاخرى ١٠ ولا نعثر في أي مكان على أشجار النخيل لأن مناخ القسطنطينية شهديد البرودة بالنسبة لهذه الشجار . ويلى القصر قرية نرى في مرفئها القوارب الحبيرة التي يسمونها « قايق » ، ثم نمر أمام سراى أكثر قدما وهي نفسها التي كانت تسكنها في آخر حياتها السلطانة « أسماء » شقيقة السلطان محمود .

انه الطراز التركى الذى ساد فى القرن الماضى والذى يتميز بالتعاريج ورسوم « الزلط » وبالاكشاك التى تزينها الرسوم الهندسية ذات الدوائر والنقوش العربية والتى تبدو كأقفاص ضخمة ذات قضبان ذهبية ، وأسقف مدببة وأعمدة قصيرة مطلية بالالوان الزاهية ٠٠ ونحملم بعض الوقت بعجائب ألف ليلة وليلة ٠

وفى القوارب « قايق » يرقد المسافر على مرتبة فى أقصى القارب حينما يجاهد المجدفون فى شق عباب الموج بأذرعهم القوية وأكنافهم البرونزية وقد ارتدوا فى أناقة قمصانا فضفاضة من الحرير ذى الحافة اللامعة • وهو لاء الرجال جمو الادب ويتخذون فى أوضاع جسمهم اثناء العمل بوعا من الرشاقة الفنية •

واذا تبعنا الشاطيء الاوربي للبسفور نجد سلسلة طويلة من المنازل

الريفية التي يسكنها عادة موظفو السلطان · وأخيرا يبدو لنا مرفأ جديد غاص بالقوارب ، انه قوروقشيمي ·

وحجزت القارب حتى يعود بي في المساء كما هي العادة • ودخل المجدفون الى المقهى • وظننت وأنا أدخل القرية انني بصدد لوحة للرسام دى كامب(١) • وكانت الشمس قد نثرت في كل مكان قطعها الذهبية المضيئة على الحوانيت المطلية والجدران المطلية بماء الجير • وكان اللون الأخضر المائل للزرقة الذي تتسم به المزروعات يريح هنا وهناك العين التي أضناها الضوء • ودخلت لذى أحد تجار التبغ لشراء بعض تبغ سوريا وسألت عن البيت الارميني الذي يقيم فيه صديقي •

ولقد دلنى الناس على البيت بظرف · والواقع أن الاسرة التى كانت تفضل فى هذا الوقت الرسم الفرنسى كانت مكونة من شخصيات أرمينية كبيرة · واصطحبنى مرشدى حتى الباب ولم ألبث أن وجدت الفنان وقد استقربه المقام فى قاعة رائعة شبيهة بالمقاهى التركية فى طريق «التامبل» تتسم زينتها الشرقية بالدقة أكثر مما قد يتبادر الى الذهن ·

وقد اجتمع بالقاعة عدد كبير من الفرنسيين وهم يعجبون باللوحات الكرتونية الكبيرة التي يعرضها الرسام وكان منهم عدد كبير من الملحقين في الشفارة الفرنسية وإمير بلجيكي وأمير فالاشيا وقد قدم لقضاء العيد في القسطنطينية و ودهبنا لزيارة الكنيسة الصغيرة حيث يمكننا رؤية الجزء الاكبر من الزخرفة المقبلة وكانت هناك لوحة فسيحة تمثل صلاة المجوس تملأ أقصى القاعة في المكان الذي سيقام فيه المذبح الرئيسي وكانت الرسوم العرضية هي وحدها التي تم تخطيطها الاولى فقط وحانت الأسرة التي أوصت بهذه الأعمال قد تركت للرسام البيت بأجمعه بما فيه الاتباع والخيول تحت امرته وذلك لان لها مساكن أخرى في القسطنطينية وهكذا عرض علينا الذهاب للنزهة في الضواحي المجاورة وكان ثمة حفل يوناني في حي ارنوط \_ قول الذي يقع على بعد فرسنج واحد من هذا المكان ثم انه ، لما كان اليوم هو يوم الجمعة (يوم الاحد بالنسبة من هذا المكان ثم انه ، لما كان اليوم هو يوم الجمعة (يوم الاحد بالنسبة للأتراك) فقد كنا نستطيع أو سرنا ساعة أخرى ولو عبرنا البسفور أن نشاهد « الحياة العذبة » لآسيا .

<sup>(</sup>۱) الكسندر ديكامب (۱۸۰۳ ـ ۱۸۰۰) هو من أشهر الرسامين الرومانتيكيين مهن اتجهوا الى المواضيع الشرقية ، وجيرار على حق فى ملاحظته أن ألوان دى كامب تستند الى التبادل بين الالوان المختلفة واللون الابيض ، ولابد أن جيرار دى نرفال قد عسرقه بعض لوحاته الشرقية التى يقلب عليها الطابع المحلى الذى يتحدث عنه ،

ورغم أن الاتراك ينامون عادة سحابة اليوم في شهر رمضان فالقانون الديني لا يرغمهم على ذلك وهم لا ينامون الالكي لا يفكروا في الطعام ما داموا لن يستطيعوا الأكل الالدي غروب الشمس وفي أيام الجمعة فانهم ينتزعون أنفسهم من وجبتهم ويذهبون عادة للنزهة في الريف وخصوصا في « المياه العذبة » لاوربا التي تقع في طرف القرن الذهبي أو المياه العذبة» لآسيا التي كانت هدف نزهتنا و

وبدأنا بالذهاب الى ارنوط \_ قول ولكن الحفل لم يكن قد بدأ بعد ومع ذلك فقلم كان جمع غفير وعدد كبير من الباعة المتجولين ٠ وفي واد ضيق تظلله أشجار البلوط والسرو أقيمت أسوار وسيقالات أولاها لتحديد مكان الرقص والاخرى للعرض المسرحي • وكان المكان الرئيسي للحفل كهفا تزينه نافورة مهداه للنبي الياس لا تبدأ مياهها في التدفق كل عام الا في عيد أحد الانبياء وقد نسبيت اسمه(١) • وقد وزعت زجاجات هذا الماء على جميع الحاضرين من المؤمنين • وتزاحمت مئات من النساء اليونانيات على حافة النافورة المقدسة الا أن ساعة المعجزة لم تكن قد حلت بعد · بينما أخذ بعضهن يتنزهن تحت ظلال الاشكار أو يتجمعن فوق الاعشاب وتعرفت فيما بينهن على الجميلات الاربع اللاتي رأيتهن من قبل في بيت اللهو في سان ـ ديمتري ٠ ولم يكن يرتدين الملابس المتنوعة اللاتي كن يرتدينها والتي كان الغرض منها اطلاع المتفرجين على المثل الأعلى اللجناس النسائية الاربعة في القسطنطينية • على أنهن قد بالغن في التزين بالمساحيق وفي استعمال الخيال الصناعي • وكانت هناك امرأة مسنة لحراستهن ولم يكن ضوء الشمس في صالحهن كما هو الحال في الضوء الصناعي ٠ وبدا أن الملحقين في السفارة يعرفونهن من زمن طويل فقد أخذوا يتحدثون اليهن ودعو نهن لتناول المرطبات •

<sup>(</sup>١) هذا العيد يقع في الحادي والعشرين من بوليه وهو عيد النبي الياس .

# و ـ باشا اسكودار

بينما كنا نستريح تحت شجرة جميز ضخمة قدم رجل تركى في سن النضج يرتدى «ردنجوتا» مزررا وقد غطى رأسه بطربوش ذى شرابة حريرية زرقاء وزين صدره بنيشان صفير يكاد لا تلمحه المين ، قدم ليجلس على المقعد المحيط بالشجرة ، وصحب معه صبيا صغيرا يرتدى نفس ملابسه ولكن بصورة مصغرة ، وحيانا هذا الصبي بجد يتسم به عادة الصبية الاتراك الذين تعدوا للتو المرحلة الاولى وتخلصوا من رقابة أمهاتهم ، ولما رآنا التركى نمتدح لطف ابنه حيانا بدوره واستدعى «القهوجي» الذى كان واقفا بالقرب من النافورة ، وبعد لحظة أحضرت لنا وسط دهشتنا الفلايين والمرطبات التي رجانا الرجل المجهول ان نقبلها ، ولما ترددنا قال «القهوجي» : «لكم أن تقبلوها لأن هذا الرجل العظيم هو الذي يقدم لكم هذه التحية ، انه باشا اسكودار ، ولا ير فض المرء شيئا من أحد الباشوات .

ودهشت اذ وجدت أننى الوحيد الذى لم أتلق نصيبى من المرطبات والغلايين التى وزعت • وأبدى صديقي تلك الملاحظة للقهوجي الذى أجابه قائلا : « لن أكون أبدا كافرا » •

وصحت قائلا: « كافر ، ان تلك اهانة ، أنت نفسك الكافر يابن الكلب »!

وليم يخطر ببالى أن هذا الرجل ، وهو بلا شك مسلم من السنيين ، لا يوجه اهانته الاللباس الايرانى الذى كنت أرتديه ، والذى كان يظهرنى كما لو كنت من أتباع مذهب على ، مذهب الشبيعة .

وتبادلنا بعض الكلمات الحادة لأنه لاينبغي أبدًا في الشرق أن تكون

الكلمة الأخيرة للرجل الفظ • والا ظنك جبان وقد يصل الأمر الى الاعتداء عليك بالضرب بينما في امكان احدى كلمات الشتائم الشديدة أن تمنح النصر لهذا أو ذاك في أذهان الحاضرين • وفي تلك الاثناء ولما كان الباشا يشاهد المنظر بدهشة ، أفهمه رفاقي الذين ضحكوا كثيرا في أول الامر من هذا الخطأ ، أفهموه أنني فرنجي • واني لا أذكر هذا المشهد الا لملاحظة التعصب الذي ما زال قائما في الطبقات الدنيا والذي ما زال يمارس بقوة بين المذاهب المختلفة في حين أنه هادىء جدا بالنسبة للاوربيين • والامر مماثل تقريبا من ناحية المسيحيين : فالمسيحي الروماني يحترم التركي أكثر مما يحترم اليوناني •

وضحك الباشا كثيرا من هذه المغامرة وبدأ يتسحدث مع الرسام · وبعد انتهاء الحفل عدنا مع الباشا في نفس الوقت بقواربنا · ولما كان على القوارب أن تمر أمام القصر الصيفي للسلطان الذي يقسع على الساحل الاسيوى سمح لنا بزيارته ·

ان هذه السراى الصيفية التي لا ينبغى أن نخلط بينها وبين الاخرى الواقعة على الساحل الاوربى هى أجمل مقر فى العالم · فتصل الحدائق الشاسعة المدرجة فى طبقات الى قمة الجبل الذى يطل بوضوح على اسكودار من ناحية اليمين كما تبدو فى خلفية هذه اللوحة المشهد الظلى الماثل للزرقة لجبل أولمب فى بيثينيا · وقد شيد القصر على طراز القرن الثامن عشر · وكان لا بد قبل دخولنا أن نستبدل أحذيتنا بنعال أعيرت الينا · ثم صرح لنا بزيارة أجنحة السلطانات التى كانت بطبيعة الحال خالية فى هذا الوقت ·

وقد بنيت القاعات السفلى على أوتاد من الخشب الثمين، بل وحدثونا عن أوتاد من عود الند وهو أصلب مقاومة للتلف الناجم عن مياه البحر وبعد زيارة القاعات الفسيحة في الدور الارضى ، وهي لا تسكن ، دخلنا الى الاجنحة • كان ثمة قاعة كبيرة في الوسط ، يفتح عليها عشرون غرفة ذات أبواب مستقلة كما يحدث في أروقة الحمامات •

واستطعنا الدحول الى كل غرفة ، وكلها مؤثثة بطريقة واحدة بأريكة وبعض المقاعد ومنضدة للفراش من خسب الاكاجو ومدفأة من الرخام تعلوها ساعة حائط ذات أعمدة • وقدد يظن المرء نفسه في غرفة احدى الباريسيات لا سيما لو أن الاثاث قد أكمله سرير حقيقي ولكن في الشرق تستخدم الارائك وحدها كأسرة •

أدهشنى التشابه التام فى أثاث تلك الغرف، وقد علمت فى هذا الشأن آن العدالة التامة هى السائدة بين نساء السلطان ٠٠ والدليل الذى قدمه لى الرسام على ذلك هو الآتى : حينما يوصى عظمة السلطان بشراء بعض علب الحلوى من بيرا ، وهى تشترى عادة لدى حلوانى فرنسى ، كان الشرط الاساسى لتوريدها هى أن تكون مكونة من حلوى متشابهة تشابها مطلقا فاذا زادت حبة من الحلوى فى علبة عن الاخرى ، أو وضع فيها حلوى من شكل مختلف أو عدد من حبات الملبس أقل أو أكثر تسبب ذلك فى تعقيدات خطيرة فى العلاقات بين هؤلاء الجميلات • فهن يشعرن ، ومثلهن فى ذلك مثل المسلمين جميعا مهما اختلفوا ، يشعرن بالمساواة •

وفى القاعة الرئيسية أداروا لنا ساعة ذات رنين موسيقى فأسمعتنا ألحانا كثيرة من الأوبرات الإيطالية و وكانت الطيور الميكانيكية والبلابل المغردة والطواويس رافعة الذيل تزين هذه التحفة الفريدة الصغيرة و وفى الطابق الثانى كانت توجد مساكن الوصيفات وهن ينقسمن فيما بين المغنيات والخادمات أما الجوارى فيسكن أعلى من ذلك والنظام الذى يسود الحريم يشابه ذلك الذى يسود « البنسيونات » حسنة الادارة وتمسك أقدم المحظيات بزمام السلطة ولكنها دائما أقل شأنا من السلطانة الأم التي عليها أن تزورها من وقت لآخر في السراى القديمة في استانبول والمراك القديمة في استانبول والمراك القديمة في استانبول والمنابول وال

هذا ما استطعت ملاحطته من العادات الداخلية للسراى وكل شيء يدور عادة بطريقة أبسط مما يتصوره خيال الاوربيين السقيم • ولا تبنى مسألة عدد النساء لدى الاتراك الا على فكرة الانجاب • فقد نقص الجنس القوقازى الجميل القوى كثيرا لعوامل فيزيولوجية من الصعب تحديدها • وقد أضعفت الحروب الاخيرة الشعب التركى الاصيل كثيرا • فقد أفنته شجاعته كما حدث لاجناس الفرنجة في العصور الوسطى •

ويبدو أن السلطان كان على استعداد ، منجهته ، لتعمير الامبراطورية التركية ، هذا ما يدلنا عليه عدد الأمراء والائميرات الذين يعلن مولدهم في المدينة من وقت لآخر بطلقات المدافع والانواد في استانبول .

ثم شاهدنا بعد ذلك الكهوف والمطابخ وقاعات الاستقبال وقاعة العزف و ولقد اعدت جميعها بحيث تستطيع النساء ان يشاركن فيها كادون أن يراهن أحد ، في جميع الحفلات التي تقام لتسلية ضهيوف السلطان و ونلاحظ في كل مكان المقصورات ذات القضبان التي تطل على القاعات ، وكأنها منصات ، متيحة لنساء الحريم ان يشهاركن بمشاعرهن في السياسة أو في اللهو .

وأعجبنا بالحمام المبنى بالرخام وبالمسجد الخساص بالقصر • ثم أخرجونا من رواق ذى أعمدة يطل على الحدائق تزينه الأعمدة ويغلقه رواق ذو واجهة زجاجية يحتوى على أشجار صغيرة ونباتات وزهور من الهند •

وهكذا نرى أن القسطنطينية الباردة بسبب موقعها المرتفع والعواصف الكثيرة القادمة من البحر الاسود تملك مشاتل للنباتات الاستوائية كما هو الحال في بلادنا في الشمال •

ومن جديد أخذنا نجوب الحدائق ودخلنا الى جناح قدمت لنا فيه تحيه من فاكهة الحديقة والمربى • لقد دعانا الباشا الى هذا الطعام الشهى ولكنه هو نفسه لم يأكل شيئا لان قمر رمضان لم يكن قد ارتفع بعد • ولقد خجلنا جميعا من أدبه وزاد من حرجنا قليلا أننا لم نستطع أن نتعرف على هذا الادب الا في الكلام فقط •

وأجاب الباشا على الشكر الذي وجهناه اليه قائلا: «سوف تستطيعون أن تقولوا انكم تناولتم وجبة لدى السلطان! »

ودون ما حاجة الى المبالغة في شرف حضور حفل استقبال أنيق مثل هذا فلا أقل من أن نرى ما فيه من دلائل حسن النية الكبير ونسيانا ، قد يكون تاما اليوم لدى الاتراك ، للمعتقدات الدينية •

### ٦ - الدراويش

وبعد أن أعجبنا ما شاء لنا الاعجاب بالاجنحة والحدائق في سراى آسيا عدلنا عن زيارة المياه العذبة بها لانها كانت ستضطرنا الى السير في البسفور مسيرة ساعة ولما كنا بالقرب من اسكودار فقد وضعنا مشروعا لزيارة تكية الدراويش الصياح •

واسكودار هي مدينة الاورثوذوكسية الاسلامية أكثر من استانبول حيث تختلط الشعوب وهي تنتمي لاوربا .

أما اسكودار الاسيوية فما زالت تحتفظ بتقاليدها العتيقة ، ولذا فان الثوب الذى صممه عهد الاصلاح يكاد لا يكون معروفا فيها وما زالت العمامة الخضراء تظهر فيها في عناد وتصميم ، انها باختصار حيسان حرمان في القسطنطينية ،

أما المنازل والنافورات والمساجد فمن طراز أكثر قدما ولذا فان الاختراعات الجديدة من تنقية الجو ورصف السوارع أو عملها بالحصى والارصفة والمسلبيح والعربات التي يجرها الخيلول التي نراها في استانبول ، كل ذلك يعتبر هنا بدعا خطرة واسكودار هي ملاذ المسلمين المسنين الذين يتمنسون ، وسبط اقتناعهم بأن الجزء الاوربي من تركيا لن يلبث أن يقع غنيمة في يد المسيحيين ، يتمنون أن يضسمن كل منهم لنفسه قبرا يرقد فيه في سلام فوق أرض الأناضول وهم يعتقدون أن البسفور سيكون حدا فاصلا بين الامبراطوريتين والدينين وبعد ذلك سوف يتمتعون في آسيا بالامن والطمأنينة كاملين .

ولا نلاحظ في اسكودار الا مسجدها الكبير وقرافتها التي تظللها المسجار السرو الضخمة • أما أبراجها وأكشاكها ونافوراتها ومئات المآذن

فيها فلا تميزها ، لولا ذلك ، من المدينة التركية الاخرى · وتقع تكية الدراويش الراقصين على مسافة قصيرة من المسلجد · وطرازها الهندسى. أقدم من تكية الدراويش في بيرا وهم من الدراويش الراقصين ·

وكان الباشا الذى صحبنا حتى المدينة يريد أن يجعلنا نعدل عن زيادة هؤلاء الصوفية الذين كان يسميهم بالمجانين • ولكن لابد من احترام حب الاستطلاع لدى الرحالة • وقد فهم الباشسا ذلك وغادرنا ودعانا للعودة لزيارته •

ومما يميز الدراويش أنهم أكثر تسامحا من أى هيئة دينية أخرى · أما المسلمون المتعصبون فلا يفعلون أكثر من تحملهم وسط اضطرارهم لقبول وجودهم كهيئة مستقلة .

والشعب يحبهم ويؤيدهم ، وتعجب الجماهير بحماسهم ومراجهم الهادىء وسهولة طباعهم ومبادئهم أكثر مما يعجبون بتعصب الأثمة ورجال الدين • وهؤلاء يعاملونهم على أنهم من معتنقى مذهب أن الاله الواحد ماثل في جميع الكائنات وكثيرا ما يهاجمون مذهبهم دون أن يستطيعوا مع ذلك رميهم بالكفر .

وثمة منهجان فلسفيان مرتبطان بالدين في تركيا والتعاليم المنبثقة منه . احد هذين المنهجين ينتمى الى ارسطو والآخر الى أفلاطون . ويرتبط الدارويش بالمنهج الآخير . ولا ينبغى أن ندهش لهذه العلاقة بين المسلمين واليونانيين ما دمنا لم نعرف نحن أنفسنا المؤلفات الفلسفية الأخيرة للعالم القديم الا من خلال تراجمهم العربية .

واذا كان الدراويش من معتىنقى مذهب أن الاله الواحسد ماثل في جميع الكائنات فهذا لا يمنع مع ذلك من أن لهم القابا دينية لا جدال فيها • وهم يقولون أنهم أقروا في منازلهم ومع مالهم من الامتيازات بفضل أوزحان السلطان الثانى للأتراك • والرؤساء الذين السسوا مذهبهم عدوهم سبعة وهو رقم فيثاغورثي (١) يدل على أصل أفكارهم • والاسم العام لهم هو « مولاى » (٢) نسبه الىأول مؤسس لهم • أما كلمة درويش فمعناها فقير • أنه في حقيقة الأمر مذهب شيوعي اسلامي (هكذا) •

<sup>(</sup>۱۱) من الواضح أن جيرار يحاول أن يرجع جميع المداهب التي يصلحدنها الى. أصول فيثاغورثية محاولا بحسن نية تبسيط المداهب الاسلامية وتقريبها الى الفهم ·

<sup>(</sup>۲) نسبة الى « مولانا » جلال الدين الرومى .

وينتمى الكتسيرون منهم الى مذهب تناسسخ الأرواح ، ويرون أن كل رجل لا يستحق أن يخلق من جديد في صورة السانية فان روحه تدخل بعد موته في جسد الحيوان الذي يشابهه أما في المزاج أو الطبع . أما الفراغ الذي يحدث نتيجة لهذا التناسخ فتسده أرواح الحيوانات التي تسستحق لذكائها أو اخلاصها أن ترقى في السلم الحيواني الى مرتبة أعلى • أن هذا الشعور الذي ينتمى بلا شك الى التقاليد الهنسدية يفسر كثرة الهيئات الدينية في المساجد والكنائس لصالح الحيوانات . فلك لأنهم يحترمونهم سواء لأنهم كانوا فعلا في يوم من الأيام بشرا أو لأنهم ربما يتحولون الى بشر في المستقبل ، وهذا يفسر لماذا لا يأكل المسلمون ربما يتحولون الى بشر في المستقبل ، وهذا يفسر لماذا لا يأكل المسلمون لحم الخنزير ، لأن هذا الحيوان قريب بشكله وشهيته في الطعام من البشرى (۱) ،

أما « الاشراقيون » فيهتمون بتأمل الله في الاعداد والأسسكال والألوان ، وهم عادة أكثر تحفظا وأكثر حبا وأناقة من الآخرين ، والناس يفضلونهم في التدريس لانهم يسعون لتنمية قوة تلاميذهم بواسطة تمارين للتقوية أو للرشاقة ، وتنبثق نظريتهم قطعا من فيثاغورث وافلاطون ، وهم شعراء وموسيقيون وفنانون .

ويوجد بينهم جماعة يسمونها « اهل الحيرة » ( ربما تكون تلك الكلمة هي اصل الكلمة الفرنسية « هيريتيك » أي ملحد (٢) ) ، وهم يمثلون روح الشك واللامبالاة ، وهؤلاء يعتبرون بحق من الابيقوريين ، ومن مبادئهم أن الكذب لا يمكن تمييزه من الحقيقة وأنه من التهور محاولة تبين صحته فكرة ما وسط ما يتميز به الانسان من مكر ، وقد تستطيع الشهوة أن تخدعك وتثيرك وتجعلك عاجزا في الخير وفي الشر ولذا فينبغي لك أن تقول : «الله يعلم ونحن لا نعلم» أو «الله يعرف ما هو الأحسن». تلك هي الآراء الفلسفية الثلاثة السائدة هنا كما هي سائدة في كل مكان تقريبا ، ولا يتسبب ذلك بين الدراويش في أية كراهية من تلك التي تثيرها هذه المباديء المتناقضة في المجتمع البشرى ، فالاشراقيون » ، وهم مبتدعون ، أذكياء يعيشون في سسلام مع « أهل التناسخ » وهم من أصحاب نظرية « الله الواحد ماثل في جميع « أهل التادية ، بينما يحذر « أهل الحيرة » من استنزاف رئتيهم المخلوقات » المادية ، بينما يحذر « أهل الحيرة » من استنزاف رئتيهم

<sup>(</sup>١) تفسير طريف ، وهو نزوة من نزوات جيراد العديدة .

<sup>(</sup>٢) يميل جيران كثيرا الى هذا النوع من التغير وهو في أكثر الأحوال مشكوك في صحته .

فى مناقشات مع الآخرين · وكل منهم يعيش على طريقته الخاصة بمسا يتفق مع مزاجه فبعضهم يسرف فى الأكل بلا اعتدال وبعضهم الآخر يسرف فى الشرب وتعاطى المخدرات والآخرون يسرفون فى الحب . ويعتبر الدرويش أكثر الناس حظوة لدى المسلمين على شرط أن يشهد له اخوانه بالفضيلة والحماس والاخلاص .

وتضعه القداسة التي يمارسها والفقر الذي يعيش فيه ، من حيث المبدأ ، والذي لا يخففه الا الهبدات الاختيارية التي يقدمها له المؤمنون ، والصبر والتواضع وهما من صفاته المعتادة . تضعه هذه الصفات جميعا من الناحية المعنوية في مرتبة أعلى من الناس جميعا مادام قد وضع نفسه في مرتبة أقل ، ويستطيع الدرويش أن يشرب النبيذ والمشروبات الروحية أذا قدمت له لأنه من المحرم عليه شراء أي شيء وأذا مر في الطريق وتاقت نفسه إلى الحصول على أية تحفة أو زينة معروضة في أحد الحوانيت فأن البائع يمنحها له عادة أو يتركه يأخذها وأذا قابل أمرأة فأنه يستطيع أن يقربها دون دنس مهما كان مقدار احترام الناس له ( هكذا ) . حقيقة أن هذا لم يعد يحدث الآن في المدن ولكن المبدأ الذي يبرر هذه الحرية هو أن الرجل الذي يحرم نفسه من ولكن المبدأ الذي يبرر هذه الحرية هو أن الرجل الذي يحرم نفسه من كل شيء من حقه أن يحصل على كل شيء ، فما دامت فضيلته قد دفعته الى نبذ كل شيء فلا بد من أن يعوضه المؤمنون عن هذا الحرمان بالمنع والهبات .

وللدروایش الحق ، بموجب قداستهم الخاصة ، فی أن یعفوا أنفسهم من السفر للحج الی مکة ، وهم یستطیعون اکل لحم الخنزیر والارنب الجبلی ، بل وحتی لمس الکلاب ، وهی جمیعا من المحرمات علی الاتراك الآخرین رغم احترامهم جمیعا لذکری کلب النائمین السبع ، (۱) ولما دخلنا الی فناء التکیه رأینا عددا کبیرا من هذه الحیوانات التی یوزع علیها آخوة من الخدم طعام العشاء . وقد رصدت لذلك هبات من عهد قدیم جدا تنفذ باحترام شدید ، وکانت جدران الفناء الذی تظلله أنواع مختلفة من اشجار الا کاسیا ، مزینة هنا وهناك بهیاكل خشبیة صغیرة مطلیة ومنحوته ومعلقة علی ارتفاع قلیل کما او کانت مساند ، کانت تلك بیوتا صغیرة للطیور التی تأتی کما ترید للحصول علیها والعیش فیها فی حریة تامة ،

<sup>(</sup>١) قصة أهل الكهف كما ذكرت في السورة الثانية عشرة من القرآن .

ولم أر جديدا في المرض الذي قدمه الدراويش الراقصون فقد كنت رأيت ما يشابه ذلك في القاهرة • ويقضى هؤلاء الناس الطيبون ساعات عديدة في الرقص وهم يضربون الأرض بقوة بقدمهم حول سارية مزينة بالأكاليل يسمونها «سارى » • وهذا يحدث تأثيرا مشابها لتأثير الرقص البروفانسي الذي يؤدي والراقص في مكانه • وهم يغنون بأنغام مختلفة ترنيمة قديمة تتردد فيها كلمة « الله حي » • ويسمح للجمهور بحضور هذه الجلسات حيث يجلس على منصات عاليه ذات درابزين من الخشب • وبعد أن يستمر هذا التمرين ساعة تعترى البعض حالة ارهاص تكشف عنهم الحجاب • فيأخذون في التدحرج على الأرض ويشاهدون رؤى طوباوية (۱) •

وكان الدراويش الذين رأيناهم في هذا العرض ذوى شعور طويلة يخفونها تحت غطاء رأس من الجوخ على شكل اناء زهور مقلوب . وكانت ثيابهم بيضاء ذات أزرار سوداء • وهم يسمون القادرين نسبة الى مؤسسى طائفتهم (٢) •

وقص علينا أحد الحاضرين أنه رأى رقص الدراويش في تكية بيرا وأكثرهم من الدراويش الراقصين و كما يحدث في اسمكودار يدخل الناس الى قاعة خشبية فسيحة تكثر فيها الأروقة والمنصات ويدخل الجمهور دون أى شرط ولكن من المستحسن تقديم صدقة قليلة و وفي تكيه بيرا يرتدى جميع الدراويش الملابس البيضاء ذات الكسرات كما في (جوبات) قراطق اليونانيين الوطنية و وتنحصر مهمتهم في الجلسات العامة على الدوران حول انفسهم أطول وقت ممكن وهم جميعا يرتدون الملابس البيضاء حينما يرتدى رئيسهم وحده الملابس الزرقاء وفي أيام الثلاثاء والجمعة تبدأ الجلسة بخطاب ديني ينحني بعده جميع الدراويش تحية أمام رئيسهم ثم يتفرقون في أرجاء القاعة حتى يستطيعوا الدوران كل بمفرده دون أن يتلامسوا أبدا وتطير القراطق البيضاء وتدور الرأس بغطائها المصنوع من الجوح ويبدو كل واحد من رجال الدين هؤلاء كما لو كان تلك المعبة الطائرة المكونة من حزمة من الريش مثبته في قاعدة من الفللين يتقاذفها اللاعبون .

<sup>(</sup>۱) تجعلهم سعداء ١٠٠

<sup>(</sup>٢) أسس هذه الطائفة عبد القادر جيلاني ١٠٧٧ \_ ١١٦٦ .

وفى هذا الوقت يقوم بعضهم بأداء نفمات حزينة على ناى من اللبوص و تأتى ، بالنسبة للراقصين كما يحدث بالنسبة للمنشدين ، لحظة تجلى تحدث لهم نشوة خاصة .

ولا يحق للمثقفين أن يدهشوا لهذه الممارسات الغريبة • فهـؤلاء الدراويش يمثلون التقليد المتواصل للقساوسة اليونانيين وفئاتهم المحتلفة اللين رقصوا وصاحوا طيلة قرون طويلة سحيقة على هذا الشاطىء نفسه • ان هذه الحركات التشنجيه بمساعدة المشروبات والعجائن المثيرة تصل بالانسان الى حالة عجيبة يقبل ازاءها الله ، وقد تأثر من حب الناس له ، أن يتجلى لهم في أحلام رائعة كمذاق الجنة .

وحينما هبطنا من تكية الدراويش لبلوغ السلم البحرى رأينا القمر وقد ارتفع الى كبد السماء وبدت فى ضوئه الى اليسمار اشجار السرو الضخمة فى مقبرة اسكودار ، والى أعلى البيوت الملونة اللامعة والمذهبة فى أعالى مدينة اسكودار التى يسمونها المدينة الفضية .

وبدا القصر الصيفى للسلطان ، الذى زرناه فى الصباح ، فى وضوح الى اليمين على شاطىء البحر بجدرانه المعرجة والمطلية بالأبيض مع حافة عليا من اللون الذهبى الشاحب ، واخترقنا ميدان السوق ، وأوصلنا « القارب » فى عشرين دقبقة الى طوفانا على الضفة الاوربية •

وحينما رأيت اسكودار تبدو من بعيد في افقها الذى تحدده الجبال الزرقاء والمرات الطويلة التى تحفها أشجار الشربين والسرو في قرافتها تذكرت جملة بايرون المأثورة:

« ایه یا اسکودار ! ان بیوتك البیضاء تشرف على مئات القبور حینما نری فوقها الشجرة دائمة الخضرة ، شجرة السرو الفارهة الحزينة التى تتسم أوراقها بحداد لا ينتهى ولا يبادله واياها أحد »(١).

<sup>(</sup>۱) ديوان : « خطيبة أبيدوس » الباب الثاني القطعة ١٨ .



الْترواة اسطورة في أحد المعتاهي



لن يكون من المستطاع اعطاء القارىء سوى فكرة ضعيفة عن متع، القسطنطينية خلال شهر رمضان وأهم ما تتسم به لياليها من سحر اذا لم نذكر الروايات الرائعة التي يقصها الرواة أو يرتلونها في أهم مقاهي استانبول وان ترجمة احدى هذه الأساطير كفيلة باكمال الأفكار التي ينبغي أن نكونها عن أدب عال وشعبي في وقت واحد يحيط بالتقاليد. وبالأساطير الدينية المأخوذة من وجهة النظر الاسلامية احاطة بديعة و

واعتبرنى الايرانيون الذين يتولون حمايتى طالب علم (أى عالما) ،. ولذا فقد أخذوا يصحبوننى الى المقاهى الواقعة خلف مسجد بايزيد التى كان يجتمع فيها فيما مضى مدخنو الأفيون · أما اليوم فان هذا «الكيف » محظور ولكن التجار الغرباء عن تركيا يرتادون بحكم العادة هذه البقعة . البعيدة عن صخب أحياء وسط المدينة ·

ويجلس الرواد ويطلبون النرجيلة أو الشبوق ويستمعون الى، الروايات التي تطول أطول مدة ممكنة ، كما هو الحال في مسلسلاتنا ،. فهذا يحقق مصلحة صاحب القهوة والراوى على السواء ٠

ورغم أنى بدأت دراسة لغات الشرق فى سن مبكرة فانى لا أعرف منها الا الكلمات التي لاغنى عنها (١) • ومع ذلك فان حيوية القصة قد شوقتنى وساعدنى أصدقائى فى الخان على الأقل على تفهم الموضوع •

ولذا فانى أستطيع بصفة تقريبية أن أصف تأثير منده القصيص. التصويرية التى يبدع فيها الذوق الشرقى التقليدى • والجدير بالذكر

 <sup>(</sup>۱) قال جيراد في «نزهات وذكريات» الجزء الخامس ويدعى «السنوات الأولى»
 «كنت أدرس في وقت واحد الايطالية واليونانية واللاتينية والالمانية والعربية والفارسية»

أن المقهى الذى كنا فيه يقع فى أحياء العمال فى استانبول وهى مجاورة للأسواق • وفى الشوارع المجاورة توجد ورش صاهرى المعادن والنقاشين والحفارين الذين يصنعون أو يصلحون الاسلحة الجميلة المعروضة فى البيرستان، وكذلك صناع الادوات المنزلية المصنوعة من الحديد أو النحاس وثمة مهن كثيرة أخرى ترتبط بالسلع المختلفة المعروضة فى الأقسام المعديدة فى السوق الكبير •

ولذا فان الجمع كان لابد أن يبدو في اعين رجال المجتمع شعبيا • ومع ذلك فقد كان هنا وهناك على المقاعد والمنصات بعض الملابس المتأنقة •

ويبدو أن الراوى الذى سنسمعه من المشهورين · وفيما عدا رواد المقهى كان ثمة جمع من المستمعين يتزاحمون في الخارج ·

وطلب الى الناس أن يلوذوا بالصمت وأتى شاب ذو وجه شاحب وملامح غاية فى الدقة ونظرة ملتهبة وشبعر طويل يتدلى من تحت غطاء رأسه ، المختلف عن الطربوش كالأولياء ، أتى هنذا الشاب ليجلس على كرسى بلا ظهر فى مكان تبلغ مساحتهمن اربعة الى خمسة أقدام وسلط المقاعد ، وأحضرت له القهوة وأصاخ الناس السمع فى احترام دينى اذ أن كل قصة ، حسب العادة ، لابد أن تستمر نصف ساعة ،

ان هؤلاء الرواة المحترفين ليسوا شعراء ولكنهم رواة شعر ٠ انهم ينظمون ويطرقون موضوعات سبقت معالجتها بطرق مختلفة أو موضوعات مبنية على الأساطير القديمة ٠ وهـكذا تتجدد مغامرات عنتر وأبو زيد والمجنون مع آلاف الاضافات أو التغييرات ٠ وكان الأمر يتعلق هذه المرة بقصة تتغنى بأمجاد هذه الجماعات العاملة القديمة التى خلقها الشرق ٠

وقال الراوى: الحمد لله ولصفيه أحمد الذى تضىء عيناه بنور جميل : انه نبى الحق الوحيد

وصاح الجميع : آمين .

# قصة ملكة الصباح وسليمان أمير الجن

### أدونيرام (١)

امتنع أدونيرام الذى كان فى خدمة الملك الكبير سليمان بن داود عن النوم والملذات والمرح فى الولائم منذ عشر سنوات وذلك لخدمة مشاريع هذا الملك • ولما كان رئيسا لجوقات العمال الذين كانوا ، مثلهم فى ذلك مثل خلايا النحل العديدة ، كانوا يسمهون فى بناء خلايا من الذهب وخسب الأرز والمرمر والحديد كان ملك فلسطين يبنيها من أجل الله «أدونايى ويعدها لعظمته الشخصية ، فقد كان المعلم «أدونيرام » يقضى الليل فى ادماج الخطط والنهار فى تشكيل الوجوه العملاقة التى يصنعها لتزيين الواجهة (٢) •

وكان قد أقام ، على مكان ليس بالبعيد من القبر ، ورشا ، للحدادة تدق فيها المطرقة بلا انقطاع ، وكذلك ورشا تحت الأرض لصهر المعادن كان البرونز المصهور فيها يجرى في مائة قناة من الرمل ويأخذ أشكال الأسود والنمور والتنين ذي الاجنحة ورءوس الاطفال المحمولة على جناحين

<sup>(</sup>۱) شخصية حيرام التي وردت في التوراة مع تطوير رومانسي كبير اضافه خيال . نرفال .

<sup>(</sup>۲) نلاحظ أن نرفال هنا يقتبس من حياة الرسام والنحات الايطالي العملاق ميكل ـ انجلو ومشاريمه الجبارة لا سيما مقبرة جوليوس الثاني وأعظم النر باق منها اليوم هو تمثال موسى .

يل حتى أشكال الجن الغريبة المرتاعة ٠٠ وهي أجناس بعيدة كادت تندتر في ذا ترة الانسان ٠

وكان ثمة أكثر من مسائة ألف صانع تحت امرة أدونيرام ينفذون أفكاره الواسعة: كان هناك ثلاثون ألفا من صاهرى المعادن وكان النحاتون وكاسرو الاحجار يشكلون جيشا آخر يبلغ ثمانين ألفا من الرجال ، وكان هناك سبعون ألفا من العمال يساعدون في حمل المواد والمعدات وأمسلا قاطعو الأخشاب فقد قسموا في كتائب عديدة وتفرقوا في الجبال حيث أخذوا يقطعون أشجار الصنوبر الموغلة في القدم حتى صحارى قوم يأجوج ومأجوج كما أخذوا يقطعون أشجار الأرز من هضاب لبنان واسستعان أدونيرام بثلاثة آلاف وثلاثمائة من القهارمة في اقرار النظام بين هؤلاء العمال الذين كانوا يعملون بلا أدنى اضطراب •

ومع ذلك فقد كانت نفس آدونيرام القلقة تشرف على هذه الأعمال الكبيرة بشيء من الازدراء • وكان انجاز احدى معجزات الدنيا السبع يبدو له عملا وضيعا • وكلما كان العمل يتقدم كلما بدا له ضعف الجنس البشرى أمرا مؤكدا وكلما شكا من عدم الكفاية ومن الامكانيات المحدودة التي يقدمها له معاصروه • لقد كان أدونيرام ذا حمية ملتهبة في التفكير وأكثر التهابا في التنفيذ •

كان يحلم بالأعمال العملاقة ، وكان ذهنه يغلى كالمرجل ويخلق الأفكار العبقرية السامية • وحينما كانت أعماله تدهش أمراء العبرانيين كان هــو وحده يستخف بالأعمال التي الفي نفسه مضطرا لتنفيذها •

کان انسانا قاتما غامضا ، وکان ملك صور الذی کان يستخدمه ، هو الذی أهداه لسليمان • ولکن ما هو وطنأدونيرام ؟ لا أحد يعرفه • من أى مكان أتى ؟ كان هذا لغزا • أين تعلم مبادئ علمه الواسع العملى العميق المتنوع ؟ لا ندرى • كان يبدو كما لو كان يخلق كل شىء ويحدس بكل شىء وينفذ كل شىء • ما هو أصله ؟ الى أى جنس ينتمى ؟ كان ذلك هسو السر الذى يخفيه أكثر من غيره ، ولم يكن يقبل أبدا أن يسأله أحد عنه السر الذى يخفيه أكثر من غيره ، ولم يكن يقبل أبدا أن يسأله أحد عنه

وكان كرهه للناس يجعله غريبا وحيدا وسط جميع أبنساء آدم · كانت عبقريته المتألقة الجريئة تضعه فوق البشر الذين لم يكونوا قط يشعرون أنهم اخوته · لقد كان مزيجا من روح النور ومن الظلمة ·

كان لا يبالى بالنساء اللاتى كن يتأملنه خفية ولا يتحدثن أبدا عنه ، وكان يحتقر الرجال الذين كانوا يتجنبون نظرته النارية كما كان يحتقر

الرعب الذي كان يوحى اليهم به مظهره المهيب وقامت العالية القوية ، والتأثير الذي يحدثه جماله الغريب المذهل • كان قلبه صامتا وذلك لأن نشاط الفنان فيه كان وحده هو الذي يحرك يديه اللتين خلقتا لعجن العالم ويحنى كتفيه اللتين خلقتا لحمل هذا العالم •

واذا لم يكن له أصدقاء فقد كان له عبيد مخلصون وقد اتخسف رفيقا واحدا ٠٠ طفل صغير ، صحبى فنان ينتمى الى الأسر الفينيقية التى نقلت فيما مضى تحفها الفنية الى الشواطىء الشرقية لآسيا الصغرى ٠ كان بينونى شاحب الوجه وكان فنانا دقيقا يحب الطبيعة ويطيعها وقد قضى طفولته وصباه فيما وراء الشام في هذه الضفاف الحصبة للفرات الذي كان في ذلك الوقت حدولا صغيرا ، ولم يكن يعيش على ضفتيه الا الرعاة الذين ينشدون أغانيهم تحت ظلال أشهدار الغهار الخضراء التى تتخللها الورود ٠ (١)

وذات يوم ، حينما بدأت الشمس تميل نحو البحر ، وكان بينونى واقفا أمام كتلة من الشمع يشكل منها بقرة تشكيلا دقيقا ، ويدرس قدرته على الشعور بقدرة العضلات على الحركة اقترب منه « الأستاذ » أدونيرام وقضى وقتا طويلا يتأمل هذا العمل الفنى الذي كاد يتم وقد قطب حاجبيه .

وصاح قائلا: «يا للعمل التعس! أرى صبرا وذوقا وطفولة! ولكن لا عبقرية في أى موضع ولا ارادة مطلقا · ان كل شيء يتدهور ، وأرى العزلة والتنوع والتناقض وعدم النظام ، وهي الأدوات الابدية المتي تقضى على أجناسكم ذات الاعصاب الثائرة ، أراها تشل تصوراتك الضعيفة أين هم عمالي أين صاهرو المعادن ، أين عمال التستخين والحدادين ؟ · · لقد تفرقوا! · · ان هذه الأفران التي بردت كان ينبغي في هذه الساعة أن تشهق و تزفر من اللهب الذي يزداد استعارا · ان الأرض كان ينبغي أن تتلقى آثار هذه الأشكال التي عجنتها بيدي · ألف ذراع كان ينبغي أن تنحني على الأفران · · ومع ذلك فها نحن وحدنا!

وأجاب بينوني برقة:

\_ أيها الأستاذ ، ان هؤلاء الناس الاجلاف لا تساندهم العبقرية التي تلهبك ، وهم في حاجة الى الراحة ، والفن الذي نحن أسيران له قد ترك

<sup>(</sup>۱) شخصية بينوني هذه من اختراع نرفال ٠

أذهانهم عاطلة · لقد أخذوا اجازة لليوم كله · وقد أمر سليمان الحكيسم, بأن الراحة واجب عليهم · ان القدس في عيد مزدهر ·

عيد! فيم يهمنى ذلك؟ الراحة ٠٠ لم أعرفها أبدا ١٠ الذى يهددنى. هو البطالة! أى عمل هذا الذى نقوم به ؟ معبد من الذهب ، قصر للغرور والملذات ، مجوهرات قد تحولها قطعة خشب ملتهبة الى رماد ١٠ انهم يسمون ذلك « الخلق للخلود » ١٠ وذات يوم تأتى جحافل من المنتصرين وقد جذبتها رغبة مبتذلة في الكسب وتألبت ضد شعب أفسدته الرخاوة ، تأتى فتهدم في ساعات قليلة هذا المبنى الواهى فلا تبقى منه الا الذكرى ١٠ ان الأشكال. التى نصورها سوف تصهر على ضوء المشاعل كما تذوب ثلوج لبنان حينما. يأتى الصيف وسوف تقول الأجيال القادمة وهى تجوب هذه التلال القاحلة: يأتى العبر انبون أمة ضعيفة مسكينة! ٠

ــ ماذا! أتتحدث ياأستاذى عن هذا القصر الرائع · · وهذا المعبد الذى. يعتبر أثمن وأوسع واأمتن معبد ·

- غرور ! غرور ! كما يقول السيد سليمان على سبيل الغرور • أتعرف ماذا كان يفعل أبناء هينوس فيما مضى ؟

لقد قاموا بتنفيذ عمل بلا اسم ارتاع له الخالق نفسه وارتعدت له الأرض وهي تقلبه رأسا على عقب و ولقد بنيت مدينة بابل من المخلفات المبعثرة للمواد التي صنع منها يا للمدينة الجميلة التي تستطيع عشر عربات أن تطير فوق مقاطع جدرانها و أتعرف ما معنى أثر يقام ؟ أتعرف الأهرام ؟ انها سوف تعيش حتى اليوم الذي تنهار فيه جبال قاف (١) التي تحييط بالعالم وليس هم أبناء آدم الذين بنوها و

ـ ومع ذلك فيقال ٠٠٠

حدا كذب: لقد ترك الطوفان آثاره فوق قمتها · اصغ الى : على بعد ميلين من هنا وأنت تصعد الأرز توجد كتلة مربعة من الصخر حجمها ستمائة ذراع · فليعطوني مائة ألف من العمال مسلحين بالحديد والمطارق · وسوف أنحت في الصخرة الضخمة رأسا عملاقة لأبي الهول · · وهو يبتسمويرسل نظرة لا تتغير الى السماء وسوف يراه الاله جيوفا من أعلى السحاب وسوف يشحب لونه من الذهول · ذلك هو الأثر · وسوف تمر مائة ألف وسوف يشحب لونه من الذهول · ذلك هو الأثر · وسوف تمر مائة ألف عام وما زال أبناء البشر يقولون : انه شعب عظيم ذلك الذي ترك هنا آثاره ·

<sup>(</sup>١) جبل أسطورى ذكره جيرار من قبل في قصة الخليفة الحاكم .

وقال بينوني وهو يرتعد:

- سيدى من أى جنس أتت هذه العبقرية المتمردة ؟ ٠٠٠

- ان تلك التلال التي يسمونها جبالا تثير في الشفقة ٠ ماذا لو عملنا على وضعها الواحد فوق الآخر في تدرج سلمي وننحت تحت أقدامها وجوها عملاقة ٠٠٠

ان هذا قد يساوى شيئا · وفى القاعدة نحفر كهفا من الاتساع بحيث يأوى جوقة من القساوسة : فيضعون فيه تابوت العهد بملائكته الذهبية والحساتين اللتين يسمونها مناضد وهكذا تحصل القدس على معبد ، وسوف يعيش الاله كما لو كان بنكيرا (صاحب مصرف) من منفيس ·

- ان أفكارك تحلم دائما بالمستحيل ٠

ـ لقد ولدنا في عصر متأخر جدا فالعالم موغل في القدم والشيخوخة واهنة ، انك على حق • انه انحلال وانهيار • انك تنقل من الطبيعة في برود وتقضى وقتك كما تفعل ربة البيت التي تنسج خمارا من الكتان • ويأتي ذهنك المضطرب فيصير عبدا اما لبقرة أو لأسد أو لحصان اأو لنمر ، وهدفك من العمل هو أن تتنافس بالتقليد مع بقرة أو لبؤة أو نمرة أو فوس ٠٠ ان هذه الحيوانات تصنع ماتصنعه أنت وأكثر لأنها تنقل الحياة مع الصورة٠ أيها الطفل أن الفن ليس في ذلك ٠ أنه يتوقف على الخلق ٠ فهل أذا أردت رسم احدى هذه النخارف التي تتلوى بطول الافاريز هل تكتفى بنقــل الزهور وأوراق الأشجار التي تزحف على الأرض؟ كلا • إنك تبتكر وتترك العنان لنزوات التخيل خالطا بين أكثر النزوات غرابة • حسن ! ولم لاتبحث بجانب الانسان والحيوان الأحياء ، لم لا تبحث عن أشكال مجهولة ورءوس لا اسم لها وتجسيدات تراجع الانسان أمامها وازدواجات مروعة ووجوه كفيلة بنشر الاجترام والمرح والمذهول والارتياع ؟ تذكر قدماء المصريين وفناني الأشوريين الذين يتسمون بالجرأة والسلمذاجة ٠ ألم ينتزعوا من جلاميد الجرانيت تماثيل ابى الهول والغوريلات وتلك الروائع المصنوعة من البازلت التي كان منظرها يثير جيوفا اله داود الشيخ ؟ فاذا رأى الناس من جيل الى جيل تلك الرموز المخيفة سوف يرددون أنه قد كان في الماضي عبقريات جريئة • هل كان هؤلاء الناس يفكرون في الشكل ؟ لقد كانوا يسخرون منه وكانوا يستطيعون ، وقد مدتهم ابتكاراتهم بالقوة ، أن يصيحوا بخالق كل شيء قائلين : « ان هذه الكائنسات من الجرانيت ليست في تصورك ولا تجرؤ على بث الروح فيها » • ولكن اله الطبيعة متعدد الشكل قد طواك تحت نيره والمادة تحدد من مجهودك وعبقريتك المتدهورة تغوص في مبتذلات الشكل • يا لضيعة الفن •

وقال بيونى فى نفسه: من أين أتى أودنبرام هذا الذى تفوق عبقريته البشر .

واستطرد هذا السباك قائلا وهو يمر بيده فوق جبهته العريضة مبعدا خصلة كثيفة من الشعو الاسود المجعد :

« لنعد الى دمى الأطفال لتكون فى متناول الفهم المتواضع لسليمان العظيم • ها هى ثمانية وأربعون ثورا من البرونز ذات تكوين حسن ومثلها من الأسود والطيور والنخيل والملائكة • وكلها أحسن تعبيرا من الطبيعة • وانى أخصصها لحمل حوض من الفولاذ من عشرة أذرع تصب فى دفقة واحدة عمقه خمسة أذرع ويحده اطار زخرفى طوله ثلاثون ذراعا

ولكن لدى أشكال لابد أن أتمهدا • ان قالم الحوض جاهز • وأخشى أن يذوب بفعل حرارة هذا اليوم • ينبغى لنا الاسراع وكما ترى يا صديقى فان العمال في عيد وقا، تخلوا عنى •

أتقول انه عيد ؟ أي عيد ؟ وبأية مناسبة ؟ » ٠

وتوقف الراوى عند هذا الحد فقد مر نصف الساعة • وأصبح كل واحد من الرواد في حل من طلب القهوة أو الشراب أو الطباق • وبدأت الأحاديث حول جمال التفصيلات والتشويق الذي تتسم به الرواية • ولاحظ أحد الايرانيين ممن كانوا بالقرب منى أنه يخيل اليه أن تلك القصة مستقاة من ملحمة سليمان ـ نامه (١) •

وفى أثناء تلك الاستراحة ، هكذا يسمون الفترة التى يأخذها الراوى للراحة وكذلك فأن كل سهرة تسمى جلسة ، كان الصبى الذى اصطحبه الراوى معه يمر بين الصفوف وهو يقدم وعاء عميقا من الخسب لكل واحد من الرواد ثم عاد بالوعاء ملينا بالنقود فوضعه تحت قدمى سده .

واستأنف هذا الأخير الحديث برد بيلوني على أدونيرام •

<sup>(</sup>۱) للشساغر الأيرائي الغردوسي من القرن الماشر وهي جزء من الشسساهنامة (كتاب الملوك) ٥٠٠٠

### ٧ - بلقيس

قبل أسر العبرانيين في مصر بعدة قرون أتى سبأ ، وهو الرجل العظيم من نسل ابراهيم وكيتورا ، أتى ليقيم في الأرض السعيدة التي نسميها اليمن حيث أسس مدينة حملت في أول الأمر اسمه وتعرف اليوم باسم مأرب ، وكان لسبأ أخ يدعى اعراب وهو الذي أورث اسمه الى جزيرة العرب الصخرية ، وحملت سلالة خيامها هنا وهناك حينما ظلت مسلالة سبأ تحكم اليمن التي أصبحت امبراطورية عظيمة كانت في ذلك الوقت تحت امرة الملكة بلقيس الوريثة المباشرة من سيبأ ليوختان للبطريق عيبر ، الذي كان جده الثالث سيسام وهو الأب المشترك للعبرانيين والعرب (١) ،

وقاطعه أدونيرام وقد نفذ صبره :

ـ انك تبدأ كالكتاب المصرى وتستمر على النغمة الرتيبة التي كان يتحدث بها موسى بن عمران ( النبي موسى ) المحرر المسهب لشعب يعقوب • ان رجال الكلام يأتون دائما بعد رجال العمل •

ـ كما يأتى مقدمو الحكم بعد الشمعراء المقدسين و باختصار يا أستاذى فان ملكة الجنوب (٢) ، أميرة اليمن ذات الجمال الملائكي بلقيس سوف تصل اليوم الى سليم في زيارة لسليمان الحكيم وللاعجاب بالروائح التى نصنعها بايدينا و

<sup>(</sup>١) اخذ جيرار هذه التفصيلات في غالب الأمر عن المستشرق سيلفستردي ساسي .

<sup>(</sup>٢) كانت مملكة سبأ تشغل الجزء الجنوبي الفربي من شبه الجزيرة العربية .

وقد ذهب عمالنا لاستقبالها ضمن حاشية الملك وقد غص الريف. بالناس بينما خلت الورش من العمال • ولقد كنت من أوائل من سارعوا بالذهاب ورأيت الموكب ثم عدت اليك •

اعلن لهم عن مقدم السادة فانهم سرعان ما يجرون تحت أقدامهم.
 مطالة ٠٠ عبودية ٠

\_ بل حب الاستطلاع خاصة ، ولقد كنت تفهم ذلك لو ٠٠٠ ان، نجوم السماء أقل عددا من الجند الذين يتبعون الملكة ، فخلفها تسير ستون من الفيلة البيضاء المحملة بالاحمال التي تتلألأ بما فيها من ذهب ودمقس ، ويسير ألف من أبناء سبأ بجلدهم الذي أحالته الشمس الى لون النعب ويقودون جمالا تكاد سيقانها تنثني من ثقل الأمتعة والهدايا التي أحضرتها الاميرة ، ثم يليهم الاحباش وقد تسلحوا بأسلحة خفيفة وبدا لونهم القرمزي كما لو كان نحاسا مطروقا ، وتلتهم سحابة من الاحباش السود في لون الابنوس وقد راحوا يمرون هنا وهناك وهم يقودون خيولهم وعرباتهم ويطبعون الجميع ويسهرون على كل شيء ، ثم ، ولكن ما جدوي هذه القصة ؟ انك لا تتنازل بالاستماع اليها ،

وتمتم أدونيرام كما لوكان في حلم:

ملكة سبأ! انه جنس انقرض ولكن دمه نقى لم يخلط ٠٠ وماذاا أنت تفعل في هذا البلاط ؟

- ألم أقل لك السبب يا أدونيرام ؟ لقد قدمت لترى ملكا عظيما؛ وتختبر حكمته التى طبقت شهرتها الآفاق وربما لتحطيمها اربا • ويقولون انها تحلم بالزواج من سليمان الحكيم على أمل أن ترزق منه بذرية جديرة. في الجنس الذي تنتمى اليه •

وصاح الفنان فى ثورة عارمة: جنون! جنون! انه دم عبد، دم أحط المخلوقات • . يوجد منه الكثير فى عروق سليمان! أتقترن اللبؤة بالكلب التابع المبتذل؟ لقد مرت قرون طويلة ظل فيها هذا الشعب يضحى بالبيوتات ويسلم نفسه لنساء غريبات فانحلت الاجيال المتالية وفقدت قوة الأجداد وحيويتهم • من هو هذا السليمان المسالم؟ انه ابن سبية حرب من الراعى المسن داود، وداود نفسه ابن راعوث وهى مغامرة أتت من بلاد مؤاب فارتمت تحت أقدام مزارع من بيت لم •

انك تعجب بهذا الشعب العظيم يا بني : انه لم يعد الا ظلا وانطفة

فيه الجنس المغوار · ان شمس هذه الامة تقترب من نهايتها وهي بعد في السمت · لقد أثار السلام أعصابهم وجعلهم الترف والملذات يفضلون الذهب على الحديد ولم تعد ذرية الملك المرفه المحب للشهوات يصلحون الا في التجول بالبضائع أو نشر الربا بين الناس · وسوف تنحدر بلقيس الى هسنذا الدرك الأسسفل وهي ابنة البطارقة ! قل لى يا بنوني ، لقد قدمت أليس كذلك ؟ · · وسوف تعبر سور أورشليم هسنذا المساء بالذات ·

- ان الغد هو يوم السبت · ولما كانت متمسكة بعقائدها فقد رفضت أن تدخل هذا المساء وبعد غروب الشمس في تلك المدينة الغريبة ولذا فقد نصبت الخيام على ضفاف صيدا ورغم الحاح الملك الذي أتى اليها يحيط به موكب غاية في الفخامة والأبهة فقد زعمت أنها سوف تقضى الليل في الريف ·

- ان حذرها هذا جدير بالثناء! أما زالت شابة ؟ ٠٠٠

- نستطيع القول بأنها ما زالت في شرخ الشباب ، وان جمالها ليخلب الألباب ، ولقد لمحتها كما يلمح الانسان الشمس في مشرقها فما تلبث أن تلهب عينيه وتجعله يغض بصره وقد خر الناس جميعا لمرآها سجودا وفعلت أنا كما فعل الآخرون ، ولما نهضت رأيت صورتها ولكن يا أدونيرام ان الليل قد أرخى سدوله واني لأسمع العمال وقد عادوا متجمعين لاستلام رواتبهم لأن الغد هو يوم السبت ،

وهنا قدم رؤساء الصناع العديدون · وأقام أدونيرام الحراس لدى مدخل الورش وفتح خزائنه الكبيرة وبدأ يدفع للعمال أجورهم بعد أن يتقدموا نحوه الواحد تلو الآخر وهم يهمسون في أذنه بكلمة السر ·

وذلك لأنهم كانوا من كبر العدد بحيث يصعب تحديد المرتب الذي يستحقه كل منهم •

ولذا ففى اليوم الذى استخدموا فيه تلقوا كلمة السر لا ينبغى ان يذكروها لأحد والا دفعوا حياتهم ثمنا لذلك وأيدوا ذلك بقسم جليل • وكان للرؤساء كلمة سر تختلف عن كلمة من هم تحت التمرين •

<sup>(</sup>۱) هذه التفصيلات مستقاة من تقاليد البنائين ، قلدى انشاء معبد القدس كانت وتب العمال هى : عامل تحت التمرين ، عامل ثم دئيس عمل ، وكان لكل رتبة كلمة مر ،

وهكذا فكلما مر أحدهم أمام أدونيرام وقهارمته كان ينطق بكلمة السر فيوزع عليهم أدونيرام مرتبا يختلف باختلاف تدرج وظائفهم •

ولما انتهى « الحفل » الذى تم على ضوء مشاعل صمغ الصنوبر قرر أدو نيرام أن يقضى الليل وسط أسرار أعماله ، ولذا فقد صرف بينونى الشاب وأطفأ شعلته • ولما بلغ مصانعه تحت الارضية اختفى فى أعماق الظلمات •

ولما طلع نهار اليوم التالى اجتازت بلقيس ملكة الصباح مع أول معاع من أشعة الشمس الباب الشرقى لأورشليم • وقد استيقظ العبرانيون على الضوضاء التي أحدثها رجال حاشيتها فتهافتوا على باب مدينتهم وتبع العمال الموكب وهم يهتفون هتافات صاخبة • ولم ير أحد من قبل مثل هذا العدد من الخيول والجمال ولا مثل هذه الجوقة السخية بالفيلة البيضاء التي تقودها خلية تضم هذا العدد السكبير من الأحباش السهد •

وتأخر سليمان بسبب المراسم التي لا تنتهى ، وكان على وشك الانتهاء من ارتداء لباس يخلب الألباب وانتزاع نفسه من أيدى الوصفاء المختصين بلبسه حين هبطت بلقيس على عتبة القصر ودخلت اليه بعدد أن حيت الشمس الزاهية التي كانت قد ارتفعت فوق جبال الجليل .

واستقبل الأمناء الملكة وهم يرتدون غطاء رأس على شكل أبراج وقد تسلحوا بعصى طويلة مذهبة وأدخلوها أخيرا الى القاعة التى كان يجلس فيها سليمان بن داود وسط رجال بلاطه على عرش مرتفع وقد سارع بالنزول منه ببطء وئيد ليستقبل الزائرة العظيمة .

وتبادل الملكان تحية يحفها كل الاجلال والتكريم اللذين يمارسهما الملوك ويحلو لهم أن يوحوا بهما نحو جلال الملك • ثم جلسا جنبا الى جنب بينما أخذ العبيد يمرون صفا وقد حملوا الهدايا التي أحضرتها ملكة سبأ: الذهب والقرفة والمر • ولا سيما البخور الذي كان مصدر تجارة كبيرة لليمن ، ثم انياب الافيال وأكياس العطر والأحجار الكريمة • وكذلك أهدت الملكة للملك مائة وعشرين مثقالا من الذهب النقى •

وكان سليمان في ذلك الوقت في سن الكهولة الا أن السعادة التي كانت تجعل أسارير وجهه دائما منبسطة قد ابعدت عنه التجاعيد والآثار الحزينة التي تتركها العواطف العميقة • كانت شفتاه براقتين وعيناه

فى مستوى رأسه تفصلهما أنف كبرج من العاج كما قال هو نفسك على لسان سلاميت (١) • وكان جبينه المنفرد كجبين الآله سيرابيس (٢) كانت ملامح وجهه هذه تدل على السلملام الدائم ، الذى تسببه تلك الطمأنينة التى لا توصف لملك راض عن عظمته الشلمصية كان سليمان يشبه تمثالا من الذهب له يدان وقناع من العاج •

وكان تاجه مصنوعا من الذهب وثيابه من الذهب وكان معطفه الأرجواني ، وهو هدية من حيرام أمير صور ، منسوجا فوق سلسلة من خيوط الذهب كان الذهب يضوى على حزامه وفوق مقبض سيفه وكان حذاؤه الذهبي يرقد فوق بساط موشى بالرسوم المذهبة وكان عرشه مصنوعا من الأرز المذهب •

وجلست ابنة الصباح البيضاء الى جواره وقد تدثرت بسحابة من منسوج الكتان والاقمشة الشفافة التى لا تشف عما تحتها بوضوح ، فكانت تبدو كرنبقة تائهة وسط باقة كثيفة من زهور السوسن ، كانت زينتها حذره وقد أخذت تبديها أكثر فأكثر وهى تعتذر عن بساطة ثيابها الصباحية. قائلة :

- ان الثياب البسيطة تناسب الثراء ولا تتنافى مع العظمة · فأجاب سليمان قائلا:
- \_ ان الجمال الالهى يناسبه أن يثق فى قوته ، أمــا الرجل الذى, يتحدى ضعفه فمن المناسب له ألا يهمل شيئا فى ملابسه .
- ـ يا للتواضع الرائع الذي يزيد من تألق سليمان الذي لا يقهر ٠٠٠ النبي الحكيم قاضى الملوك ومؤلف نشيد الانشاد الخالد وهو أنشودة الحب الحنون واغيره من زهور الشعر ٠٠

فقال سليمان وقد احمر وجهه من السرور:

\_ ماذا أيتها الملكة الجميلة ؟ هل تنازلت وألقيت نظرة على ٠٠٠ تلك المحاولات الضعيفة !

<sup>(</sup>۱) نشبید الانشاد ۰.۷ : «عنقك برج من العاج وانفك برج لبنان» ولكن في نشبد. الانشاد بوجه الزوج هذا الكلام لسلاميت وقد بدل جيراد هنا الاوضاع …

<sup>(</sup>٢) اله مصرى من عهد البطالة والعصر الروماني .

فصاحت ملكة سبأ قائلة:

\_ انك شاعر عظيم !

فنفخ سليمان صدره المذهب ورفع ذراعه المذهبة ومر بيده في رفق على ذقنه السوداء وقد قسمت في ضفائر عديدة تتخللها خيوط من الذهب. وكررت بلقيس قولها:

« شاعر عظيم! وهذا يغفر لك عن رضا هفوات الأدب المكشوف » •

وأطالت تلك الخاتمة غير المنتظرة خطوط وجه سليمان العظيم واحدثت حركة في صفوف رجال البلاط القريبين وكان من بينهم زابود المقرب للأمير والذي كان يرتدى ثيابا مرصعة بالاحجار الكريمة وصادوق الكاهن الكبير وابنه عزرياهو قهرمان القصر المتعالى على جميع من يعملون تحت امرته ، ثم أخياواليحورف كبير المستشارين ويهوشافاط رئيس السجل وهو شبه ااصم . ووقف أخيا ، وهو رجل أمين ، في ثياب قاتمة يخشى بأسه لقدرته على التنبؤ فوق أنه ساخر بارد وميال المسمت . وبالقرب من الأمير جلس القرفصاء ، وسط ثلاث وسائد متراصة ، باناياهو الشيخ ، القائد الأعلى المسالم لجيوش الملك الهادى مليمان ، وقد ثقل باناياهو بالسلاسل الذهبية والنياشين المرصعة بالاحجار الكريمة حتى كادت قامته تنحنى ذلك لأنه كان يعتبر في مجال الحبير أبياتار فقتلهما باناياهو بالخنجر ، ومنذ ذلك اليوم وجد سليمان الحكيم أنه جدير بكل ثقته فكلفه بقتل أخيه الأصغر الأمير أدونيا ابن الملك داود . . وقطع باناياهو رقبة شقيق سليمان الحكيم . (۱) .

أما اليوم فقد نام باناياهو وسط مظاهر عظمته وهدأت السنون من حدته وغدا شبه أبله يتبع البلاط في كل مكان وهو يكاد لا يسمع شميئا ويقضى بقية حياته المتداعية وهمو يسعد قلبه ببريق العظمة الذي تركه الملك يتألق فوقة • أن عينيه الباهتتين تبحثان بلاتوان عن عيني الملك • وهكذا تحول الفهد في آخر أيامه الى كلب •

ولما تركت بلقيس تلك الكلمات الفامزة تفلت من بين شهم الساحرتين فأصابت رجال البلاط بالذهول انفرد باناياهو الذى لم يفهم شيئا والذى اعتاد أن يرد على كل كلمة من كلمات الملك أو ضيفته

<sup>(1)</sup> جميع هذه الاسماء مشسقة من التوراة .

بصيحة أعجاب ، أنفرد وحده وسط الصمت العام ، بالصياح وهو يبتسم في سذاجة : يا للسحر ! يا للقداسة ! ·

وعض سليمان على شفتيه وتمتم بطريقة شبه مباشرة: «يا للأبله!» فرد بانياهو صائحا: وقد لاحظ أن سيده هو الذى تكلم: كلام جدير بأن تحفظه الذاكرة! وحينئذ انفجرت ملكة سبأ ضاحكة .

ثم انتهزت تلك المناسبة وسط دهشة الجميع بتوجيه ثلاث الحجيات الواحدة تلو الأخرى لكى يجد الها سليمان حلا بذكائه الذى طبقت شههرته الآفاق وكان يعتبر أمههر النهاس فى حل الأحاجى التى يتعبن فيها تفسير حروف كلمة ما حرفا حرفا ثم تكوين تلك الكلمة بعد ذلك . تلك كانت العادة فى ذلك الوقت . فبلاط الملوك الذى يهتم عادة بالعهم قد عدل عن ذلك عن طيب خاطر أصبح حل الأحاجى عملا من أعمال الدولة . فعلى هذا الأساس كان يختبر ذكاء الأمراء والحكماء.

وقد قطعت بلقيس مائتين وستين فرسخا لكي تضع سليمان تحت هذا الاختمار ·

وحل سليمان الا عاجى الشلاثة دون أى اهتزاز وذلك بفضل الكاهن الكبير صادوق الذى كان فى الليلة الماضية قد دفع ثمن حلها نقدا ، الى كبير كهان السبأيين . (١)

وقالت الملكة في شيء من التفخيم:

- \_ ان الحكمة تنطق بلسانك .
- ــ هذا على الأقل ما يدعيه الكثيرون •

ـ ومع ذلك أيها الملك النبيل سليمان فان زراعة شجرة الحكمة وتعهدها لا يخلو من أخطار . فقد يشغف المرء على طول الزمن بالتقريظ والمديح وبأن يكيل المديح للناس لتملقهم وأن ينحدر نحو المادية لكى يحصل على تأييد الجماهير . .

\_ هل لاحظت في مؤلفاتي أنني ...

\_\_ آه ياسيدى ! لقد قرأت مؤلفاتك بانتباه كبير . ولما كنت أرغب في مزيد من المعلومات فأن الخطة التي وضعتها لكي أقدم لك بعض

<sup>(</sup>۱) هذه الخدعة من تأليف جيراردى نرفال نفسه في محاولات مستمرة منه في الكشف عن أسراد شخصية سليمان الحكيم ٠

الاحاجي وبعض المتناقضات وبعض السفسطانيات بدافع من جهلى بلا شك ، تلك الخطة ليست غريبة على الهدف الذى من أجله قمت بهذه الرحلة الطويلة » .

فقال سليمان بشيء من الاعتداد ردا على تلك الغريمة التي يخشي باسها: « سوف نفعل ما في وسعنا » .

وكان في واقع الأمر يفضل أن يذهب بمفرده للنزهة تحت اشجار الجميز في منزله في ميلو و واشرأبت اعناف رجال البلاط لهذا المشهد المشير وتفتحت عيونهم و فاى وضع أسوا من أن يفقد سليمان شهرته كملك لا يخطى أمم رعاياه و وبدا صادوق متربصا وابتسم النبي اخيا ابتسامة غامضة باردة و أمام باناياهو فقد أبدى وهو يلهو بنياشينه سعادة بلهاء كانت تضفى مقدما ظلا من التهزىء على جانب الملك و فيما يختص بحاشية بلقيس فقد ظلت ساكنة لا تتحرك ولاذت بالصمت كما لو كانت تماثيل أبي الهول .

ولنضف الى الميزات التى كانت لملكة سببا جلال الآلهة وسمحر الجمال المسكر وجانب وجه آية في النقاء تتألق فيه عين سوداء كعين الغزال أبدع الخالق في شقها واطالتها حتى أنها كانت تبدو دائما لجميع من تنظر اليهم كما لو كانت من أمام الوجه لا من جانبه ، وكذلك فمن ميزاتها ذلك الفم التأنه بين الضحك والنشوة ، والجسد اللدن الذي تستطيع العين أن تحدس جماله من وراء الغلالة الرقيقة التي ترتديها ، ولتتصوروا كذلك ذلك التعبير الرقيق الساحر المتعالى الذي يتسم به الذين ينتمون الى الطبقة العليا للذين تعودوا السيطرة وحينئذ سوف تدركون الحيرة الذي وقع فيها السيد سليمان التائه بين الحرج والنشوة الذي كان بعقله يتأجج شوقا وان كان بقلبه قد سلم نصف تسليم ، كانت هاتان العينان الحوراوان الغامضتان الجميلتان الهادئتان النفاذتان وسط ذلك الوجه الوضاء كالبرونز حديث الصهر تصيبانه بالاضطراب رغما عنه ، كان يخيل اليه أن الذي يرى الى جواره هو وجه الالهية ايزيس المثالى الوقور (۱) ،

<sup>(</sup>۱) هذا التقريب بين بلقيس واپريس يدلنا على الاصل الذى استقى منه جيرار هذا الوصف ، انها المراة الام الحبيبة التى يلد لخيال نرفال الرومانسى أن يلتقى بها . والاضاءة فى هذه القصة مركزة عليها ولذا فهو يسخر من سليمان ويحاول اطفاء بريقه . ولنفس السبب غير نرفال الوقائع التاريخية التى تقول ان زيارة الملكة تمت بعد بناء المبد لا قبله .

وحينئذ بدات تلك المناقشات الفلسفية التي ذكرتها كتب العبرانيين حارة قوية .

واستطردت الملكة قائلة:

- « ألسب تعلم الناس الأثرة وغلظة القلب حين تقول :
« اذا كنت تعرف أن تجيب عن صديقك فقد وقعت في الفخ ؛ انزع

ثياب الذي يكرس نفسه لخدمة غيره . . » وفي مثل آخر تطرى قوة الذهب والثواء ·

- ولكنى في مكان آخر أمجد الفقر .

منذا تناقض • فان سفر الجامعة يحث الناس على العمل ويعير الكسرالي بكسلهم ولكنه في مكان آخر يصيح قائلا: « ما الذي سوف يجنيه الانسان من كل أعماله ؟ اليس من الافضل له أن يكتفى بالأكل والشرب؟ » وفي حكمك تندد بالفساد ولكنك تقرظه في سفر الجامعة •

- أظن أنك تستخرين . .

- كلا فانى أستند الى النصوص: « لقد عرفت أن ليس هناك أفضل من المتع والشراب وأن الصناعة ليست الا متاعب لا جدوى منها مادام الناس يموتون كما تموت السائمة ومصير كليهما واحد . » تلك هي مبادؤك الاخلاقية أيها الحكيم!

- ليست هذه الا أوجها من أوجه الكلام أما قلب النظرية ..

ـ اليك هو ... وقد عثر عليه غيرى من قبل للاسف: « متع نفسك بالعيش مع النساء في جميع أيام حياتك لأن ذلك هو نصيبك في العمل ألخ » وأنت تعود كثيرا إلى هذا النص ومن هنا استنتجت أنه من الملائم لك أن تحول شعبك إلى المادية حتى تتمكن من حكم العبيد باطمئنان .

وراى سليمان أن هذا القول يبرر سياسته ولكن بالاستناد الى حجم لم يكن يحب أن تعرض أمام شعبه · ولذا فقد اضطرب فوق عرشه ونفذ صبره .

واستمرت بلقيس قائلة بابتسامة صحبتها نظرة طويلة :

وأخيرا فأنت قاسى بالنسبة لجنسنا ، ومن هى المراة التى تجرؤ أن تقع في حب سليمان الوقور ؟

\_ ایه ایتها الملکة: ان قلبی قد انبسط کما ینتشر ندی الربیع فوق زهور عواطف الحب فی نشید الزوج! (۱)

ــ انه استثناء لابد أن سلاميت فخورة به . ولكنك أصبحت قاسيا مع تحملك لأعباء السنين ·

واوقف سليمان امتعاضة عابسة . وقالت الملكة : « اننى أتوقع بعض كلمات المجاملة المهذبة · حذار فسوف يسمعك مؤلف سفر الجامعة وأنت تعرف انه يقول : « ان المرأة أمر من الموت · ان قلبها فغ ويديها سلاسل · أما خادم الله فسوف يهرب منها الا أن الغافل هو الذي يقع في حبائلها · ماذا ! أتتبع مثل هذه الحكم المتزمتة ؟ أيسكون لسوء حظ بنات صهيون أن السماء قد منحتك ذلك الجمال الذي وصفته أنت نفسك باخلاص بهذه الكلمات :

« اننى زهرة الحقول وزنبقة الوديان! »

- أيتها الملكة ، ذلك وجه آخر من أوجه البلاغة ٠٠

- أيها الملك ، ذلك هو رأيى · لتتفضل بالتفكير في اعتراضاتى وتوضيح غموض حكمى ، ذلك لأن الخطأ من جانبى أما أنت فقد هنأت الحكمة لانها تكمن فيك .

ولقد كتبت تقول: « سوف يعرف الناس عمق فكرى وسوف يدهش أكثر الناس قوة حين يرونى وسوف يبدو اعجاب الائمراء على وجوههم . وحينما أصمت سوف ينتظرون منى الكلام . وحين أتكلم سوف ينظرون الى فى انتباه وحين أخطب فسيضعون أيديهم فوق أفواههم . » أيها الملك العظيم لقد شعرت فعلا بجزء من هذه الحقائق: لقد سحرنى فكرك وأدهشنى مظهرك ولا أشك فى أن وجهى يبدى لعينيك اعجابى ، أننى فى انتظار كلماتك فسوف تجدنى هذه الكلمات منتبهة وفى خلال حديثك سوف تضع خادمتك يدها على فمها (٢) ،

وقال سليمان وهو يرسل تنهيدة عميقة .

ـ سيدتى ، ماذا يكون الحكيم بالنسبة لك ؟ ان مؤلف سيفر

<sup>(</sup>۱) جزء من نشيد الانشاد .

<sup>(</sup>۲) مراجع هذا الوصف من التوراة هي : ۲ ، ۱۰،۱۱ ، ۱۰،۱۰ ، ۱۰،۱۶ ، ۲۰۰۲۲ ، ۲۰۰۲۲ ، ۲۰۰۲۲ ، ۲۰۰۲۲ ، ۲۰۰۲۲ ، ۲۰۰۲۲ ، ۲۰۰۲۲ ، ۲۰۰۲۲ .

الجامعة منذ أن استمع اليك لم يعد يجرؤ على تأييد الا فكرة واحدة من أفكاره يشعر بوزنها: «يا للغرور يا للغرور! ان كل شيء ليس الا غرورا!»

وأعجب الجميع برد الملك . وقالت الملكة في نفسها : للمتحذلق متحذلق ونصف . . آه لو استطعنا شفاءه من داء الكتابة . . فهو مع ذلك رقيق بشوش وما زال محتفظا بشبابه .

اما سليمان فبعد ان قدم هذه الاجابات اضطر الى تخليص شخصه من التحفظ الذى كثيرا ما فرضه عليه وقال للملكة بلقيس • « انك يا صاحبة الصفاء تملكين طائرا لست أعرف نوعه . »

والواقع أن كان ثمة سستة من صسفار الزنوج يرتدون الملابس القرمزية مكلفين برعاية هذا الطائر الذى لم يكن يفارق سيدته أبدا . وكان أحد هؤلاء الصبيان يضعه تحت قبضة يده وكانت أميرة سبأ كثيرا ما تنظر البه .

وأجابت الملكة قائلة: « نحن نسميه هدهدا . ويقال ان جده الثالث انذى عمر طويلا قد أحضره بعض سكان الملايو من بلاد بعيدة كانوا هم وحدهم يعرفونها أما نحن فنجهلها . انه حيوان جد مفيد للقيام بمهمات كثيرة للسكان وللجن » (١)

وانحنى سليمان ، دون أن يدرك تماما معنى هذا الشرح البسيط ، انحنى انحناءة ملك ينبغى أن يدرك كل شيء تماما ومد ابهامه وسبابته لمداعبة الطائر الهدهد • ولكن الطائر الذي قبل المداعبة رفض جهود سليمان في الامساك به •

وقالت الملكة : ان الهدهد شاعر وهو لذلك جدير بمحبتك · وهو مثلى قاس بعض الشيء وكثيرا ما يحاول كذلك أن يكون مهذبا · أتظنه قد تجرأ على الشك في صدق عاطفتك نحو سلاميت ؟

وأجاب سليمان : أيها الطائر الالهي كم تدهشني !

ـ لقد قال الهدهد يوما وهو ينقر جوانا ذهبيا : « ان هـذه المقطوعة الرعوية في نشيد الأنشاد رقيقة بكل تأكيد · ولكن الملك العظيم الذي

<sup>(</sup>۱) قصة الهدهد من أصل قرآنى (السورة ۲۷) ولكن القرآن يلاكر أنه طسائر سليمان ولابد أنه شغل مكانا كبيرا فى خيال جيراد فتصور هذه القصة وقلب الاوضساع بهذه الصورة ، وهو هنا رمز للاعتراف بالجميل ١٠

يوجه هذه الأنشودة الحزينة الشاكية الى زوجته ابنة فرعون ألم يكن يظهر لها مزيدا من الحب لو عاش معها عما أظهر لها وقد اضطرها الى العيش بعيدا عنه في مدينة داود فاضطرت الى تسلية أيام شبابها المهجور بقرض مقاطيع الشعر ٠٠٠ أجمل مقاطيع في العالم قطعا ؟

\_ كم من الآلام تعودين فتصورينها لذاكرتي ! يا للأسف ان فتاة الليل هذه كانت من أتباع عقيدة ايزيس ٠٠٠ أفكنت أستطيع ، دون أن أرتكب جرما ، أن أسمح لها بدخول المدينة المقدسة وأن أجعل منها جارة لخزينة الله وأن أقربها من هذا المعبد العظيم الذي أقيمه لاله آبائي ؟

قالت بلقيس مبدية ملاحظة صحيحة:

ــ ان مثل هذا الموضوع دقيق ، فلتقبل عذر الهدهد فان الطيور أحيانا ماتكون هوجاء ، وطائرى يدعى العلم خصوصا في مجال الشمعر ،

فصاح سليمان بن داود قائلا:

ــ حقا ! سوف يهمني معرفة ٠٠٠

- انها مشادات قاسية يا مولاى ، أقسم لك أنها سوف تكون قاسية ! فأن الهدهد يعيب عليك أنك قارنت بين جمال حبيبتك وجمال خيول مركبة الفراعنة ، وشبهت اسمها بالزيت المسكوب وشعرها بقطعان الماعز وأسنانها بنعاج عشر قد جز صوفها ، وخديها بنصف رمانة وثدييها بعنزتين صغيرتين ورأسها بجبل الكرمل وسرتها بكأس يجد المرء فيه دالمًا بعض الشراب وبطنها بكومة من الدقيق وأنفها ببرج لبنان المتجه نحو دمشق .

وخدشت هذه الملاحظة كرامة سليمان فأسقط ذراعيه الذهبيتين على ذراعي مقعده الذهبيتين كذلك بينما أخذ الطائر يضرب الهواء بجناحيه المكسوين بريش من الذهب والميناء الخضراء ٠ وقال سليمان :

- سوف أرد على الطائر الذى يحسن خدمة ميولك الساخرة بأن النوق الشرقى يبيح هـذه المسموحات وأن الشعر الحق يفضـل هـذه التشبيهات وبأن شعبى يجد أشعارى رائعة ويتذوق الاستعارات السخية ويفضلها ٠٠٠

فاستطردت ملكة سبأ قائلة:

ليس ثمة ما هو أشد خطرا على الأمم من استعارات الملوك فان هذه الأوجه البلاغية وقد خرجت على الأسلوب الوقور الجليل ، وربما تكون تتسم بالجرأة ، قد تجد من المقلدين أكثر مما تجد من النقاد ، وهكذا ربما أدت نزواتك السامية الى افساد ذوق الشعراء طوال عشرة آلاف عام ، ألم تشبه سلاميت ، تحت تأثير دروسك ، شعرك بسعف النخل وشفتيك بكئوس تقطر صبرا وقامتك بقامة الأرز وساقيك بأعمدة من المرمر وخديك يا مولاى بأحواض صغيرة من الزهور عبقة الرائحة زرعها تجار العطور ؟ وهكذا فان الملك سليمان يبدو لى وكأنه رواق ذى أعمدة تحيط به حديقة نباتات معلقة فوق سطح تظلله أشجار النخيل .

وابتسم سليمان بشيء من المرارة • ولو طاوعته نفسه للوى عنق القنبرة التي كانت تنقر صدره في مكان القلب باصرار عجيب •

وقالت الملكة : ان الهدهد يلح في أن يبين لك أن مصدر الشسعر يكمن هنا ·

فأجاب الملك قائلا: انى لأشعر بذلك جيدا منذ أن أتيحت لى الفرصة السعيدة لتأملك • لنكف عن هذا الحديث • هـل تقبل ملكتى تشريف خادمها المتواضع بزيارة أورشليم وقصرى وخصوصا المعبد الذى أقيمه للرب فوق جبل صهيون ؟

ـ لقد رن صدى هـذه العجائب في العالم · ولا يعـادل روعتها الا شوقي لرؤيتها ولذا فلا ينبغي تأخير السعادة التي منيت بها نفسي ·

وكان على رأس الموكب الذى أخذ يجوب شوارع أورشليم ببطء اثنان وأربعون من قارعى الطبول الذين كانت ضرباتهم تشبه صوت الرعد ويليهم الموسيقيون بملابسهم البيضاء يقودهم آصاف واديثم ثم ستة وخمسون من الصناجة وثمانية وعشرون من عازفى الناى ومثلها من عازفى الآلات الوترية والقيشارة ونافخى الأبواق تلك الآلات التى انتشرت فيما مضى حين استعملها جدعون تحت أسوار اريحا ثم تأتى بعد ذلك ثلاثة صفوف من الشمامسة الذين كانوا يمسون الهوينى وهم يؤرجحون مباخرهم فى الهواء وقد انبعثت منها عطور اليمن أما سليمان وبلقيس فقد تهاديا فى عربة فسيحة يحملها سبعون من الفلسطينيين من أسرى الحرب .

وانتهت الجلسة وتفرق القوم وهم يتحدثون عن مختلف حموادث القصة وكان موعدنا هو اليوم التالى ·

## ٣ - بيت الرب

واستأنف الراوى قصته قائلا:

كان سليمان العظيم قد أعاد بناء المدينة منذ قليل وفق خطة لا غبار عليها : فكانت الشوارع مستقيمة والبيوت مربعة وكلها متشابهة ، كانت كالخلايا ذات مظهر رتيب .

وقالت الملكة: في هذه الشوارع الجميلة الفسيحة لابد أن نسيم البحر الذي لا يعوقه شيء يطيح بالمارة كما لو كانوا من القش كما أنه في أوقات الحرارة الشديدة لابد أن الشمس التي تغرق هذه الشوارع دون عائق تلهبهم بحرارة كحرارة الأفران · أما في مأرب فان الشوارع ضيقة وتوجد بين كل بيت وآخر قطع من القماش نشرت على عكس اتجاه الطريق العام فتجذب النسيم وتنشر الظلال على الأرض وتحتفظ بالفيء ·

فأجاب سليمان :

انكم بذلك تضحون بالتوازن الفنى · هانحن قد وصلنا الى رواق قصرى الجديد الذي استغرق بناؤه ثلاثة عشر عاما ·

وزارت ملكة سبأ القصر وأبدت اعجابها به ووجدته فخما مريحاً طريفا ويتميز بذوق رائع ٠

وقالت الملكة:

« ان خطته رائعة ونظامه خليق بالاعجاب وأعترف أن قصر أجدادى الحميريين المشيد على الطراز الهندى بأعمدة مربعة تزينها وجوه بدلا من

رءوس الأعمدة لايضا هي هذه المتانة وهذه الأناقة ١ ان مهندسك فنأن عظيم ٠

فصاح سليمان في فخر:

ـ انني أنا الذي أصدرت جميع الأوامر ووجهت جميع العمال •

\_ ولكن التفصيلات الهندسية من الذي رسمها ؟ من هو هذا العبقرى الذي عرف كيف ينفذ خططك بكل هذا السمو ·

ــ انه شخص یدعی أدونیرام ، وهو شخص غریب شبه وحش نفور أرسله لی صدیقی ملك صور ·

- ألا أستطيع رؤيته يا مولاى ؟

- انه يتجنب الناس ويهرب من المديح · ولكن ماذا ستقولين أيتها الملكة حين تجربين بيت الرب ؛ انه ليس من عمل أى صانع فأنا الذى أمليت الخطط واخترت مواد البناء التي ينبغي استعمالها · ولقد كانت آراء أودنيرام محدودة أمام خيالي الشاعرى ·

والعمل جار في هذا البيت منذ خمس سينوات وهو يحتاج الى عامين آخرين لكي يصل الى درجة الكمال ·

ـ ان سبع سنوات تكفيك اذن لاقامة الهك في مكان جدير به في حن أنك احتجت لثلاثة عشر عاما لاقامة عبده ؟

قال سليمان معترضا:

ــ ان الزمن لا دخل له في الموضوع ٠

وبقدر ما أعجبت بلقيس بالقصر انتقدت بيت الرب فقالت :

\_ لقد أردت عمل شيء عظيم ولذا فقد حصل الفنان على حرية أقل · ان المشهد العام ثقيل بعض الشيء رغم أنه غاص بالتفاصيل · · وقد أفرط في استعمال الخشب ، خشب الأرز ، في كل مكان والأعمدة الحشبية بارزة · · · والجوانب السفلي المغطاه بالحشب تبدو كما لو كانت تحمل الضغوط العليا للأحجار مما يشكك في صلابة البناء · ·

واعترض الأمير قائلا :

\_ ان هدفي كان الاعداد للروائع الداخلية بالنقيض البارز ٠

فصاحت الملكة وقد وصلت الى السور الخارجي :

\_ یا الهی ! ما أروع هذه المنحوتات ! تلك تماثیل رائعة تمثل حیوانات غریبة ذات مظهر مهیب من ذا الذی صهر ونقش هذه العجائب ؟

ـ انه أودنرام فالنحت أهم نواحي عبقريته ٠

- ان عبقريته واضحة في كل شيء · الا تماثيل الملائكة الأطفال هذه ثقيلة فانها جدا كما أنها شديدة التذهيب كبيرة الحجم بالنسبة لهذه القاعة التي تكاد تهدمها ·

ـ لقد أردت ذلك وقد كلفنى كل منهما ستة وعشرين درهما كما ترين أيتها الملكة! ان كل شيء هنا من الذهب والذهب هو أثمن ما في الوجود والملائكة الأطفال من الذهب والأعمدة من الأرز ، وهي هدية من صديقي الملك حيرام ، قد غطيت برقائق من الذهب ويوجد ذهب على جميع الأعمدة وعلى هذه الجدران المذهبة سوف يوضع نخيل من الذهب وافريز برماناتمن الذهب الخالص ، وعلى طول الحواجز الذهبية سوف أعلق مائتى درع من الذهب النقى ، وكذلك فسوف تغطى الهياكل والموائد والشمعدانات وأوانى الزهور والأرضيات والأسقف جميعا برقائق من الذهب . . . .

واعترضت الملكة قائله في بساطة :

يبدو لي أن هذا الذهب كثير ٠

واستطرد الملك سليمان قائلا:

- « هل هناك ما هو أكثر روعة بالنسبة لملك الناس ؟ »

اننى شديد الرغبة في ادهاش الأجيال القادمة ٠٠٠ ولكن لندخل الى قدس الأقداس الذى لم يرفع سيقفه بعيد حيث وضيع أسياس البيت في مواجهة عرشي الذي أوشك أن يتم • وكما ترين توجد ست درجات وقد صنع الكرسي من العاج ويحمله أسدان جلس تحت أقدامهما أثنا عشر شبلا • ولا زال التذهب في حاجة الى اللون البني ونحن في انتظار رفع المظلة • تفضلي أيتها الأميرة الجليلة بأن تكوني أول الجالسين على هذا العرش الذي لم يسبق أن جلس عليه أحد • ومن هنا تستطيعين التفتيش على الأعمال في مجموعها ولو أنك سوف تتعرضين للشمس لأن اللواق مازال بلا سقف •

وابتسمت الأميرة وأمسكت بالهدهد فوق قبضة يدها حينما أخذ رجال البلاط يتأملونه في حب استطلاع شديد •

وليس ثمة طائر أكثر شهرة ولا احتراما في الشرق كله ٠

ولا يستمد هذا من دقة منقاره الاسود الطويل ولا من خديه الحمراوين ولا من رقة عينيه الرماديتين كالبندق ولا من التاج المكون من ريشات ذهبية صغيرة الذي يتوج رأسه الجميل ، وكذلك فان ذلك لا يستمد من ذيله الطويل الاسود الذي يشبه القهرمان الأسود ولا من البريق الاخضر الذهبي لجناحيه اللذين يعلوهما خطوط « وفرنشية » من الذهب البراق ، ولا من مخالبه الخلفية الوردية ولا قدميه القرمزيتين ، ليس لهذا كله تمتع الهدهد اللماح باعجاب الملكة وحاشيتها ، كانت هذه القنبرة جميلة دون أن تعرف ذلك وفية لسيدتها ودودة لكل من يحبها ولذا فكانت تتألق بسيصر رائع دون محاولة منها لاجتذاب الاعجاب ، وقد رأينا كيف تستشير الملكة هذا الطائر كلما أشكل أمر ،

وقد أراد سليمان اجتذاب ود الهدهد ولذا فقد حاول في هذه اللحظة الامساك به على قبضة يده الا أن الهدهد قاوم هذه الرغية في وابتسمت بلقيس برقة واستدعت اليها طائرها المفضل وأسرت اليه ببعض كلمات بصوت خافت ٠٠ وسرعان ما اندفع الطائر كالرمح واختفى في الأفق الأزرق ٠

ثم جلست الملكة واصطف الجميع حولها وأخذوا يتحدثون لبعض الوقت وشرح الأمير لضيفته مشروع بحر الحديد الذى وضعه ادونيرام فاستشف الاعجاب بملكة سبأ وألحت من جديد في أن يقدم اليها هذا الرجل وبناء على أمر الملك أخذوا يبحثون في كل مكان عن الفنان المكتئب أدونيرام والمكتئب أدونيرام والمكتفيران والمكتفيران

وبينما كان الناس يغهون الى ورش الحدادة ويبحثون عنه بين الا بنية أجلست بلقيس ملك أورشليم بالقرب منها وسألته عن الطريقة التي سوف يزخرف بها الجناح الخاص بعرشه •

وأجاب سليمان :

« سىوف يزخرف كبقية أجزاء بيت الرب » •

فقالت الملكة:

« ألا تخشى أن تبدو بتفضيلك للذهب كما لو كنت تنتقد بقية المواد التي خلقها الله ؟ وهل تظن أن ليس في الوجود ما هو أجمل من هذا

المعدن ؟ ولتسمح لى أن أضيف الى خطتك بعض التغيير ٠٠ وسوف المحكم أنت بنفسك عليه » ٠

وفجأة أظلم الجو وغطت السماء نقط سوداء أخذت تكبر وتقترب بعضها من بعض ، انها غمامات من الطيور أخذت ترفرف فوق بيت الرب وتتجمع وتهبط دائريا وتتزاحم على بعضها البعض ثم تتوزع كما لو كانت أوراق شجر رائعة تهتز ، كانت أجنحتها المفرودة تكون باقات سخية من ذات ألوان خضراء وقرمزية وسوداء وزرقاء ، وهكذا انفرد هذا السرادق الحي تحت القيادة الماهرة للقنبرة التي كانت تطير وسط هذه الجموع المجنحة ، وتكونت شجرة رائعة فوق رأسي الأميرين أصبح فيها كل طير يمشل ورقة ، وذهل سليمان وانتشي طربا اذ وجد نفسه في حمي من الشمس تحت هذا السقف الحي الذي ينبص ويتماسك بأن يضرب بأجنحته ويلقي على العرش ظلا كثيفا ينبعث منه أنغام رقيقة من أغاريد الطيور ، وبعد ذلك أتت القنبرة التي كان الملك مازال يحمل لها بعض الموجدة ، أتت لتحط في خضوع تحت أقدام الملكة ،

وسألت بلقيس الملك قائله:

ــ مارأى مولاى فى ذلك ؟

وصاح سليمان وهو يحاول جذب القنبرة التي ظلت مبتعدة عنه في اصرار يدل على نية لم يفتها أن تثير انتباه الملكة ، صاح قائلا :

- رائع !

وأردفت الملكة قائلة :

- اذا كانت هذه الفكرة قد حظيت باعجابك فاني أتشرف باهدائك هذا السرادق الصغير من الطيور بشرط أن تعفيني من طلائها بالذهب ويكفيك أن تدير فص هـذا الخاتم الى اتجاه الشـمس حين يحلو لك أن تدعوها اليك ٠٠٠ ان هذا الخاتم ثمين وقد ورثته عن أجدادي سوف تنهرني ساراهيل (١) مرضعتي حين تعلم أنني قد أهديته اليك ٠

وصاح سليمان وهو يركع أمامها :

- ايه أيتها الملكة العظيمة! انك لجديرة بأن تحكمي الرجال والملوك والعناصر · ولتساعدني السماء وما تتسمين به من طيبة قلب على حملك

على قبول نصف عرش لن تجدى فيه تحت قدميك الا أكثر رعاياك خضوعا! »

ففالت بلقيس:

\_ « ان عرضك هذا فخر لى وسوف نتحدث عنه فيما بعد »

وهبط الاثنان من فوق العرش ومن ورائهما يتبعهما موكب الطيور الذى أخذ يتبعهما كالمظلة وهو يرسم على رأسيهما أشكالا مختلفة من الزخارف •

وحين الفيانفسيهما بالقرب من المكان الذى أرسى فيه أساس الهيكل لاحظت الملكة جذرا كبيرا لشجرة كرم انتزع من الأرض وألقى به جانبا وبدأ الشرود على وجهها وأتت بحركة تنم عن الدهشة وأرسلت القنبرة صيحات ألم وهربت غمامة الطيور مطلقة لأجنحتها العنان وتحولت نظرة بلقيس الى القسوة وبدت قامتها أكثر ارتفاعا » وقالت بصوت جاد متنبىء:

ــ يا لجهل الناس وخفتهم! يا لتفاهة الغرور! ٠٠ لقد بنيت مجدك على قبر آبائك ١٠٠ ن جذر الكرم هذا ، هذا الخسب المبجل ٠٠٠

ــ لقد كان يضايقنا أيتها الملكة · ولقد انتزع ليحل محله نوع من المرمر وخشب الزيتون سوف تزينه أربعة أسرفة (١) من الذهب

ـ لقد ارتكبت منكرا وحطمت أول نبت كرم عرفته البشرية ، وقد غرسته فيما مضى يد أبى الجنس السامى ، يد نبى الله نوح ·

وأجاب سليمان وقد استبد به الخجل:

ـ أهذا ممكن ؟ وكيف عرفت ذلك ؟

بدلا من الاعتقاد بأن العظمة هي مصدر العلم رأيت عكس ذلك أيها الملك ! ولقد اتخذت من الدراسة دينا محببا ٠٠ واسمع كذلك أيها الرجل الذي أعمته عظمته الجوفاء : ان هذا الخشب الذي حكم عليه كفرك بالموت هل تعلم أي مصير خصته به القوة الخالدة ؟

\_ تكلمى

لقد خصص لصنع آلة تعذيب سوف يصلب عليها آخر أمير من حسك ٠

<sup>(</sup>١) جمع ساروف وهو ملك من الطبقة الاولى من الملائكة .

- لينشر اذن هذا الخشب اللعين الى قطع صغيرة وليتحول الى رماد!

الله ؟ وأى نجاح ستحققه حكمتك اذا حلت محل الارادة الالهية ؟ لتخر ساجدا أمام القرارات التي لا يستطيع عقلك المادى النفاذ اليها : ان هذا التعذيب الذى تفرضه على نفسك هو وحده الكفيل بانقاذ اسمك من النسيان وهو وحده الذى يجعل هالة من نور المجد الخالد تتألق فوق بيتك ٠٠»

وحاول سليمان العظيم عبثا اخفاءاضطرابه تحت مظهر من الاستهزاء والسخرية حينقدم اليه أناس يعلنون أنهم عثروا أخيراعلي المثال أدونيرام،

وما لبث أودنيرام تتبعه صبيحات الجموع أن ظهر في مدخل البيت وكان بنوني يصحب أستاذه وصديقه الذي كان يتقدم وقد توهجت عيناه وبدا القلق على وجهه وشاعت الفوضي في مظهره كفنان انتزع فجأة من اليحاءاته وأعماله • ولم يكن ثمة أثر لحب الاستطلاع يضعف التعبير القوى النبيل لملامح هذا الرجل الذي ينبعث تأثيره الأقوى من الطابع الجاد الجسور المسيطر لسمات وجهه الجميلة لا من بنيان جسمه الكبير •

وتوقف فى ارتياح وفخر على بعد خطواط من بلقيس وهو لا يشعر لا بعدم الكلفة ولا بازدراء · ولم تستطع بلقيس أن تتحمل نظرته الحادة دون الشعور ببعض الحياء والاضطراب ·

ولكنها مالبثت أن تغلبت على هذا الاضطراب اللا ارادى · واعادها التفكير السريع في حالة هذا العامل الأصيل الماثل أمامها بذراعيه العاريتين وصدره المكشوف الى نفسها · وابتسمت لما بدا عليه من حيرة وقد ازدهت لشعورهما بأنها مازالت شابة ، وتنازلت بالحديث الى هذا الصانع ·

وأجاب أودنيرام وأثر صوته في الملكة كما لو كان صدى لذكرى شاردة • ومع ذلك فلم تعرفه ولم تره من قبل قط •

تلك هي قوة العبقرية التي تعبر فيها جمال النفوس · فالنفوس تتعلق بها ولا تستطيع عنها سلوا · لقد أنسى حديث أدونيرام أنسى ملكه سبأ كل ما يحيط بها · وبينا كان الفنان يريها الانشاءات التي كان يقوم بها وهو يسير في خطى وثيدة كانت بلقيس تتبع في غفلة منها حركته الدافعة كما كان الملك والحاشيه يتبعون آثار خطى تلك الملكة السياحرة ·

ولم تتعب هذه الأخيرة من القاء الأسملة الواحد تلو الآخر الى أدونيرام حول أعماله الفنية وبلده ومولده ٠٠٠

وأجاب أدونيرام بشىء من الحرج وهو يرسل اليها نظراته النفاذه: لقد جبت بلادا كثيرة وان وطنى يوجد فى كل مكان تضيئه الشمس ولقد قضيت سنى حياتى الأولى فى السفوح الشاسعة لجبل لبنان حيث تلمح من بعيد مدينة دمشق فى قلب السهل لقد نحتت الطبيعة والناس هذه الأقطار الجبلية التى تبرز فيها الصخور المهددة والأطلال .

وقالت الملكة ملاحظة:

ــ ان أسرار هذه الفنون التي تتقنها لا يتعلمها المرء مطلقا في هذه الصحاري .

- ان فيها على الأقل يرتفع الفكر وتتنبه المخيلة • ولطول ما ينغمس المرء في الاستغراق يتعلم كيف يبتكر • ان أستاذي الأول كأن الوحدة • ولقد طبقت تعاليم هذا الاستاذ فيما بعد في أستفارى • وقد أدرت أنظارى نحو ذكريات الماضي وتأملت الآثار وهربت من مجتمع الناس • •

\_ ولماذا أيها الائستاذ ؟

- ان الانسان لا يشعر بأى متعة في رفقة أمثاله ٠٠٠ ولقد كنت بينهم أشعر أنني وحدى ٠

وتأثرت الملكة بهذا الخليط من الحزن والعظمة فغضـــت أنظارها ولاذت بالصمت ٠

وأردف أدونيرام قائلا :

وكما ترين فان فضلى فى ممارسة الفنون ليس كبيرا ، فان تعلم هذا الفن لم يكلفنى أى جهد • وقد عثرت على أصول تماثيلى فى الصحارى ، وكنت أصور الانطباعات التى تلقيتها من هذه المخلفات المجهولة ومن الوجوه المروعة الضخمة لآلهة العالم القديم •

وقاطعه سليمان قائلا في حزم لم تشهده الملكة عليه حتى الآن:

ــ لقد لاحظت عليك أكثر من مرة أيها الأستاذ اتجاها الى الوثنية ، ذلك الايمان القوى بآثار ديانة غير طاهرة · احتفظ بأفكارك لنفسك ولا تدع شيئا منها يسطر للملك على البرونز أو الأحجار ·

وقتل أدونيرم وهو ينحني ابتسامة مريرة كانت تراوده ٠

وقالت الملكة مواسية أدونيرام:

ـ ان أفكار الأستاذ يا مولاى ترتفع دون شك فوق الاعتبارات الكفيلة باقلاق ايمان اللاويين (١) ٠٠٠ وان نفس الفنان فيه تقول ان الجمال يبدى عظمة الله، وهو يبحث عن الجمال في ايمان برى، ٠

وقال أدونيرام:

\_ وهل أعلم أنا ماذا كانت هذه الآلهة في أزمنتها ، هذه الآلهة التي انطفأت وتحجرت بفعل الجن فيما مضى ؟ ومن ذا الذي يفكر في هذا ؟ لقد طلب منى سليمان ملك الملوك أن أفعل المعجزات وكان لابد لى من أن أنذكر أن اجداد العالم قد خلقوا المعجزات .

وقالت الملكة في حماس:

اذا كانت أعمالك الفنية جميلة وسامية فستكون أرثوذكسية (٢)
 وسوف تنقلها عنك الأجيال القادمة لتكون أرثوذكسية بدورها

- أيتها الملكة العظيمة ، العظيمة حقا ، ان ذكاءك خالص كجمالك ٠ وسارعت بلقيس بمقاطعته قائلة :
  - ـ لقد كانت هذه المخلقات عديدة اذن على سفح لبنان ؟
- \_ كانت ثمة مدن بأكملها مطمورة في كفن من الرمال التي تثيرها الرياح حينا وتهبط بها حينا آخر ، ثم كانت ثمة آثار تحت الأرض تتسم باتقان يفوق قوة البشر ولا يعلم سواى عنها شيئا ، كنت أعمل من أجل طيور الهواء ونجوم السماء فكنت أجوب الآفاق وأنا أخط أشكالا فوق الصخور .
- ـ ثم أنحتها في مكانها بدقة وأحكام · وذات يوم · · · ولكن الا أسىء إستغلال صبر مستمعى العظيمين ؟
  - \_ كلا فان هذه القصص تأسرني ٠
- ـ لقد اهتزت الأرض بضربات مطرقتى التى كانت تغمد سلاحها فى أحشاء الصخر وكانت تبدو تحت أقدامى رنانة جوفاء ولما كنت أحمل رافعة فقد دحرجت الكتلة الصخرية التى كشفت عن مدخل غار

(٢) أي متمشية مع الدين .

**أي** اليهود

<sup>(</sup>۱) اللين ينتمون الى سبط (قبيلة) لادى

سارعت بالاندفاع اليه · لقد كان منحوتا في الصخر الحي ومحملا على أعمدة ضخمة مثقله بالبروز والرسوم الغريبة ·

وكانت أعالى الأعمدة بمشابة جذور لثنايا أكشر القباب دقة في التنفيذ وخلال أقواس اعمدة هذه الغابة الحجرية انتشرت جوقات من الوجوه المتنوعة الهائلة الحجم كانت تقف ساكنة بلا حراك وهي تبتسم منذ آلاف السنين وكان مرآها يملؤني بالرعب المذهل وكانت تمثل رجالا وعمالقة اختفوا من عالمنا وحيوانات رمزية تنتمي الى سلالات انقرضت وباختصار كان بها كل ما تحلم به مخيلة تهذي وكل ما تستطيع بالكاد أن تتصوره من روائع! وولا عشت ثمة أشهرا بل وسنوات أسائل هذه الأشباح الباقية من عالم انقضي وهناك تلقيت تقاليد فني وسط هذه الروائع للعبقرية البدائيه وهناك تلقيت تقاليد فني وسط هذه

#### وقال سليمان وهو شارد الذهن:

لقد وصلت شهرة هذه الأعمال الفنية التى لا تحمل اسما الينا ويقال أن هناك في الأقطار التى حلت عليها اللعنة تبرز بقايا المدينة الفاسقة التى غمرتها مياه الطوفان وآثار المجرمة هينوشيا ١٠ التى بنتها سلالة طوبال (١) العملاقة ١ انها مدينة أبناء قابيل ١ لتحل اللعنة على هذا الفن القائم على الكفر والظلمات! ان معبدنا الجديد يعكس أضواء الشمس ، وخطوطه بسيطه نقية ويترجم نظام خطته ووحدتها استقامة عقيدتنا التى تصل حتى الى طراز هذه البيوت التى أقيمها للاله الخالد ٠ تلك هي ارادتنا ، انها ارادة الله الذي نقلها الى أبى ٠

وصاح أدونيرام بصوت مستوحش:

\_ لقد اتبعنا خططك في جملتها ، وسموف يتعرف الله فيهما على طاعتك له • وقد أردت فيما عدا ذلك أن يدهش العالم لعظمتك •

\_ أيها الرجل الماهر الدقيق ، إنك لن تحاول قط المساس بمولاك ومليكك ، انك لهذا الغرض قد ذوبت سبائك هذه المسخ التى تثير الاعجاب والارتياع ، هذه الأوثان العملاقة الثائرة ضد جميع الصور التى أقرتها الشعائر العبرانية ، ولكن خذ حذرك فان قوة ادوناى معى وسوف تحيل قدرتى الغاضبة ستحيل « بعل » ترابا ،

<sup>(</sup>۱) الذي اكتشيف فن صناعة الحديد .

واردفت ملكة سبا قائلة في رقة:

- "كن متسامحا أيها الملك نحو صانع الأثر الذى سيوف يخلد عظمتك ، فالقرون تمر والمصير البشرى يكمل تقدمه طبقا لارادة الخالق ، فهل ينكر المرء الله حين يفسر أعماله بمزيد من السمو ؟ وهل يتحتم على الفنان أن يظل إلى الابد يصور الوجوه الدينبة الباردة التي لا حياة فيها التي نقلها الينا المصريون ونترك التمثال الذي يختفي لمنتصفه في قبره الجرانيتي الذي لا يستطيع منه فكاكا ونصور عبقريات راسمة في العبودية قد ارتبطت إلى الأحجار بالسلاسل ؟ ينبغي لنا أيها الأمير العظيم أن تخشى وثنية الروتين كأداة نفي خطرة » .

وقد استاء سليمان لمعارضتها اياه الا أن ابتسامة الملكة الساحرة قد أخضعته فتركها توجه مجاملاتها الحارة الى الرجل العبقرى الذى يعجب به عو نفسه ، بشىء من الحقد ، والذى كان يتلقى مدائحها بنشوة جديدة كل الجدة وهو الذى كان فى العادة لا يأبه للمدح .

وكانت الشخصيات العظيمة الثلاث قد وصلت الى الرواق الخارجي للمعبد المشيد على هضبة مرتفعة ذات زوايا أربع يشرف المرء منها على ريف شاسع تتخلله الكثير من المرتفعات وكانت ثمة جموع غفيرة تغطى من بعيد الريف ومشارف المدينة التي شيدها داود فقد احتشد الشعب على مشارف القصر والمعبد ليرى ملكة سبأ ويعجب بها من قريب أو من بعيد وكان عمال البناء قد غادروا محاجر جلبعا والنجارون قد أخلوا الورش البعيدة وصعد عمال المناجم الى سطح الأرض ان صيحة الشهرة وهي تمر على الجهات المجاورة قد حركت سكانها العمال وجعلتهم يتجهون نحو مركز أعمالهم و

لقد كانوا هنا اذن جموعا مختلطة من النسساء والأطفال والجنود والمتجار والعمال والعبيد والمواطنين الميسورين في أورشليم · كانت السهول والوديان لا تكاد تكفى هذه الجمهرة الشاسعة · وامتدت عين الملكة في دهشة الى أبعد من مسافة ميل على هذه الفسيفساء المكونة من الرءوس البشرية والتي تتدرج حتى قمة الأفق · وكانت السحب التي تحجب هنا وهناك الشمس التي تغرق هذا المشهد تلقى على هذا البحر الحي بعض غطاءات من الظل ·

وقالت الملكة بلقيس:

« ان شعوبك أكثر عددا من حبات رمل البحر ٠٠٠

ــ ثمة أناس من جميع البلدان وقد هرعوا لرؤيتك · ومما يدهشنى ألا يهرع العالم كله اليوم ليحف بأورشليم! لقد هجر الناس الريف بفضلك وأصبحت المدينة خاوية · حتى عمال الأستاذ أورنيرام الذين لا يدركهم التعب · · ·

وقاطعته أميرة سبأ قائلة وهي تبحث في ذهنها عن طريق تكرم بها الفنان :

- حقا! أن مثل عمال أدونيرام يعتبرون أساتذة في بلاد أخرى • انهم جنود لهذا القائد « للميليشيا » الفنية • اننا نرغب يا أستاذ أدونيرام في استعراض عمالك وتهنئتهم وتوجيه الثناء اليك في حضورهم » •

ورفع سليمان الحكيم ذراعيه فوق رأسه في ذهول لدى سماعه لهذه الكلمات وصاح قائلا:

« كيف نجمع عمال بيت الرب وقد تفرقوا في الحفل وتشتتوا فوق التلال واختلطوا بالجماهير ؟ ان عددهم كبير جدا وعبثا نحاول أن نجمع في بضع ساعات كل هؤلاء الرجال وهم من بلاد مختلفة ويتكلمون لغات عديدة ابتداء من اللغهة السنسكريتية في جبال هيمالايا الى اللهجات الغامضة التي يتكلم بها أهل ليبيا .

وقال أدونيرام في بساطة :

ـ لا علیك من هذا یا مولای ! ان الملكة لا تطلب شـیئا مستحیلا و تكفینا بضع دقائق •

وبهذه الكلمات أسند أدونيرام ظهره على الباب الخارجي واتخذ لنفسه قاعدة من كتلة من الجرانيت قريبة واتجه نحو هذه الجموع الخفيرة فسرح بصره فوقها وأتى باشارة شحبت لها جميع أمواج هذا البحر لأنهم جميعا رفعوا وجوههم نحوه .

ولما كان الحرف آك يدل في هذه اللغات القديمة بسبب تجانسها مع الهيروعليفية على بعض ادوات مهنة البناء ، فقد كان هذا الحرف اشارة الى التجمع .

ولذا فلم يكد أدونيرام يخط هذا الحرف في الهواء حتى ظهرت حركة غريبة في جموع الشعب واهتز ذلك الخضم البشرى واضطرب وعلت الأفواج في اتجاعات مختلفة كما لو كانت زوبعة من الريح قد أشاعت فيه الاضطراب فجأة ولم يزد الأمر بادى ذي بدء عن ارتباك عام وجرى كل فرد في اتجاه مضاد وثم لم تلبث الجماعات أن تكونت وكبرت وتفرقت وحدثت فراغات وانتظمت جوقات وتراجع جزء من الجموع واصطف الخيش وتوزعوا في ثلاث كتل رئيسية تنقسم كل منها الى كتائب متميزة كثيفة وعميقة و

وبينما كان سليمان يحاول أن يستشف ذلك السلطان السحرى للفنان أدونيرام اهتز كل شيء و وتقدم مائة ألف رجل اصطفوا في لحظات تقدموا في صمت من ثلاث جهات في وقت واحد وأحدث وقع خطواتهم الثقيلة المنتظمة أصداء قوية في هذه الجهات •

وكان البناءون وكل من يعملون في الحجارة يظهرون في الوسسط وكان رؤساء العمال في الصف الأول يليهم العمال المتمرنون ثم العمال تحت التمرين والى اليمين وفي نفس التدرج المهني سار قاطعوا الأخشاب ثم النجارون والنشارون فنحاتو الحجارة والى اليسار سار صاهرو المعادن والنقاشون والحدادون وعمال المناجم وكل من يعملون في صناعة المعادن .

كان عددهم يزيد على مائة ألف صانع أخذوا يقتربون كما لو كانوا أمواجا عارمة تطغى على الشاطىء ·

وارتاع سليمان وتراجع خطوتين أو ثلاث ثم استدار ولم ير خلفه الا الموكب الضعيف البراق الذي يتكون من ربانية ورجال بلاطه ٠

أما أدونيرام فقد وقف في هدوء وصفاء بالقرب من الملكين · ومد ذراعه فتوقف كل شيء وانحني في خضوع أمام الملكة وقال :

« لقد تم تنفيذ أوامرك »

وأوشكت الملكة على الانحناء أمام تلك القدرة الخفية الهائلة وذلك لفرط ما بدا لها أدوندام ساميا في قوته وساطته .

ومع ذلك فقد تماسكت وباشارة من يدها حيث كتائب العمسال المجتمعة ، ثم نزعت من عنقها عقدا رائعا من اللؤلؤ تزينه مجموعة متألقة كالشمس من الأحجار الكريمة ويحف به مثلث من الذهب كزينة رمزية ، وبعت كما لو كانت تهديه لتلك الجماعات المهنية ، وتقدمت نحو أدونيرام الذي شعر وهو ينحني أمامها ، شعر وهو يرتعد بهذه الهبة الثمينة تسقط على كتفيه وصدره نصف العارى ،

وفى تلك اللحظة نفسها دوى هتاف كبير من أعماق الجموع ليرد على هذه اللفته الكريمة من قبل ملكة سبأ · وحينما كانت رأس الفنان قريبة من وجه الأميرة المتألق وصدرها النابض قالت له بصوت خفيض: « أيها الأستاذ ، اسهر على سلامتك وكن حذرا » ·

ورفع أدونيرام نحوها عينيه الكبيرتين المأخوذتين ودهشت بلقيس للرقة النفاذة التي تتسم بها تلك النظرة الفخورة ·

وتساءل سليمان وهو يحلم: « من يكون هذا الانسان الذي يسيطر على الناس كما تسيطر الملكة على الطير ؟ ١٠ ان اشارة من يده تخلق الجيوش ١٠ ان شعبى ملك له أما سلطاني فيقتصر على قطيع تافه من رجال البلاط والربانين ٠ وتكفى حركة من حاجبه ليصبح ملكا على اسرائيل » ٠

وحالت هذه المشاغل دون سليمان وملاحظة هيئة بلقيس وهي تتبع بنظراتها الرئيس الحقيقي لهاذه الأمة ، ملك الذكاء والعبقرية والحكم المسالم الصبور لمصائر شعب الله المختار .

وساد السكون على طريق العودة فقد تبين سليمان الحكيم وجود الشعب ٠٠ وهو الذى كان يظن أنه يعلم كل شيء ومع ذلك فلم يشعر قط بوجوده ٠ وهكذا ألفى نفسه قد ضرب في ساحة نظرياته الفلسفية وهزمته ملكة سبأ التي تحكم مملكة الطير وهزمه فنان يسيطر على الناس • وتنبأ صاحب سفر الجامعة بالمستقبل وأخذ يتأمل مصائر الملوك وهو يقول : « ان هؤلاء الصديقين الذين كانوا من قبل معلمين في وناصحين وأصحبحوا اليوم مكلفين بمهمة احاطتي علما بكل شيء قد اخفوا عنى كل شيء بل وأخفوا عنى جهلى • يا لثقة الملوك العمياء! يا لغرور المكمة! • • •

وبينما كانت الملكة هى الاخرى مستغرقة فى أحلامها عاد أدونيرام الى ورشته وقد استند دون كلفة على تلميذه بينونى وقد أسكره الحماس لجمال الملكة بلقيس وذكائها الذى لا مثيل له •

الا أن الفنان كان لائذا بالصمت أكثر من أى وقت مضى • لقد كان شاحبا مضطرب الانفاس وكان يضغط أحيانا بيده المنقبضة على صدره العريض • ولما عاد الى معبد أعماله حبس نفسه فيه وحيدا وألقى نظراته على هيكل تمثال ووجده رديئا فحطمه • وأخيرا سقط محطما على مقعد من خشب البلوط وأخفى وجهه بيديه وصاح بصوت مختنق : « أيتها الالهة الرائعة المروعة ! • • • يا للأسف ! لماذا شاءت المقادير أن ترى عينى لؤلؤة العرب هذه » •

## ميللو \_ ميللو

راى الملك سليمان أن يحتفى بملكة سبأ في ميللو، وهو بيت ريفي يقع على قمة أحد التلال حيث يبدو وادى يهوشافاط في أوج اتساعه ان كرم الحقول يعبر عن ود قلبي أكبر كما أن برودة المياه وروعة الحدائق والظلال الوارفة لأشجار الجميز والتمرهندي والغسار والسرو والاكاسيا والتربنتينا تثير في القلب المشاعر الرقيقة وكذلك كان سليمان يحب أن يفخر ببيته الريفي ثم أن الملوك عادة يفضلون الانتحاء جانبا بنظرائهم والاحتفاظ بهم لأنفسهم على أن يتعرضوا معهم لتعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم لأنفسهم على أن يتعرضوا معهم لتعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم النفسهم على أن يتعرضوا معهم التعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم النفسهم على أن يتعرضوا معهم التعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم النفسهم على أن يتعرضوا معهم التعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم النفسهم على أن يتعرضوا معهم التعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم النفسهم على أن يتعرضوا معهم التعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم التعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم النفسهم على أن يتعرضوا معهم التعليقات شعوب عواصمهم والاحتفاظ بهم النفسه المراحدة ال

فى الوادى الأخضر كانت القبور البيضاء منشرة هنا وهناك تحميها أشجار الزان والنخيل · وثمة ترى السفوح الأولى لوادى يهوشافاط · وقال سليمان لبلقيس :

- « أى موضوع أجدر بالتأمل بالنسبة لملك مثلى من مشهد نهايتنا المستركة! فهنا بقربك أيتها الملكة أجد اللذة وربما السعادة وهناك العدم والنسيان » •

- « ان الإنسان ليجد الراحة من عناء الحياة في تأمل الموت » •

- « أما في تلك الساعة ياسيدتي فاني أخشاه ، فهو يفرق ٠٠ وأتمني الا أتعلم في وقت مبكر جدا أنه يؤاسي ! » ٠

و ألقت بلقيس نظرة عابرة على مضيفها ورأته متأثرا تأثرا حقيقيا ٠ وبدا لها جميلا وقد ارتسمت عليه أضواء المساء ٠

وقبل الدخول الى قاعة الاحتفال شاهد الضيفان العظيمان البيت على العكاسات الغروب واعجبا به واستنشقا عبير أشجار البرتقال التى كانت تعطر فراش الليل •

وقد شيد هذا البيت الهوائي طبقا للذوق الشامي وقد حملته غابة من الأعمدة الصغيرة الرفيعة وشمخ في السلماء بأبراجه المكشوفة وأروقته المصلوعة من خسب الأرز والتي تغطيها النقوش الخشبية البراقة وكانت الأبواب المفتوحة تكشف عن ستأثر من قطيفة صور وارائك ناعمة نسجت حرائرها في الهند وورود منحوتة ومطعمة بالأحجار مختلفة الألوان وأثاثات من خسب الليمون والصندل وأواني زهور من طيبة وأحواض للنافورات من المرمر الأخضر أو الميناء الزرقاء مليئة بالزهور، وحوامل فضية ذات أرجل ثلاث يتصاعد من فوقها دخان عود الند والصبر واللبان الجاوي ولبلابات تعانق الأعمدة وتنتشر على العجدران وكان هذا المكان الساحر يبدو كما لو كان قد خصص للحب الاأن بلقيس كانت عاقلة وحذرة وكان عقلها يحميها من اغراءات الاقامة في بيت ممللو الساحر .

#### رقال سليمان :

- " ان الحياء لا ينقصنى وأنا أجوبهذا القصر الصغير • فمنذ شرفته بمقدمك وهو يبدو في عيني وضيعا • ولا شك أن البيوت الريفية لأهــل حمير أكثر فخامة " •

- « لا في حقيقة الأمر · ولكن في بلادنا تصنع أرفع الأعمدة والنقوش التي تصب في القوالب والوجوه الصغيرة وبيوت المصابيح أو الاجراس الصغيرة المكشوفة تصينع من المرمر · اننا نسيستعمل الأحجار فيما لا تستعملون أنتم فيه الا الخشب · وفوق ذلك فان أجدادنا لم يطلبوا المجد عن طريق نزوات لاجدوى وراءها · فقد أتموا عملا سوف يكفل الخلود والبركات لذكراهم » ·

- « وما هو هذا العمل ؛ فان قصة الأعمال الكبيرة تثير الفكر » •

- « ينبغى الاعتراف أولا بأن اليمن السعيد الخصيب كان فى أول الأمر قاحلا مجدبا • فان السماء لم تنعم على هذا البلد لا بالأنهار الكبيرة ولا الصغيرة • ولقد تغلب أجدادى على الطبيعة وانشئوا جنة عدن وسط الصحارى •

- « قصى على أيتها الملكة خبر هذه المعجزات » ·

- « فى قلب سلاسل الجبال الشاهقة التى ترتفع فى الجهات الشرقية من بلادى والتى تقع على سفحها مدينة مأربكانت جداول السيول تتلوى هنا

وهناك وتتبخر في الجو وتفقد في الأغوار وفي أعماق الوديان قبـل أن تصل الى السهل الذي أجدب تماما ·

وقد توصل ملوكنا القدماء بفضل عمل استمر قرنين من الزمان الى تجميع كل مجارى الميساء هذه فوق هضبة تبلغ مسساحتها فراسخ عديدة حفروا فيها حوضا لبحيرة تسير السفن على صفحتها اليوم كما لو كانت في أحد الخلجان و وكان لابد من سند الجبال المنحدرة بواسطة دعامات من الجرانيت أعلى من أهرام الجيزة تعلوها فباب عملاقة تتجول عليها من الفرسان والأفيال في سهولة ويسر ويندفع هذا السد الهائل الذي لا ينضب في شلالات فضية في مجار وترع واسعة تنقسم الى قنوات عديدة تحمل المياه خلال السهول وتروى نصف بلادنا وانى لمدينة لهذا العمل السامي بالزراعات الفنية والصناعات الحصيبة والمراعي العديدة والأشحار المعتقة والغابات العميقة التي تتكون منها ثروة بلاد اليمن وسيحرها و هذا هو يا مولاي سدنا الفولاذي دون اقلال لحوضكم الفولاذي الذي يعتبر اختراعا رائعا ، و

وصماح سمليمان قائلا :

- « يا للفكرة النبيلة ! وكم أكون فخورا بتقليدها لو أن الله في سماحته الواسعة لم يمنحنا مياه الأردن الوفرة المباركة » •

وأضافت الملكة قائلة :

ـ « لقد اجتزته بالأمس · وكانت المياه تصــل تقريبا حتى ركب ابلى » ·

وقال الحكيم:

- « من الخطر قلب نظام الطبيعة وخلق حضارة مصطنعة وتجارة وصناعات وشعوب ترتبط مصائرها بمصير عمل من صنع البشر كل ذلك دون ارادة يهوا • ان بلاد اليهود قاحلة ولا يسكنها أكثر ممن تستطيع هى اطعامهم وفنونهم نتيجة طبيعية للأرض والمناخ • فاذا هدم سدكم ، تلك انكأس المنحوتة في الجبال ، واذا ما انهارت منشئاتكم العملاقة ، وسوف يحدث هذا يوما ما • • فان شعوبكم ستحيق بها لعنة الحرمان من الماء وسوف تموت محترقة من الشمس أو تنهشها المجاعة وسط هنده الزراعات المصطنعة » •

وأخذت بلقيس للعمق الواضع لهذا التفكير فاستغرقت في تفكير عميق ٠

راستطرد الملك قائلا:

- « انى منذ الآن على يقين من ذلك ، فان الروافد النابعة من الجبال تحفر مجار لها وتحاول الخلاص من الحجارة التى تمسك بها كالسجين فلا تكف عن نحتها ، والأرض عرضة للزلازل والزمن ينتزع الصخور من جذورها وتتسرب المياه وتهرب كالحيات ، وفيما عدا ذلك فان بحير تكم الرائعة التى أفلحتم في حفرها في الصححراء سيكون من المستحيل اصلاحها وقد حملت بكل هذه الكمية من المياه ، أيتها الملكة ! ان اجدادك قد خلفوا لشعوبهم مستقبلا محدودا ككومة من الحجارة ، ان الجدب كان كفيلا بأن يثير اجتهادهم ويجعلهم يستفيدون من التربة التي سوف يموتون فيها بسبب الفراغ والبلادة مع ظهور الأوراق الأولى للأشجار التي سوف عنها السبب الفراغ والبلادة مع ظهور الأوراق الائولى للأشجار التي سوف الكف القنوات يوما عن الوصول الى جذورها ، لاينبغي أبدا تحدى الله أو اصلاح أعماله فان كل ما يعمله حسن » .

وأردفت الملكة قائلة:

- « ان تلك الحكمة مستقاة من دينك بعد أن خففت نظريات الصديقين الفلسفية المعتمة من تأثيره • انهم لا يهدفون الا الى تجميد كل شيء والى فرض الطفولة الدائمة على المجتمع وفرض الوصاية على استقلال البشرية على قام الله بحرث الحقول وزراعتها ؟ هل أسس الله المدن وبنى القصور ؟ هل وضحع الحديد في متناول يدنا والذهب والنحاس وجميع همذه المعادن التي يتصاعد منها الشرر في هيكل سليمان ؟ كلا ! لقد وهب مخلوقاته العبقرية والنشاط • انه يبتسم اذ يرى الجهود التي نبذلها ويتعرف من خلال منجزاتنا المحدودة على ذلك الشمعاع من روحه الذي أضاء لنا به عقولنا • فحينما تظن أن ذلك الأله غيور فانك تحد من قدرته التي لا نهاية لها وتتحدى مواهبك وتصيب مواهبه بالمادية • أيها المبقرية • وحينما يصغر شأن الناس فسوف يصغرون من شأن الله بما العبقرية • وحينما يصغر شأن الناس فسوف يصغرون من شأن الله بما يناسب أحجامهم وسوف ينتهى بهم الأمر الى نكرانه » •

وابتسم سليمان ابتسامة مرة وقال:

- « تلك أفكار دقيقة ، دقيقة ولكنها تمويهية ٠٠ » ٠

وأردفت الملكة قائلة:

« وعلى ذلك فلا تتنهد حين أضع أصبعى على موضع جرحك الحفى الله وحيد في هذه المملكة وأنت تتعذب ان آراءك نبيلة وجريئة ويرتكز التكوين الطبقى لهذه الامه على جناحيك انك تقول لنفسك ( وهذا قليل بالنسبة لك ) : سوف أترك للأجيال القادمة تمثال ملك كبير جدا لشعب صغير جدا ! أما فيما يختص بمملكتي فالأمر جدد مختلف المختلف افقد نسى أجدادي أنفسهم حتى يكبر رعاياهم القد توالى ثمانية وثلاثون ملكا كل منهم يضيف بعض الحجارة الى البحيرة والى قنوات مأرب فاذا نسيت الأحقاب القادمة أسماءهم فيكفى أن هذا العمل سوف يستمر في تمجيد قوم سبئ ولو حدث يوما وانهار واستعادت الأرض الشحيحة انهارها ونهيراتها فان أرض بلادي وقد اخصبها ألف عام من الزراعة سوف تستمر في انتاج الأشجار الكبيرة الى تستمد منها سهولنا الظليلة الرطب وتحتفظ في انتاج الأشجار الكبيرة الى تستمد منها سهولنا الظليلة الرطب وتحتفظ بالفيء وتحمى العيون والينابيع وسوف يحتفظ اليمن الذي اقتطع من قديم الزمان من الصحراء ، وسوف يحتفظ الى أبد الدهر باسمه العذب : بلاد العرب السمعيدة الم كنت أكثر حرية لصرت عظيما من أجل مجد العرب السمعيدة رعاياك » وسعادة رعاياك » المعوبك وسعادة رعاياك »

- « انى لأدرك تلك الأمانى التي تدعين روحى اليها ٠٠ لقد فات الأوان ٠ ان شعبى غنى ويوفر له الغزو أو الذهب مالا توفره له بلاد اليهود ٠ أما فيما يختص بخشب البناء فقد شاء بعد نظرى أن يبرم الاتفاقيات مع ملك صور ٠ ان أرز لبنان وزانها يملأ مصانعى وتنافس سفننا فى البحار سفن الفينيقيين » ٠

وقالت الأميرة في حزن سليم الطوية :

- « انك تعزى نفسك بعظمتك لادارتك التي تتسم بالعناية الأبوية » •

وتلت هذه الفكرة فترة من الصحمت · وأخفت الظلمات الكثيفة التأثر الذي انطبع على ملامح سليمان الذي تمتم بصوت رقيق :

« ان روحي قد تسربت الى روحك وتبعها قلبي » ٠

واضطربت بلقيس نصف اضطراب وألقت حولها نظرة خفية وكان رجال البلاط قد انتحوا جانبا • وكانت النجوم تتلألأ فوق رأسيهما من خلال أوراق الأشجار وتنثر عليها زهورا ذهبية • وكان نسيم الليل المحمل بعبير الزنبق والسوسن واللقاح يرسل ترانيمة وسط أغصان

الرند الكثيفة • لقد أصبح لعبير الأزهار صوت وأصبح للنسيم أنفاس عطرة • وكانت الحمائم ترسل أناتها من بعيد وخرير المياه يصحب هذه الجوقة الموسيقية الطبيعية • وكان الذباب البراق والفراشات الملتهبة ببريقها المخضر تجوب الجو الدافئ الملئ بالعواطف والنشوة • وشعرت الملكة بأن قد أخذتها نشوة طويلة مسكرة وكان صوت سليمان الحنون ينفذ الى قلبها ويأخذها تحت سلطان سحره •

هل كان سليمان يعجبها أم أنها كانت تتخيله وتحلم به في الصورة التي كانت تحب أن يكون عليها ؟ • • فمنذ أن نجحت في حمله على التواضع أصبحت تهتم به • الا أن همذا الود الذي ولد وسط سكون التعقل واختلط بالعطف الرقيق الذي يتلو انتصار المرأة لم يكن لا تلقائيا ولا حماسيا • كانت نتيجة نحو الحب ، وهي سيدة نفسها كما كانت سيدة أفكار مضيفها وانطباعاته ، كانت تتجه اليه ، لو كانت تفكر فيه ، بالصداقة وهو طريق جد طويل!

اما هو فقد كان خاضعا مبهورا يتنقل بين الشيعور بالخيبة أو الاعجباب تارة واليساس أو الأمل أو الغضب أو الرغبة تارة أخرى وقسد أصيب حتى الآن بأكثر من جرح فالحب السريع جدا بالنسبة للرجل يعنى المجازفة بأن يكون الحب من طرف واحد · وعلى كل فقد كانت ملكة سبأ متحفظة وكان تأثيرها مسيطرا على الجميع بما فيهم سليمان العظيم · وكان النحات أدونيرام هو وحده الذي لفت أنظارها اليه لحظة ولكنها لم تستطع قط النفاذ الى نفسه فقد صادف لحظة خيالها فيه غموضا · الا أن حب الاستطلاع الشديد هذا الذي صادفها لحظة ما لبث دون شك أن تبدد · ومع ذلك فقد قالت تلك المرأة القوية في نفسها لمرآه لأول مرة : هذا رجل ·

وقد تكون رؤيتها حديثة العهد لهذا الرجل ، رغم أنها قد انمحت ، قد تكون خفضت من تقديرها للملك سليمان · والدليل على ذلك أنها همت مرة أو مرتين بالحديث عن هذا الفنان ثم تماسكت وغيرت مجرى الحديث ·

ومهما يكن من أمر فان ابن داود قد هام فورا بها حبا وقد اعتادت الملكة على حدوث ذلك من جانت عشاقها • وسارع سليمان بالاعتراف بحبه متبعا في ذلك مثل الناس جميعا • ولكن عرف كيف يعبر عنه تعبيرا جميلا • كانت اللحظة ملائمة وبلقيس في عمر الحب وقد غدت تحت تأثير الظلام المنتشر مستطلعة متأثرة •

وفجأة نشرت بعض الشعلات أشعة حمراء على الاحراش وأعلن عن تقديم العشاء • وقال الملك في نفسه :

« تلك مضايقة غير مناسبة! » ·

أما الملكة فقالت في نفسها : « هذا تغيير موات » ·

وقدم العشاء في جناح أنشىء على الطراز سريع الحركة ذى النزوات الذى نتسم به شعوب ضفاف الكنج · وكانت القاعة مثمنة الشكل مضاءة بأنوار الشموع الملونة والمصابيح المشتعلة بزيت النفط المخلوط بالعطور · وكانت الأنوار الظليلة تتدفق وسط باقات الزهور · وعلى عتبة القاعــة قدم سليمان يده لضيفته التي مدت قدمها الصغيرة ثم مالبثت أن أرجعتها في دهشة · فقد كانت المقاعة كأنها مغطاة بغطاء من الماء كانت الماثدة والأرائك والشموع تنعكس فيه ·

وسأل سليمان في دهشة : « ماذا عساه يستوقفك ؟ »

وأرادت بلقيس أن تبدو أعلى من الخوف · فشمرت ثوبها في حركة · ساحرة وغمرت ساقيها في تبات ·

الا أن القدم اصطدمت بسطح صلب • وقال الحكيم:

- « أترين أيتها الملكة ! ان أكثر الناس حذرا قد يغتر بالظواهر ؛ لقد أردت أن أدهشك وأخيرا أفلحت في ذلك - انك تمشين على أرض ممردة من قوارير •

وابتسمت الملكة وهي تأتي بحركة من كتفها تنم عن الرشاقة أكثر مما تدل على الاعجاب • وربما تكون قد أسفت في نفسها لأنه لم يتمكن من ادهاشها بطريقة أخرى •

وكان الملك خلال الوليمة رقيقا مجاملا وكان رجال بلاطه يحفون به وكان في وسسطهم يتربع على ملكه في جلال لا مثيل له حتى أن الملكة شعرت باحترامه يتسرب الى نفسها • وكانت تقاليد الملك تراعى بكل دقة وجلال على مائدة سليمان •

وكانت ألوان الطعام شهية متنوعة ولكنها كانت مليئة بالملح والتوابل ولم تكن بلقيس قد صادفت من قبل مثل هذه الألوان كثير الملح وظنت أن تلك هي طريقة العبرانيين ولذا فلم تكن دهشتها هينة اذ لاحظت أن تلك الشعوب التي لا تخشى الاطعمة الحريفة تمتنع كلية عن الشراب و

لم يكن نمة أى ساق ولا قطرة واحدة من النبيذ أو شراب العسل ولم يكن هناك أى كأس على المائدة و

وكانت شفتا بلقيس تلسعانها وقد جف حلقها ٠

ولما كان الملك لا يشرب فلم تجرؤ على طلب الشراب · كان تأثير جلال الأمير عليها يحول دون ذلك ·

ولما انتهى تناول الطعام تفرق رجال البلاط شبيئا فشبيئا واختفوا في أغوار رواق مضاء نصف اضاءة ·

وما لبثت ملكة سبأ الجميلة ن ألفت نفسها وحيدة مع سليمان وقد غدا أكثر رقة من ذى قبل وكانت عيناه تفيضان حنانا وقد تحول من حالة العجلة الى حالة الاستعجال •

وتفلبت الملكة على حيرتها ونهضت مبتسمة وقد خفضت عينيها وأعلنت عزمها على الانسحاب ٠

وصاح سليمان قائلا :

- « ماذا! أتتركين هكذا عبدك دون كلمة واحدة أو أى أمل أو أى ضمان لعطفك ؟ اتطئين بقدميك ذلك الرباط الذى أحلم به وتلك السعادة التي لم أعد استطيع العيش بدونها وهذا الحب المتأجج الخاضع الذي ينشد جزاءه •

وكان قد أمسك بيدها فتركتها له وكان هو يشدها دون جهد رلكنها كانت تقاومه ١٠ ان بلقيس قد فكرت بلا شك أكثر من مرة في هذا الرباط ولكنها كانت متمسكة بالاحتفاظ بحريتها وسلطانها ١٠ الذا فقد ألحت في الانسحاب وألفى سليمان نفسه مضطرا للموافقة ٠ فقال لها :

- « ليكن ، اتركيني ولكني أضع شرطين لانسحابك » .
  - ۔ تکلم
- ـ ان الليل هادىء وحديثك أكثر رقة وهدوءا · فهل تسمحين لى بساعة أخرى ؟
  - ـ أوافق
  - ـ ثانيا ، لن تحملي معك حين خروجك من هنا أي شيء مما أملك ٠

فقالت بلقيس وهي تقهقه ضاحكة:

ـ اتفقنا!

- اضمحكى يا مليكتى ! فقد رأينا أناسا مفرطى الثراء يضعفون أمام أشد المغريات غرابة .

ـ بكل سرور! انك ألمعى في الاحتفاظ بكرامتك · لندع التصنع جانبا ولنوقع معاهدة سلام ·

\_ انها هدنه ، وما زلت آمل في ذلك •

واستؤنف الحديث وتفنن سليمان كملك واسع الاطلاع · في حمل الملكة على الحديث أطول وقت ممكن · وكانت تصاحبها خلال الحديث نافورة كانت ترسل خريرها في أقصى القاعة ·

واذا كان الافراط فى الكلام من المضايقات فذلك بلا شك يحدث حين يكون المرء قد أكل دون أن يشرب واذا كان قد تناول وجبة شديدة الملوحة لقد كادت ملكة سبأ الجميلة تموت عطشا وكان بودها أن تدفع احدى مقاطعاتها ثمنا لكأس من الماء البارد •

ومع ذلك فلم تكن تستطيع الافصاح عن تلك الرغبة الملحة • وكانت النافورة الصافية الرطبة الفضية الماكرة ما زالت ترسل خريرها بالقرب منها وهي تلقى بحبات اللؤلؤ التي تتساقط في الحوض محدثة صوتا شديد المرح • وكان العطش يتزايد حتى أن الملسكة الصادية لم تعد تستطيع المقاومة •

ولما رأت سليمان شاردا وكما لو كانت حركته قـــد ثقلت أخذت تتجول ، وهى تواصل حديثها ، في اتجاهات مختلفة عبر القاعة ومرت مرتني بالقرب من النافورة دون أن تجرؤ .

وصارت الرغبة لا تقاوم فعادت الى النافورة وأبطأت الخطى وأرسلت نظرة قوت من عزيمتها وغمرت خفية يدها الجميلة فى المساء وقد طوتها لاحداث تجويف الحفنه • ثم استدارت وازدردت بسرعة هذه الجرعة من الماء النقى •

ونهض سليمان واقترب واستولى على اليد اللاصقة المبتلة بالماء وقال بصوت فخور مصر:

- « ان كلام الملكات لا يرد وبنص كلامك أصبحت ملكي » •

\_ ما معنى ذلك ؟

\_ لقد سرقت منى بعض الماء ٠٠ وكما لاحظت أنت نفسك بحق فان الماء نادر شحيح في ولاياتي ٠

\_ انه فخ يامولاي واني لراغبة عن مثل هذا الزوج الماكر !

\_ لم يعــد أمامه الا أن يثبت لك أنه أكثر كرما · فلو أعاد اليـك حريتك ، لو أنه رغم هذا التعهد الصريح ·

وقاطعته بلقيس قائلة وهي تخفض رأسها :

ـ اننا يا مولاي ملزمون بأن نكون أمام رعايانا مثالا للوفاء ٠

وقال سليمان أكثر أمراء الازمنة الماضية والمقبلة رقة ، وهو يرتمى تحت قدميها :

\_ ان هذه الكلمة هي فديتك » ·

وسيارع بالنهوض وقرع أحد الاجراس · وهرع اليه عشرون خادما يحملون المرطبات المتنوعة ويرافقهم رجال البلاط · ونطق سليمان بالالفاظ التالية في جلال :

\_ « قدموا الشراب لمليكتكم »!

وخر رجال البلاط سجدا ، لدى سماعهم لهذه الكلمات ، أمام ملكة سمأ وعبدوها ·

أما هى فكانت مضطربة مرتبكة وكانت تخشى أن تكون قد تقدمت فى ارتباطها أكثر مما كانت تبغى ٠

وفي أثناء فترة الصمت التي تلت هذا الجزء من القصة وقع حدث غريب استحوذ على انتباه الجمع • فقد اندفع شاب يعرف من لون بشرته الذي يشبه لون فلس حديث السك أنه حبشي ، اندفع وسط الحلقة وأخذ يؤدى رقصة تشبه «البامبولا» وهو يصاحبها بأغنية يؤديها بعربية ركيكة لم أع منها الا المقطع المتكرر • وكان هذا الغناء ينطلق بههذه الكلمات : « يمن ! يمن ! يمن ! » وهو يوضع اللفظ بذلك التكرار الطويل للمقاطع الذي يميز أهل الجنوب من العرب : « يمن ! يمن ! يمن ! • • سلام عليك • يلقيس ملكة ! يمن ! • • يمن ! من ! • • وهذا يعنى : اليمن ! بلاد اليمن ! سلام عليك يا بلقيس العظيمة ! يا بلاد اليمن !

ولا يمكن تفسير هذه النوبة من الحنين للوطن الا بالعلاقة التى قامت فى الماضى بين شعوب سبأ والاحباش المقيمين على الضفة الغربية للبحر الاحمر والذين كانوا يشكلون جزءا من الامبراطورية الحميرية ١٠ ان اعجاب هذا المستمع ، الذى كان حتى الآن لائذا بالصمت ، يعود الى القصةالسابقة التى تشكل جزءا من تقاليد بلاده ، وربما كان كذلك سعيدا اذ يرى الملكة العظيمة تفلت من الفخ الذى نصبه لها الملك الحكيم سليمان ،

ولما طال غناؤه الرتيب الى الحد الذى ضايق الرواد صاح بعضهم قائلا: « ان به جنة » ، وجروه بلطف نحو الباب • وخشى القهوجى من ضياع البارات الخمس أو الست التي يدين بها هذا الحبشى فأسرع الى الخارج في أثره • وانتهى كل شيء في سلام وما لبث الراوى أن استأنف حكايته وسط سكون ديني مخيم •

#### بحر الفولاذ

بانغماسه في العمل والسهر استطاع الفنان أودنيرام أن يتم صنع تماثيله وأن يحفر في الرمل القوالب التي سيصب فيها الوجوه العملاقة التي يريد صنعها وهكذا اتخذت هضبة صهيبون التي حفرت بعمق وشقت بفن ، اتخذت طابع بحر الفولاذ الذي كان سيصب في مكانه ويثبت تثبيتا متينا بواسطة متكآت مبنية استبدلت فيما بعد بالاسود والتماثيل العملاقة لأبي الهول خصصت لتكون سينادات وكان غطاء قالب هذا الحوض الضخم محملا على قضبان من الذهب الخالص، وهو بخلاف البرونز عسير الصهر ، وكانت هذه القضيبان متناثرة هنا وهناك وكان المعدن المعمد السائل الذي كان يأتي بواسطة قنوات عديدة ليملأ الفراغ القائم بين الخطتين هو الذي خصص لحبس هذه الاوتاد الذهبية وللالتحام مع هذه العلامات المتمردة الثمينة .

وكانت الشمس قد أتمت الدوران حول الارض سبع مرات منذ أن بدأت المعادن تغلى فى الافران المغطاء ببرج مرتفع أصم من الطوب كان ينتهى على بعد ستين ذراعا من الارض بطرف قمعى الشكل مفتوح الفوهة كانت تخرج منه دوامات من الدخان الاحمر واللهب الازرق الذى يتخلله الشرر •

وكان ثمة تجويف بين القوالب وقاعدة الفرن العالى خصص ليكون مجرى لنهر اللهب حين تأتى لحظة فتح أحشاء البركان بواسطة قضبان من الحديد .

ولكمى يبدأ العمل العظيم ، عمل صب المعدن المنصهر اختيرت فترة الليل · فهى المحظة التي يمكن فيها تتبع عملية سير البرونز المضيء الابيض الذي يتولى بنفسه اضاءة طريقه · ولو حدث وأراد المعدن البراق نصب فخ

من الفخاخ أو التسرب من أحد الشقوق أو شميق تجويف هذا أو هناك كشفت الظلمات أمره ·

وكان كل فرد في أورشليم في حالة قلق واضمطراب في انتفار التجربة الجليلة التي كان من شأنها اما أن تخلد اسم أدونيرام أو نفقده حظوته ولقد هرع العمال من جميع أرجاء المملكة تاركين أشغانهم وفي الامسية السابقة لليلة الموعودة ، وابتداء من غروب الشمس ، غصت الجبال والتلال المحيطة بالمستطلعين و

ولم يحدث من قبل قط أن قاد صاهر معادن تحت امرته ورغم المتناقضات مثل هذه الحملة الهائلة • لقد كان جهاز الصهر يثير الاهتمام الشديد في كل مناسبة وكثيرا ما كان الملك سليمان ، حينما كانت تصب القطع الهامة ، يتنازل بالمرور ليلا على ورش المعادن يرافقه رجال بلاطه الذين كانوا يتنافسون على شرف مرافقته •

الا أن صهر بحر الفولاذ كان عملا عملاقا وتحديا من جانب العبقرية للمعتقدات الانسانية الثابتة وتحديا للطبيعة ولرأى أكثر الخبراء خبرة الذين قرروا جميعا أن نجاح مثل هذا المشروع محال •

ولذا ففى ساعة مبكرة اقتحمت الجموع من جميع الاعمار ومن جميع البلدان ، وقد اجتذبها مشهد هذا الكفاح ، جبل صهيون الذى كانت مشارفه تحرسها فيالق من العمال · وكانت دوريات صامتة تجوب الجموع للمحافظة على النظام ومنع الضوضاء · · وكانت تلك مهمة سهلة فقد درت الابواق بأمر من الملك تأمر الناس بالصمت المطلق والا تعرض المخالفون للموت · وكان ذلك احتياطا ضروريا حتى بمكن نقل الاوامر بثقة وسرعة ·

وكان نجم المساء ينحدر نحو البحر · وكن الليل البهيم الذى زادت السحب التى انعكست عليها ظلال الفرن الحمراء ظلمته عمقا ، كان يعلن ان اللحظة قد اقتربت · وألقى أودنيرام يتبعه رؤساء العمال ، نظرة أخيرة، فى ضوء المساعل ، على الاعدادات القائمة وأخذ يجرى هنا وهناك · وكنت ترى من تحت السطح العريض المستند الى الفرن الحدادين وقد غطوا رءوسهم بأغطية من الجلد ذات أجنحة عريضة متدلية وارتدوا ثيابا طويلة بيضاء ذات أكمام قصيرة وانهمكوا فى نزع كتل متعجنة من الرغوة نصف بيضاء ذات أكمام قصيرة وانهمكوا فى نزع كتل متعجنة من الرغوة نصف بيحرونها بعيدا · وآخرون كانوا منكفئين على سقالات تحملها عروق خشبية ضخمة وقد أخذوا يقذفون من فوق البناء بسلال من الفحم فى بؤرة النار

التى كانت تزفر مع الهبوب الفائر الإجهزة التهوية وكانت جحافل العمال المسلحين بالفئوس والخوازيق والملاقه يستجولون في الله مكان ناشرين خلفهم ذيولا طويلة من الظلال كانوا شبه عراة وكانوا يغطون جوانبهم بأحزمة من القماش المخطط وكانت رءوسهم مغطاة بأغطية من الصوف وسيقانهم تحميها دروع من الخشب المغطى بسيور من الجلد كانت جلودهم قد اسودت بفعل غبار الفحم وبدوا حمر اللون تحت أشعة المهب كنت تراهم هنا وهناك كما لو كانوا عفاريت أو أشباحا بالناس المناس الم

وأعلن النفير عن مقدم الملك ورجال بلاطه : وبدا الملك بصحبة ملكة سبأ واستقبلهما أودنيرام الذى اقتادهما الى العرش الذى بناه ارتجالا لضيوفه العظام • وكان هذا الفنان يرتدى فوق ظهره جلد ثور وكانت ميدعة من الصوف الابيض تتدلى حتى ركبتيه • وكان يلبس غطاء من جلد النمر لحماية ساقيه بينما ظلت قدماه عاريتين لأنه كان يدوس على المعدن الملتهب دون أن يصاب بأذى •

### وقالت بلقيس لملك التسخير:

« انك تبدو لى فى أوج قدرتك كما لو كنت اله النار · واذا نجح مشروعك فلن يسمعتطيع أحد أن يقمول الليلة انه أعظم من الفنان أودندام ! • • • • •

وهم الفنان رغم مشاغله بالإجابة حين استوقفه سليمان الذي كان وما يزال حكيما وان كانت الغييرة تعتريه من حين لآخر وقال له بلهجة آمرة:

ــ « لا تفقد أيها الفنان وقتك الثمين · عد الى أعمالك حتى لا يجعلنا وجودك هنا مسئولين عما قد يقع من أحداث ·

وحيته الملكة بحركة منها واختفى •

وقال سليمان في نفسه مفكرا:

- « لو انه اتم مهمته فأى أثر رائع ذلك الذى سوف يشرف به بيت الله ، وأى بريق ذلك الذى سيضيفه الى قدرة كانت من قبله رهيبة! »

وما هي الا لحظات حتى رأيا أودنيرام أمام الفرن · ورفع العامل الذي يشعله من أسفل قامته فأخذ ظله يتسلق الجدار حيث كانت ورقة كبيرة من البرونز معلقة فضرب عليها الفنان عشرين ضربة بمطرقة من الحديد · ورنت تلك الضربات المعدنية بعيدا فعم السكون أكثر عمقا مما كان ·

وفجأة هرع عشرة أشباح مسلحين بالرافعات والخوازيق الى التجويف المعد تحت بؤرة الفرن في مواجهة العرش · وأخذت المنافيخ تحشرج وانحبست أنفاسها ولم يعد أحد يسمع سوى الاطراف الحديدية وهي تنفذ الى طين الفخار المحترق الذي يسد الفتحة الذي سوف ينطلق منها المعدن المنصهر وما لبث ذلك الموضع المطروق أن تحول الى اللون البنفسجي ثم القرمزي قالاحمر وأضاء وانخذ لون برتقاليا · وارتسسمت في وسطه نقطة بيضاء فابتع جميع الانفار ماعدا اثنين · وعكف هؤلاء تحت ملاحظة أودونيرام على ترقيق القشرة حول تلك النقطة المضيئة متجنبين ثقبها · · وكان الفنان يراقبهما في قلق ·

وفى أثناء تلك الاعدادات كان رفيق أودونيرام الوفى، بينونى الشاب، الذى يخلص له اخلاصا شديدا يجوب جماعات العمال سابرا غور حمية كل منهم ملاحظا ما اذا كانت الاوامر تتبع ويحكم على كل شيء بنفسه ٠

وحدث أن اندفع هذا الشاب في ارتياع تحت قدمي سليمان وسجد وقال:

- « أوقف الصب يا مولاى فقد ضاع كل شيء · لقد تعرضــنا للخيانة! » ·

ولم يكن العرف يبيح مثل هـذا الاقتراب من الملك دون تصريح · ولذا فقد اقترب الحراس من هـذا المتهـور · وأمرهم سليمان بالابتعاد وانحنى على بينونى وهو راكع أمامه وقال له بصوت خفيض :

ـ « فسر ما تقول في ايجاز » ٠

ــ « لقد كنت أدور حول الفرن • وكان خلف الحائط رجل يقف ساكنا بلا حراك كما لو كان ينتظر • وأتى ثان وقال للاول بصوت منخفض :

«فهما ميب» فرد عليه الآخر قائلا : «اليايل»(١) وأتى ثالث وتفوه هو الآخر بكلمة : «فهماميب» ! فردا عليه كذلك بكلمة «اليايل» • ثم صاح آحدهما قائلا :

\_ لقد جعل قاطعو الاخشاب عبيدا لعمال المناجم .

<sup>(</sup>۱) تلك كلمة المرور والرد عليها لدى «فرسان النسر الاسود» ولابد أن جيرار قد حصسل عليهما من أحد المؤلفات حول مذهب الماسسونية ، وصحة الكلمة الاولى هى نهماميب ،

وقال الثانى:

ـ « لقد جعل البناءرن تابعين لعمال المادن » • وقال النالث:

ـ « لقد أراد أن يحكم عمال المعادن » • وأردف الاول قائلا:

- « انه يمنح قوته للأجانب » •

وقال الثاني :

\_ « انه لا وطن له » ·

وأضاف الثالث قائلا:

سه « عذا حسن » •

وعاد الاول يقول:

- « ان عمال المهنة الواحدة اخوة » ٠٠٠

وأضاف الثاني قائلا:

ـ « ان طوائف العمال متساوية في الحقوق » •

وأضاف الثالث:

- « هذا حسن » -

وتبينت أن الاول بناء لأنه قال بعد ذلك :

- ه لقد خلطت الجص بالطوب وسنوف يهوى الجير ترابا » ·

وكان الثاني قاطع أخشاب لانه قال:

ـ لقد أطلت العروق الخشبية الأفقية وسوف تلتهمها النار ٠

أما الثالث فيعمل في المعادن وتلك كانت كلماته :

ـ « لقد أخدت من بحيرة عامورية المسممة أحجارا بركانية من الحمر والكبريت وفرجتها بالمعدن المنصهر •

« وفي تلك اللحظة أضاء وابل من الشرر وجوههم · فتبينت أن البناء

شامي ويسمى فانور · وقاطع الاخشاب فينيقى ويسمى عمرو أما عامل المناجم فهو يهودى من قبيلة روبين واسمه ميتوزايل · ولقد طرت لأرتمى تحت قدميك أيها الملك العظيم فأمدد صولجانك ومر بايقاف العمل! »

وقال سليمان مفكرا:

ــ لقد فات الأوان · هذه هي فوهة البركان تفتح فالزم الصــــمت ولا تجعل ادونيرام يضطرب وكرر لي ذكر هذه الأسماء الثلاثة ·

- « فانور ، عمرو وميتوزايل » ٠
- « ليحدث ما يحدث طبقا لمشيئة الله » ·

وتفرس بينونى فى الملك ثم ولى هاربا فى سرعة البرق • وفى تلك الأثناء سيقط اللبن من حول المصب المسدود للفرن تحت ضربات عمال المعادن المتكررة وأصبحت طبقة اللبن حول الفتحة ، وقد رقت ، من اللمعان بحيث يخييل للمرء أنه على وشك الامساك بالشمس فى مخبئها الليلى السمحيق •

وبناء على اشارة من أدونيرام ابتعد العمال وبينما كانت المطارق تدق الفولاذ دقا رفع الفنان كتلة من الحديد وأدخلها بعمق في السدادة الشفافة وأدارها في الفتحة ثم انتزعها بعنف وللتو اندفع سيل من السائل الابيض السريع في القناة وتقدم كثعبان من الذهب مخطط بالبللور والفضة حتى بلغ حوضا محفورا في الرمال توزع السائل المنصهر منه في فترات عديدة و

وفجأة لمع ضوء قرمزى دام من فوق التلال فأضاء وجوه المشاهدين الذين لا حصر لهم • ونفد هذا الضوء الى السحب وجعل قمم الصخور البعيدة تبدو حمراء • وبرزت أورشليم من الظلمات وبدت كما لو كانت نهبة لحريق • وكان السكون العميق السائد يجعل هذا المسهد الجليل يبدو كما لو كان حلما مروعا •

ولما بدأ الصب لمح الناس ظلا يطير حول المجرى الذى سوف يجتاحه السائل المنصمور • فقد اندفع رجل ورغم تحذيرات أدونيرام كانت له جرأة عبور هذه القناة المعدة للنار • وما أن وضع قدمه فيها حتى لحق به السائل المنصمور وطرحه الى الارض فاختفى فيه في لحظة واحدة •

ولم يكن أدونيرام يرى الا ما يقوم به من عمل • وقد ارتاع لفكرة

احتمال حدوث انفجار شامل فاندفع مجهازفا بحياته مزودا بخطاف من الحديد ، اغمده في قلب الضحية ورفعه بقوة تفوق قوة البشر ثم قذف به ككتلة من القذائف البركانية فوق حافة القناة حيث سينطفىء جسمه الملتهب وهو يلفظ أنفاسه .

ولم يكن لديه من الوقت حتى ما يسمم له بالتعرف على رفيقه المخلص بينوني .

وبينما كان السائل المنصهر يسير ويملاً بحر الفولاذ الذى ارتسم هيكله الواسع كتاج من الذهب فوق الأرض المظلمة تقدمت سحابات من العمال تحمل أواني كبيرة عميقة لصبالنار لها أيد طويلة مناعواد الحديد فكانوا يغمرونها في الحوض المليء بالنار السائلة ثم يجرون هنا وهناك ويصبون ما فيها من معدن في القوالب المخصصية للأسدود أو للثيران أو للنخيل أو للملائكة الأطفال ذات الوجوه العملاقة التي سوف تحمل بحر الفولاذ ٠

و دهش الناس لكمية النار السائلة التي أسقوها للأرض • وارتسمت في هذه القوالب الراقدة على الارض لهذه التماثيل التي سوف تزين الجوانب السفلي لبحر الفولاذ ، في صورة مضيئة قرمزية أشكال الخيول والثيران المجنحة والقرود والاشباح المروعة التي ابتكرتها عبقرية أدونيرام •

وصاحت ملكة سبأ قائلة :

ـ « انه لمشهد سام! يا للعظمة! يا لقوة عبقرية هذا الانسان الذي استعبد العناصر وقهر الطبيعة! ه

فأجاب سليمان في مرارة :

ـ « انه لم ينتصر بعد · ان الله وحده هو القادر على كل شيء ، ·

# ٣ - التجلي

وفجأة لاحظ أدونيرام أن نهر السائل المنصهر يفور على الجانبين • كانت العين المفتوحة تلفظ سيولا من السائل المنصهر • وانهار الرمل وقد ثقل عليه حمله • واتجه أدونيرام بأنظاره الى بحر الفولاذ • كان القالب يفيض بما فيه وبدا في أعلاه شرخ • وكانت الحمم تنساب من كل مكان فيه • وأصدر أدونيرام صرخة مروعة امتلأ بها الهواء ورددتها الأصداء فوق الجبال • وظن أدونيرام أن الطين شديد الحرارة في سبيل التحول الي زجاج فأمسك بخرطوم قابل للثنى وينتهى بخزان للمياه وبيد مندفعة وجه هذا العمود المائي الى الركائز المهتزة لقالب الحوض الا أن السائل المنصهر كان قد بدأ في الانطلاق وانساب من أعلى الى أسفل وتطاحن السائلان وأحاطت كتلة من المعدن بالماء وحبسته وضغطته • ولكي يفلت الماء الحار تبخر وحطم الاموائق التي تقف أمامه • ودوى انفجار واندفق المعدن المنصهر في الهواء في باقات مضيئة الى ارتفاع عشرين ذراعاً • وتبع هذا الانفجار بكاء وعويل مروعان لأن هذا الوابل من النجوم كان يزرع الموت في كل مكان • كانت كل قطرة من المعدن المنصهر ابرة ملتهبة تنفذ الى الاجسام وتقتلها • وغص المكان بالمحتضرين وتبع السكون صيحة هائلة من الهلم • وبلغت الرهبة غايتها وولى كل فرد هاربا • كان الخوف من الخطر يدفع الى النار أولئك الذين تطاردهم النار ٠٠ كان الريف متألقا يبهر الأنظار بأنواره القرمزية وكان يذكر بتلك الليلة المروعة التي اشتعلت فيها سدوم وعامورية نارا بفعل الصواعق التي صبها الاله عليها .

وطاش لب ادونیرام واخذ یعدو هنا وهناك لیعید تجمع عماله ویغلق فم الفرن ذی الهوة التی لا تنضب و الا أنه لم یعد یسمع سوی الشكوی واللعنات ولم یعد یصادف سوی حثث ، أما ما عدا ذلك فقد طار شعاعا و

وكان سليمان وحده هو الذى ظل جالسا على العرش دون تأثر ، وظلت الملسكة الى جواره ساكنة وكان تاجها وصولجانه مازالا يتألقان وسط الظلمات .

وقال سليمان لضيفته:

- « لقد أرسل الله عليه عقابه ، وهو يعـاقبني بموت رعاياي على ضعفى واكرامي لهذا العملاق المغرور المتكبر » •

وقالت الملكة:

- « ان الغرور الذي يقتل كل هذه الضحايا غرور اجرامي · وكان من المحتمل أن تموت يا مولاي وسط هذه التجربة الجهنمية · لقد كان الفولاذ يتساقط وابلا حولنا » ·

- « وأنت أيضا كنت هنا ! لقد عرض هذا الذنب الدنيء من أذناب « بعل » حياتك الثمينة للخطر ! لنرحل أيته الملكة فلم يشغلني سوى الخطر الذي تعرضت له » •

وسمعه أدونيرام الذي كان يمر بالقرب منهما فابتعد وهو يهدر من الأنم · وصادف بعد ذلك جماعة من العمال يصبون عليه احتقارهم وشتائمهم ولعناتهم · ولحق به الشامي فانور الذي قال له :

- « انك عظيم وقد خانك الحظ الا أن عمال البناء لم يشـــاركوا في الخيانة » •

ولحق به كذلك الفينيقي عمرو وقال له :

- « انك عظيم وكان من الممكن أن تنتصر لو أن كل فرد أدى واجبه كما فعل قاطعو الأخشاب » •

وقال له اليهودي ميتوزايل :

– « لقد أدى عمال المناجم واجبهم على الوجه الأكمل · ولكن هؤلاء العمال الاجانب هم الذين أضاعوا المشروع بجهلهم · تشبجع ! وسوف يأتي عمل أعظم فينتقم لنا لهذا الفشل » ·

وقال أدونيرام في نفسه:

- « هؤلاء هم الأصدقاء الوحيدون الذين صادفتهم ٠٠ ، ٠

وكان من اليسير عليه تجنب الالتفاء بالناس فقد كان الجميع يولون منه مدبرين وكان الظلام الدامس يستر هذا الفرار وما لبثت أضواء الافران والسائل المنصهر الذي احمر حينما بدأ سطحه يبرد ما لبثت أن خفتت ولم تعد تضيء الا الجماعات البعيدة التي كانت تختفي شيئا فشيئا وسط الظلام • كان أدونيرام وسط انهياره يبحث عن بينوني • وتمتم قائلا في حزن:

#### « لقد تخلي عني بدوره ۰۰۰ » ٠

وجلس الفنان وحده بجوار حافة الفرن وصاح قائلا في مرارة :

ر يا للعار! تلك ثمرة حياة جادة عاملة كرست للدمة أمير جاحد! انه يتهمنى واخوتى ينكروننى! وهذه الملكة ، هذه المرأة ٠٠ لقد كانت هنا وشاهدت عارى ولا بد أننى استحققت احتقارها! ولكن أين عسى يكون بينونى فى تلك الساعة التى التعذب فيها ؟ وحدى! اننى وحدى وقد صبت على اللعنة ٠ لقد غدا المستقبل مغلقا ٠ ابتسم يا أدونيرام لتحررك وابحث عنه فى النار عنصرك وعبدك المشمرد! » ٠

وتقدم هادئا ثابت العزم نحو النهر الذي كانت أمواجه مازالت تهدر بما فيها من حمم ومعدن منصهر والتي كانت تتدفق هنا وهناك وهي تحتدم لدى الارتطام بالرطوبة · ربما كانت الحمم تهدر فوق جثث الموتى · وتصاعدت دوامات كثيفة من الدخان البنفسجي والاصفر في أعمدة متلاصقة وأخفت المسرح المهجور لتلك الحادثة الكئيبة · وهنا خر العملاق المنهار جالسا على الأرض وتاه في تأملاته · وعينه في هذه الدوامات من جالسا على الأرض وتاه في تأملاته · وعينه في هذه الدوامات من المدخان التي كان من الممكن أن تنحني عليه وتخنقه لدى أية هبة من هبات الربح ·

وكانت بعض الاشكال الغريبة الملتهبة سريعة الاختفاء ترتسم أحيانا وسحط الاشكال التي ترسمها الادخنة النارية الكئيبة ولحت عينا أدونيرام المبهورتان ، استنادا الى أعضاء العمالقة تلك ، كتلا من الذهب وأيدى أشباح كانت ما تلبث أن تتبدد وسط الدخان أو تتساقط شررا ولم تفلح شطحات الخيال تلك في التخفيف من يأسه وألمه ومع ذلك فلم تلبث أن استولت على خياله المحموم وخيل اليه أن ثمة صوتا يرتفع من وسط اللهب مدويا وقورا وينادى باسمه و نقد جأرت الدوامة ثلاث مرات باسم أدونيرام و مرات باسم أدونيرام و المرات باسم أدونيرام و المرات المرات المرات باسم أدونيرام و المرات بالمرات بالمرات باسم أدونيرام و المرات باسم أدونيرام و المرات بالمرات بالم

ولم يكن ثمة أحد حوله ٠٠ فتأمل الدوامة الملتهبة والتهمها بعينيه دِتمتم قائلا:

- « ان صوت الشعب يدعوني ! » •

ودون أن يدير ناظريه نهض على احدى ركبتيه ومد يده و تبين وسط الادخنة الحمراء هيكلا انسانيا غير واضح المعالم عملاقا أخذ يزداد ضخامة وسط الليب ويتجمع ثم تتفرق أجزاؤه وتختلط · كان كل شيء يضطرب ويشتعل نارا حوله · الا هسذا نقد آن يثبت ويبدر اما معتما وسط الدخان المضيء واما مضيئا واضحا وسط كومة من الادخنة السوداء · ان هذا الوجه يرتسم ويكتسب مزيدا من التجسيم ويزداد كبرا وهو يقترب وتساءل أدونيرام في ارتباع عما يكون هذا البرونز الذي دب فيه الحياة ·

واقترب الشبح · وتأمله أدونيرام في ذهول · لقد كان نصفه الأعلى العملاق يرتدى سترة بيضاء دون أكمام كتلك التي كان يرتديها أباطرة الرومان ، وكانت ذراعاه العاريتان مزينتين بحلقات من المحديد · وكانت رأسه البرونزية التي تحيط بها لحية مربعة مضفرة ومجعدة في صفوف كثيرة مغطاة بغطاء قرمزى مرتفع مدبب · وكان يمسك بيده مطرقة · وانحنت عيناه الكبيرتان على أدونيرام في رقة وقال بصوت بدا أنه اقتطع من أحشاء البرونز:

- « أيقظ روحك وانهض يا بنى · تعال ، اتبعنى · لقد شاهدت آلام
 جنسى وأخذتنى الشيفقة بها · · ، .

- « من عساك تكون أيها الشبيع ؟ » •

- « اننى أبو آبائك ، وجد أولئك الذين يعملون ويتألمون · تمال · وحين تنزلق يدى على جبهتك فسوف تتنفس وسط اللهب · لا يأخذك الخوف كما لم يكن يأخذك الضعف · · » ·

وفجأة شعر أدونيرام بحرارة نفاذة تشعله حمية دون أن تحرقه ٠ وأصبح الهواء الذي يتنفسه أكثر خفة ٠ وكانت ثمة قوة لا تقاوم تجره نحو الجمر الذي انغمر فيه من قبل صديقه المختفى ٠

وتمتم أدونيرام قائلا:

- أين أنا ؟ ما اسمك ؟ الى أين تجرني ؟ » ·

- « الى بطن الأرض ٠٠ الى قلب العالم المسكون ٠ هناك يرتفع قصر

حينوش تحت الأرض ، قصر أبينا الذي تسميه مصر هيرميس وتسميه بلاد العرب ادريس (١) .

وصاح ادونيرام قائلا:

\_ « يا للقدرة الخالدة ! يا مولاي ! هل صحيح ؛ هل تكون ٠٠٠ » ٠

ـ « اننى جدك أيها الانسان ٠٠ الفنان وأستاذك ورئيسك ٠ لقــد كنت فيما مضى طوبال ـ قابيل (٢)

وكلما أوغلا فى التقدم فى الجهات العميقة التى يسيطر عليها السكون والليل كلما شك أدونيرام فى نفسه وفى حقيقة انطباعاته • وشيئا فشيئا ذهل عن نفسه وانقاد لسحر المجهول ، وخضعت روحه كلية لذلك التأثير الذى سيطر عليه وانقاد تماما لمرشده المجهول •

وتلت تلك الجهات الرطبة الباردة جوا دافئا مخلخلا · وبدت الحياة الداخلية للأرض بهزات وطنبن عجيبين · كانت ثمة ضربات مكتومة منتظمة على فترات متساوية تعلن عن قرب الوصول الى قلب العالم · وشعر به أدو نيرام يخفق بقوة متزايدة ودهش لأنه يتجول وسط فضاء لا نهاية له · لقد كان يبحث عن شيء يرتكز عليه فلا يجده ، وكان يتبع شبع طوبال ـ قابيل الذي ظل ملازما للصمت دون أن يراه ·

وبعد لحظات ، بدت له فى طول حياة النساك ، اكتشف على بعد نقطة مضيئة · وكبرت تلك البقعة واقتربت وانتشرت فى أفق طويل فتبين الفنان عالما آهلا بأشباح تتحرك وقد انهمكت فى مشاغل لم يدرك كنهها وأخيرا فقد انطفأت هذه الأضواء الغامضة فوق غطاء رأس ابن قابيل وسترته ·

وحاول أدر نيرام الكلام عبشا فقد كان صوته يختنق في صدره المنسخوط ولكنه تنفس الصعداء حين ألفي نفسه في رواق فسيح ذي عمق شاسع ، رواق فسيح جدا لا يتبين أحد جوانبه محمل على مجموعة كبيرة من الأعمدة الشاهقة التي كانت من الارتفاع بحيث لا تستطيع عينه أن تصل الى قممها كما أن القبة التي تحملها كانت فوق متناول النظر •

وفجأة ارتعد أدونرام فقد تكلم طوبال ـ قابيل قائلا:

<sup>(1)</sup> من الممروف ان هينوش هو ابن قابيل و لد كان الاله المصرى هيرمس عدوا لسلالة قابيل ، ويخلط جيرار هنا عامدا بين التوراة والعقائد المصرية والعربية ، (٢) من أحفاد قابيل ومخترع صناعة الحديد والنحاس ،

الله تطأ بقدميك الآن حجر الزبرجد الذي يعتبر جذرا وركيزة خبر قاف القد أشرفت على أرض آبائك ان هذه الجهات تحكمها سلالة فابيل دون تقسيم فقد استطعنا أخيرا العثور على الحرية تحت هذه القلاع الجرانينية ووسط هذه الكهوف التي لا تصل اليها يد وهنا يلفظ طفيان الغيرة الذي يسيطر على الاله أدوناي أنفاسه ، وهنا يستطيع المرء دون أن ينفوق الموت أن يتغذى على ثمار شجرة العلم » •

وأرسل دونيرام تنهيدة طويلة هادئة • وبدا له كما لو كان ثمة ثقل عنس كان دائما في الحياة يقصم ظهره ، كما لو كان ينزاح من عليه للمرة الاولى •

وفجاة برق وميض الحياة · وبدت الشعوب من خلال تلك الكهوف · كانوا منهمكي في العمل الذي كان يملؤهم نشاطا · وكان رئين المعادن الطرب يدق وخرير المياه يسمع وتختلط به أصوات الرياح · لقد كانت العقبة وقد أصبحت الآن واضحة المعالم تمتد كسماء شاسعة على أغرب الورش وأكثرها اتساعا فتتدفق منها سيولا من الضوء الأبيض المائل للزرقة ، الذي كان يأخذ ألوان قوس قرح وهو يسقط على الأرض ·

واخترق أدونيرام جماعة كانت منهمكة في أعمال لم يتبين الغرض منها · كان ذلك الضوء وتلك القبة السماوية في أحشاء الأرض تدهشه · فنوقف · وقال له طوبال ـ قابيل :

- « انه قدس أقداس النار ومنه تصدر الحرارة التي تدفيء الأرض التي لولانا لماتت من البرد • نحن نعد المعادن ونوزعها في شرايين ها الكوكب بعد أن نحول أبخرتها الى سوائل » •

- « وحين تحتك عروق هذه العناصر المختلفة بعضها بالبعض وتتداخل فوق رءوسنا تصدر عنها أرواح متناقضة تشتعل وترسل هذه الأنواد السديدة ٠٠ التي تبهر عينيك المتعبتين وتنجذب المعادن السسبعة لهذه التيارات فتتبخر في الجو المحيط مكونة تلك السحب الزبرجدية اللازورديه القرمزية الذهبية الفضية التي تتحرك في الفضاء مكونة السسبائك التي تتكون منها أكثر المعادن والأحجار الكريمة وحين تبرد القبة فان تلك السحب المتجمعة تسسقط بردا من الياقوت والزبرجد والزمرد والعقيق والفيروز والماس وتحملها تيارات الأرض مع طائفة من الحمم : أما أحجار الجرانيت والصسوان والجص التي يرتفع عليهسا سطح الأرض فتزوده الجرانيت والصسوان والجمل التي يرتفع عليهسا سطح الأرض فتزوده منتوءات من الجبال ١٠ فده المواد تتجمد باقترابها من مجال البشر ٠٠

ومن طراوة شمس الاله ادوناى ، وهي فرن فاشل لم يكن ليمنح من الطاقة مايتيح له شوى بيضة • وكذلك ماذا كانت تكون حياة الانسان لو لم تزوده سرا بعنصر النار المحبوس في الحجارة وكذلك بالحديد الكفيل باستخراج الشرر ؟

وأرضى هذا التفسير أدونيرام وأدهشه · فاقترب من العمال دون أن يفهم كيف يستطيعون العمل فوق أنهار من الذهب والفضة والنحاس والحديد وكيف يستطيعون فصلها وحبسها وغربلتها كالموج ·

وأجاب طوبال \_ قابيل على تلك الفكرة التي راودت خاطره قائلا:

- « ان تلك العناصر قد تحولت الى السيولة بفعل الحرارة المركزية · ان الحرارة التي كنت تصهر ان الحرارة التي كنت تصهر فيها المعدن في أفرانك » ·

وارتاع أدونيرام ودهش كيف تتسنى له الحياة ٠

وأردف طوبال \_ قابيل قائلا:

- « ان تلك الحرارة هي الحرارة الطبيعية للنفوس التي انسلخت من عنصر النار ، لقد وضع أدوناى شرارة لا تكاد ترى وسط القالب الطيني الذي صنع منه الانسان وكانت تلك الشرارة كافية لتدفئة الكتلة وبث الحياة فيها وجعلها تفكر ، ولكن في عل فان تلك النفس تقاوم البرودة ومن هنا تأتي الطاقة المحدودة لمواهبكم ، ثم يحدث أن تنجذب تلك الشرارة بفعل الجاذبية المركزية فتموتون » ،

ولما فسرت لأدونيرام الخليقة على هذه الصورة سرت فيه حركة من الازدراء ·

واردف المرشد قائلا :

- « نعم ١٠ الاله أدوناى يتسم بقوة أقل مما يتسم به من دقة كما أن غيرته أقل من كرهه ١ لقد خلق الانسان من طين رغم ارادة الجن المخلوقين من النار ١ ثم ارتاع للعمل الذى خلقه وللاستلطاف الذى أبداه الجن نحو هذا المخلوق فكتب عليه ، دون أن تأخذه شفقة بدموعهم ، الموت ١ ذلك هو مبدأ الحلاف الذى يفرق بيننا ١ ان الحياة الأرضية كلها النابعة من النار تجذبها النار القائمة في المركز ٠ ولقد أردنا بالتبادل أن تنجذب

- « الا أن أدوناى الذى يسيط حول العوالم المختلفة أحاط الأرض بسياج ومنع حدوث تلك الجاذبية الخارجية ، وسيحدث نتيجة لذلك أن تموت الأرض كما يموت ساكنوها ، لقد أدركها الهرم منذ الآن والبرودة تزداد نفاذا اليها شيئا فشيسيئا واختفت أجناس كاملة من الحيوانات والنباتات ، والسلالات تضعف ومدة الحياة تقصر ، ولم تتلق الأرض ، التى تجمد نخاعها وجف ، من المعادن البدائية السبعة الا خمسة حتى الآن (١) حتى الشمس تبهت ولابد أن تنطفىء في بحر خمسة أو سيستة آلف من السنين ، ولكن لا يتعين على وحدى يا بنى أن أكشف لك عن عذه الغوامض فسوف تسمعها من أفواه الناس ، أجدادك » ،

<sup>(</sup>۱) تلك الاساطي التى يقصها نرفال ليست كلها مستقاة من مصادر شرقية فقد عرفت العصود الوسطى الاوربية اسطورة المعادن السبعة عده ، كما أنها مدكورة في التلمود وكل منى هذا الفصل من معلومات علمية مختلط وغير موثوق بصحته .

# ـ ٧ ـ العالم تحت الأرضى

ودخلا معا الى حديقة تضيئها النوار رقيقة لنار هادئة مليئة بأشجار غير معروفة تتكون أوراقها من ألسنة صغيرة من اللهب وتضفى على الأرض الزبرجدية بدل الظلال مزيدا من الضوء وتزينها زهور ذات شكل غريب وألوان زاهية مذهلة ٠ كانت هذه الزهور التى تفتحت بفعل النار الكامنة في أرض المعادن هي أكثر ما صدر عن هذه المعادن سيولة ونقاء ٠ كانت أشيجار المعدن المزهر تشع كما لو كانت من الأحجار الكريمة ويصدر عنها عبير كعبير العنبر واللبان الجاوى والمر والبخور ٠ وفي مكان ليس بالبعيد كانت ثمة جداول من النفط تتلوى وتروى زهور الزنجفر (١) وهي ورود هذه الللاد تحت الأرضية ٠

كان ثمة بعض الشيوخ العمالقة يتنزهون ، وقد فصلت أجسامهم على مقاس هذه الطبيعة الفياضة القوية ، وتحت مظلة من الضوء الشديد اكتشف أدونيرام صفا من التماثيل العملاقة وقد جلست في طابور ، كانت هذه التماثيل تصور الملابس المقدسة والنسب السامية والمظهر الأخاذ لتلك الأشكال التي كان قد رآها من قبل في كهف لبنان وقد رأى في هذه التماثيل أسرة أمراء هينوشيا المندثرة ، ورأى بالقرب منهما جالسلة القرفصاء القردة الشبيهة بالكلاب والأسود المجنحة والأعقب (٢) وتماثيل أبي الهول المبتسمة الغامضة ، وهي أجناس حكم عليها بالموت وجرفها الطوفان وخلدتها ذاكرة البشر ، كان هؤلاء العبيد الذين يجمعون بين

<sup>(</sup>١) أكسيد الزائبق وهو أحمر اللون ٠

 <sup>(</sup>۲) جمع عقاب

الجنسين الذكر والأنثى يحملون العروش الثقيلة المصمتة · انها تماثيل طيعة لا حراك لها ومع ذلك فقد كانت ممتلئة حياة ·

كان هؤلاء الأمراء أبناء آدم ساكنين سكون الأبد وكان يبدو أنهم محلمون وينتظرون •

ولما وصل أدونيرام الى نهاية الصف استمر فى سيره موجها خطاه نحو حجر ضخم مكعب أبيض كالثلج ٠٠ وهم بوضع قدمه على هسذا الحجر ، حجر الفتيلة ، غير القابل للاحتراق ٠

فصاح فيه طوبال \_ قابيل قائلا:

حقف! اننا تحت جبل سرنديب وسوف تطأ قبر المجهول قبر أول من ولد على الأرض • ان آدم يرقد تحت هذا الكفن الذى يحفظه من النار ولن ينهض من رقدته الا في آخر يوم من أيام الأرض • لقد ظل قبره رهينة في يدنا وفيه فديتنا • ولكن استمع ، ان أبانا المسترك يدعوك •

كان قابيل جالسا القرفصاء في وضع أليم · ونهض وكان جماله يفوق جمال البشر وكانت نظرته حزينة وشفتاه شاحبتين · كان عاريا وكان يلف رأسه المهمومة بثعبان من الذهب بدلا من التاج · كان الانسان التائه يبدو كما لو كان ما زال منهكا · وقال له :

\_ ليكن النوم والموت معك يابنى • أيها الجنس المسخر المضطهد اننى سبب عذابك • لقد كانت حواء أمى وقد دس ابليس ملك النور فى صدرها الشرارة التى تحيينى والتى جددت جنسى • أما آدم المصنوع من الطين والذى يضم جسده روحا أسيرة فقد غذانى •

لقد كنت أنتمى الى جنس متوسط بين الانس والجن (١) وكنت أحب الانس خليقه أدوناى فوضعت فى خدمة البشر الجهسلة الضيعاء ذكاء الجن الكامن فى وقد غذيت من غذائي فى شيخوخته ورعيت طفولة هابيل ٠٠ الذى كانوا يسمونه أخى ٠ يا للأسف!

\_ وقبل أن أعلم الأرض القتلل كنت قد عرفت الجحود والظلم والمرارات التى تفسد القلب ولقد جعلت من حياتى تضحية حين أخذت أعمل دون هوادة منتزعا غذاءنا من قلب الارض الشحيحة مخترعا من أجل سعادة الناس المحلويث التى تجبر الأرض على الانتلاج خالقا من

<sup>(</sup>١) اشارة الى الفكرة القائلة بأن ابليس قد اتصل بحواء ٠

أجلهم وسط الرخاء العميم جنات عدن التي كانوا قد فقدوها · يا للظلم الأقصى ! لم يكن آدم يحبني ! وكانت حواء ما تزال تذكر أنها طردت من الجنة لأنها ولدتني فمنحت قلبها الذي أغلقته المنفعة الذاتية لهابيل · وكان هو ، الطفل المدلل المتعالى ، يعتبرني خادما لكل منهم · وكان أدوناى معه فماذا كان ينقص اذن ؛ ولذلك فبينما كنت أروى بعرقي الأرض التي كان يشعر أنه ملك عليها ، هو العاطل المدلل ، كان هو يرعي قطعانه وهو ينعس تحت أشجار الجميز · فلما شكوت ابتهل والدانا الى عدالة الله · وقدمنا اليه قرابيننا · أما قرباني وهو باقات من القمح المبكر غرستها بنفسي فقد ألقيت في ازدراء · وهكذا كان هذا الإله الغيور يرفض دائما الذكاء المخترع الخصب ويمنح القوة مع حق الطغيان الى العقول المبتذلة · وأنت تعلم بقية القصة · ولكن ما تجهله هو أن حقد أدوناى الذي فرض على العقم قد زوج هابيل من أختنا أكلينيا التي كانت تحبني ·

ومن هنا بدأ الكفاح الأول للجن المخلوقين من النار ، الالوهيم ضد أبناء أدوناى المخلوقين من طين ·

\_ وأطفأت قنديل هابيل ٠٠٠ وعاد آدم الى الوجود فيما بعد فى ذربة «شيث» ولكى أمحو جريمتى جعلت من نفسى فاعل خير بالنسبة لأبناء آدم و وانهم لمدينون لجنسنا ، وهو أرقى من جنسهم ، بكل الفنون والصناعة وعناصر العلوم و يا للجهود الضائعة ! فحين علمناهم جعلناهم أحرارا ٠٠ ولم يغفى لى أدوناى أبدا ، كان يعتبر أن تحطيمى لآنية من الفخار جريمة لا تغتفر وهو الذى أغرق في مياه الطوفان بضعة آلاف من البشر! هو الذى صب عليهم كل هؤلاء الطغاة ليقتل منهم العشر و

وحينئذ تكلم قبر آدم وقال الصوت العميق:

- « انك أنت الذى خلقت القتل · ان الله ينتقم من أبنائى من دم حواء الذى خرجت منه والذى أرقته! وبسببك أثار الله رجال الدين الذين قتلوا الناس والملوك الذين قتلوا رجال الدين والجنود · وسوف يخلق يوما ما أباطرة يطحنون الشعوب ورجال الدين والملوك أنفسهم وسوف تتول الأجيال القادمة للأمم: « هؤلاء هم أبناء قابيل! » ·

وانتفض ابن حواء في يأس وصاح قائلا : ــ « هو أيضا لم يغفر لي أبدا » ·

فأجاب الصوت قائلا .

- « أبدا ! » وسمع من أغوار الهوة السميقة يئن قائلا :

« هابیل ، ابنی ، هابیل ، هـابیل ! ۰۰۰ ماذا فعلت بأخیـك مابیل ؛ ۰۰ » ۰

وتدحرج قابيل على الأرض التي رنت لاصطدامه بها ومزقت تشنحات اليأس صدره •

هذا هو العذاب الذي يتعرض له قابيل لأنه أراق الدم ٠

واستدار أودنيرام وقد امتلأ بمزيج من الاحترام والحب والشفقة والارتياع •

وقال هينوش الجليل وهو يهز رأسه المغطى بتاج مرتفع:

« وأنا ، ماذا جنيت ؟ كان البشر يجوبون الارض كالقطعان فعلمتهم نحت الأحجار وبناء المبانى والتجمع فى المدن • وكنت أول من أوحى لهم بروح المجتمعات • لقد جمعت قطعانا من البهائم • • وخلفت ورائى فى مدينتى هينوشيا أمة مازالت أطلالها تثير دهشة الاجناس المنحلة • وبفضلى يشيد سليمان معبدا لأدوناى وسوف يتسبب هدا المعبد فى موته لان اله العبرانيين ، يابنى ، قد تعرف على ذكائى وفنى فى الاعمال التى صنعتها يداك » •

وتأمل أدونيرام هسندا الطيف الكبير · كان لهينوش لحيسة طويلة مضفرة · وكان تاجه المزين بشرائط حمراء وبصفين من النجوم تعلوه نقطة تنتهى بمنقار صقر · وكان ثمة شريطان « بفرنشات » ويتدليان فوق شعره ومعطفه · وكان يمسك باحدى يديه صولجانا طويلا ويمسك بالأخرى مثلثا · وكانت قامته العملاقة تفوق في الطول قامة أبيه قابيل · وبالقرب منه وقف « ايراد » و « مافيائيل » وقد غطيا رأسيهما بشرائط بسيطة · وكانت الأساور تلتف حول أذرعتهما · وكان الأول قد تمكن فعلا من سجن النافورات · أما الثاني فقد انتزع قشور أشجار الأرز · وكان ماتوزاييل قد اخترع حروف الكتابة وترك كتبا استولي عليها بعد وكان ماتوزاييل قد اخترع حروف الكتابة وترك كتبا استولي عليها بعد ماتوزاييل يحمل على كتفه معطف رجل الدين ويحمل على جانبه سيفا ماتوزاييل يحمل على كتفه معطف رجل الدين ويحمل على جانبه سيفا في باطن الأرض ، انها كتب التو · وكان ماتوزاييل يحمل على كتفه معطف رجل الدين ويحمل على جانبه سيفا المنحدرين من الجن المخلوقة من النار يلمع ببريق نارى ·

وبينما كان أدونيرام يتأمل ملامح لاميش الباسمة ، وقد تغطت خراعا هذا الأخير بجناحين مطويين تخرج منهما يدان طويلتان تستندان الى رأس شابين جالسين القرفصاء غادر طوبال ـ قابيل الفنان الذي يتولى حمايته واتخذ مكانه على عرش الحديد · وقال لأدونبرام:

- ها أنت ترى وجه أبى المبجل · أما هؤلاء الذين يداعب شعرهم فهم أبناء آدا : يابيل الذى أقام الخيام وتعلم حياكة جلود الجمال ويوبال أخى وهو أول من شد أوتار القيثارة المثلثة والقيثارة (هارب) واستطاع استخراج الأنغام منها ·

وأجاب يوبال بصوت منسجم النبرات كرياح المساء:

يابن لاميش وسيلا ، انك أكبر من اخوتك وأنت تحكم أجدادك ومنك نبعت فنون الحرب والسلام ، لقد قهرت المعادن وأشعلت أول فرن للحدادة ، وحينما منحت البشر الذهب والفضة والنحاس والصلب استبدلتهم بشجرة المعرفة ، ان الذهب والحديد سوف يرفعهم الى قمة القوة والنفوذ ، وسوف يكون هذان المعدنان وبالا عليهم بحيث ينتقمان لنا من أدوناى ، المجد لطوبال \_ قابيل ! » ،

ودوت من كل جانب ضوضاء مروعة ترد على صيحة التعجب تلك التي رددتها من بعيد جوقات الآقزام الذين استأنفوا أعمالهم بحمية جديدة • وأخذت المطارق تدق تحت قباب المصانع الأبدية وشعر أدونيرام • • العامل ، في هذا العالم الذي كان فيه العمال ملوكا ، بسعادة وفخر عميقين •

وقال له طوبال ـ قابيل: يابن الشعب الالهى: الوهيم استعد شيجاعتك ان مجدك فى العبورية ، ان أجدادك قد جعلوا الصاعة البشرية موضع خوف وهذا هو السبب الذى صب اللعنة على جنسان لقد قاوم جنسنا ألفى عام ولم يستطيعوا تحطيمنا لأنها من خلاصة خالدة ولكنهم نجحوا فى قهرنا لأن دم حواء يختلط بدمائنا ، أما أجدادك ، أى أبناء نسلى ، فقد نجوا من مياه الطوفان ، اذ بينما كان جيوفا وهو يعد لتحطيمنا ، يكدسهم فى خزانات السماء دعوت النار لنجدتى ودفعت النيارات السريعة نحو سطح الارض ، بأمرى أذابت النار الحجارة وحفرت أروقة طويلة تصلح لأن تكون لنا مأوى ، وكانت تلك الطرق تحت أروقة طويلة تودى الى سهل الجيزة ليس ببعيد عن هذه الضفاف التى أقيمت عليها فيما بعد مدينة منفيس ، ولكى أحمى هذه الأروقة من غزو المياه عليها فيما بعد مدينة منفيس أيدينا هرما هائلا سوف يعيش طالما عاش حمعت جنس العمالقة وأقامت أيدينا هرما هائلا سوف يعيش طالما عاش

العالم · وقد تم لصق الحجارة في هذا الهرم بقار لا ينفذ منه أي شيء · ولم يفتح فيه سوى دهليز ضيق يغلق بباب صغير بنيت عليه أنا نفسى جدارا في آخر يوم من أيام العالم القديم ·

« ولقد تم حفر المساكن تحت الارضية في الصخور • وكان الدخول اليها يتم عن طريق النزول الى الهوة السحيقة • وكانت تلك المساكن تتدرج بطول رواق منخفض يؤدى الى مناطق المياه التي حبستها في نهر كبير كفيل بارواء الناس والقطعان المختبئة في هذا المأوى • وفيما وراء هذا النهر جمعت الفواكه التي تتغذى من الأرض في مكان فسيح يصاء باحتكاك المعادن •

« هناك عاشت في مأمن من المياه البقية الباقية من سلالة قابيل و وكان علينا أن نتحمل من جديد جميع التجارب التي تحملناها ومررنا بها من قبل حتى نعود فنرى الضوء حينما تعود المياه الى مجاريها و وكانت تلك الطرق محفوفة بالأخطار كما كان المناخ الداخلي قاتلا و وفي أثناء حركات الذهاب والاياب تركنا في كل منطقة بعض الزملاء و ولم يبق منا في نهاية الأمر الا أنا وابنى الذي رزقت به من اختى نويما .

« وفتحت الهرم من جديد ولمحت الأرض · ياللتغيير الذى اعتراها! يا للصحراء · · والحيوانات الكسيحة والنباتات الذابلة والشمس الشاحبة عديمة الحسرارة ، وهنا وهناك أكوام الطمى العقيم الدى تسعى فيه الزواحف ·

وفجأة هبت رياح ثلجية محملة بعفن ملوث ونفذت الى صدرى فجففته ولما شعرت بالاختناق لفظت هذا الريح ثم عدت فاستنشقته ثانية حتى لا أموت ولا أدرى أى سم بارد هذا الذى سرى فى عروقى فخارت قواى وانثنت ساقاى واحاط بى الليل من جميع الجهات وتملكتنى قشعريرة سوداء ولقد تغير مناخ الأرض ولم تعسد التربة التى بردت تمتص من الحرارة ما يكفى لاحياء ما كانت تحييه فى الماضى وكما يحدث خوت انتزع من جوف البحار وقذف به الى الرمال شعرت بالاحتضار وفهمت أن ساعتى قد دنت و وهما وفهمت أن ساعتى قد دنت و وهما به الى الرمال شعرت بالاحتضار

« ودفعتنى غريزة حب البقاء الى الهرب فلما عدت تحت الهرم فقدت وعيى • وكمان الهرم هو قبرى • ولما تحررت روحى اجتذبتها النار الداخلية فعادت تبحث عن أرواح آبائى • أما ابنى الذى أدرك بالكادسن النصج فقد كان مازال ينمو واستطاع الحياة • الا أن نموه قد توقف •

« وأصبح ضالا كما هو مقدر على جنسنا ورأت امرأة حام (١) ، نانى أبناء نوح ، أنه أجمل من أبناء البشر · وعرفها وأثمرت علاقتهما مولد « قوس » أبى النمرود الذي علم اخوته فن القنص وأسس مدينة بابل · وقد شرعا في اقامة برج بابل ·

تعرف أدوناى على دم قابيل وبدأ من جديد فى اضطهاده وتفرقت من جديد سلالة النمرود · وسوف يكمل صوت ابنى لك هذه القصة الأليمة » ·

وتلفت أدونيرام حوله في قلق بحثا عن ابن طوبال - قابيل · وتكلم من جديد أمير جن النار قائلا : « انك لن تراه أبدا فان روح ابني لا يمكن رؤيتها لانه مات بعدد الطوفان ولأن هيكله الجسدي يمت الى الارض · وكذلك الأمر بالنسبة لسلالته · وإن أباك يا أدونيرام ضال في الهواء الملتهب الذي تستنشقه · نعم أباك · ح « أباك ، نعم أباك » هذا ما كرره كما يتردد الصدي ولكن بلهجة رفيعة صوت مر كما تمر القبلة على جبين أدونيرام •

ولما التفت الفنان أجهش بالبكاء ٠

وقال طوبال \_ قابيل :

- « طب نفسا فهو أسعد منى حالا · فقد تركك فى المهد ولما كان جسدك لا يمت بعد الى الأرض فقد سعد برؤية صورته · ولكن اصـــغ بانتباه الى كلام ابنى » ·

وحينئذ تحدث صوت قائلا:

« اننى أنا وحدى من بين الجن الفانية من جنسنا الذى رأيت العالم قبل وبعد الطوفان وتأملت وجه أدوناى · وكنت أتوقع مولد أحد أبنائى حين جثمت ريح الارض العتيقة الباردة على صدرى · وذات ليلة تجلى لى الله · ان وجهه لا يمكن وصفه · وقال لى :

« تذرع بالأمل ٠٠٠ »

وأجبت في استحياء وقد خلا وفاضي من التجارب وكنت وحيدا في عالم مجهول:

ـ أخشى يامولاى ٠٠٠

<sup>(</sup>۱) يقول التلمود انها زوجة نوح نفسه التي اخلطت جنس الجن بجنس البئر حينما استجابت لاغراء جني ١٠

#### فأردف قائلا:

\_ سوف يكون في هذا الخوف سلامك • سوف تموت وسوف يكون اسمك مجهولا من اخوتك ولن يكون له صدى على مر العصور • ومنك سوف يولد ابن لن تراه • ومنه سوف يخرج مخلوقات تضيع وسلط الجموع كما تضيع النجوم السيارة وسط السماء • يا ابن العمالقة لقد وسوف يتقاسمون العزلة • وسوف تولد سلالتك ضعيفة وستكون حياتهم قصيرة • وسوف يتقاسمون العزلة • وسوف تحتفظ روح الجن في صدرها بشرارتها الشيئة وسوف تكون عظمتهم سببا في عذابهم • سوف يحستون الى البشر لأنهم أرقى منهم كما سيكونون موضع ازدرائهم • ان قبورهم وحدها هي التي ستمجد • وسوف يجهل الناس قدرهم طيلة اقامتهم في الارض وسيكون لديهم الشعور بقوتهم وسلوف يستعملون هذه القوة لمجد وسيكون لديهم الشعور بقوتهم وسلوف يستعملون هذه القوة المجد الآخرين • وسوف يتأثرون لآلام البشرية ويريدون انذار الناس الا أن أحدا لن يستمع اليهم • وسوف يخضعون لألوان من النفوذ قليلة الشأن الأنهم سيكونون العوبة الترف والغباء السعيد •

وسوف يؤسسون شهرة الشعوب دون أن يشاركوا فيها في حياتهم وسيطلون هم وحدهم ، وهم عمالقة الذكاء وشعلات المعرفة وأجهزة التقدم وأنوار الفنون وأدوات الحرية ، سيظلون هم وحدهم عبيدا محتقرين منعزلين • ان قلوبهم الرقيقة ستكون نهبا للغيرة ونفوسهم القوية ستكون مشلولة بالنسبة للخير • • وسوف ينكرون بعضهم البعض •

#### و صحت قائلا:

ــ أيها الاله القاسى ، لا أقل من أن تكون حياتهم قصيرة وتحطم الروح الجسد .

« كلا لأنهم سوف يغذون الأمل الذى لا ينى يخيب ثم يحيا من جديد وكلما عملوا بعرق جبينهم بدا الناس جاحدين بالنسبة لهم • سبوف يمنحون الناس جميع المتع ويحصلون على جميع الآلام • ان عبء الأعمال الذى أنقلت به كاهل بنى آدم سوف يزداد ثقلا على أكتافهم وسوف يتبعهم الفقر وستكون الأسرة بالنسبة لهم رفيقة جوع • وسواء أكانوا موالين أو ثوارا فسيكونون على الدوام موضع تحقير وسيعملون للجميع وينفقون العبقرية والصناعة وقوة أذرعهم بلا جدوى •

وقال يهممووا: وتحطم قلبي ولعنت الليلة التي جعلت مني أبا ولفظت أنفاس ·

وراح الصوت تاركا وراءه ذيلا طويلا من التنهدات · واستأنف طويال \_ قابيل حديثه قائلا :

انك تراه وتسمعه وقد قدمنالك مثالنا ، لقد كنا نحن الجنالخيرون صناع معظم الانتصارات العبقرية التي يفخر بها الانسان ، كنا في عينيه الجن الملعونة أشباح الشر ، يابن قابيل تحمل مصييك واحمله بجبين لا يضطرب حتى ينهار الاله المنتقم أمام ثباتك ، لتكن عظيما أمام الناس وقويا أمامنا ، لقد رأيتك على وشك الانهيار يابني وأردت أن أساند فضيلتك ، وسوف تأتى جن النار لمساعدتك ، لتكن ، جريئا على كل شيء فقد كرستك المقادير لفناء سليمان هذا الخادم المخلص لأدوناي ، ولسوف يولد منك نسل من الملوك يعيدون اقامة الدين الذي أهمل ، دين النار العنصر المقدس ، في مواجهة يهووا ،

وحينما تختفى من الأرض سوف يختلط اسمك بخبث العامل الذى لا يكل ، وسوف يقوم جيش العمال والمفكرين يوما بالاقلال من شأن قوة الملوك الغاشمة ، وزراء أدوناى الطغاة ، اذهب يا بنى واكمل أقدارك . . .

ولدى هذه الكلمات شعر أدونيرام بالحماس يملأ نفسه واختلطت تنحت أقدامه فى خط عريض من النور وفى نهر من النار حديقة المعادن وزهورها التى يخرج منها الشرر وأشجارها المخلوقة من النور والورش الهائلة المزدهرة التى يعمل فيها الاقزام والجداول المضيئة التى ينساب فيها الدهب والفضة والكاديوم (۱) والزئبق والنفط وفهم أنه يمر فى الفضاء بسرعة النجم وأخذ كل شىء يظلم تدريجيا : وبدت له دنيا أجداده لحظة كما لوكانت كوكبا لا يتحرك وسط سماء مظلمة وضربت ريح رطبة وجهه وشعر برعدة وتلفت بعينيه فيما حوله واستعاد رؤية نفسه وقد رقد على الرمل تحت قالب بحر الفولاذ وقد أحاطت به الحمم السائلة وقد بعض الشيء وما زالت ترسل وسط ضباب الليل ضوءا صدئا وقد بردت بعض الشيء وما زالت ترسل وسط ضباب الليل ضوءا صدئا و

وقال لنفسه انه حلم! أكان اذن حلما ؟ يا للتعس!

<sup>(</sup>۱) معدن شبيه بالزنك ويوجد دائما معه في طبقات الارض ٠



وسمع أدونيرام صوت قطعة من الحديد تسقط · فانحنى والتقط مطرقة ثقيلة ولكنها حسنة الاتزان بالنسبة لليد · وأراد التعبير عن امتنانه الا أن الطيف كان قد اختفى وكان الفجر الوليد قد بدأ يذيب نار النجوم ·

وبعد لحظة ولت الطيور التي كانت قد بدأت تغاريدها الأدبار لدى صوت مطرقة أدونيرام التي أخذت تضرب في طرقات مزدوجة على حواف الحوض فاضطرب لها السكون العميق الذي يسبق مولد النهار •

ولقد أثر هذا المشهد في الحاضرين تأثيرا قويا فازداد عددهم في اليوم التالى • وتحدث الناس عن عجائب جبل قاف التي ما زال الشرقيون يهتمون بها اهتماما شديدا • أما بالنسبة لى فقد بدا لى كل هذا كلاسيكيا مثله مثل مهبط اينيوس في الجحيم •

### ٨ - مغسل سيلو

راستانف الراوي حديته قائلا:

كانت تلك هي الساعة التي تلقى فيها قمة الجبال المسماة ب البور » ظلها الصباحي على طريق بيثانيا الصاعد • وكانت ثمة بعض السحب البيضاء الشفافة تجوب بساط السماء ملطفة من وضح الضوء الصباحي • وكان الندى ما زال يضفى على المراعى لونا ماثلا للزرقة ، وكان النسيم يصاحب بحفيفه وسط أوراق الاشجار تغاريد الطيور التي تطير على جانبي طريق موريا • ومن بعيد كانت تبدو المعاطف والثياب الحريرية الخفيفة لموكب من النساء يعبر قنطرة فوق جدول أبو سيدر لكي يبلغ ضفاف جدول يمده مغسل سيلو بالمياه • وكان يسير خلف هؤلاء النسوة ثمانية من النوبيين يحملون سريرا بادى الثراء ، وجملان يسير ن محملين وهما يطوحان رأسيهما يمينا ويسارا •

وكان السرير خاليا لأن ملكة سبأ كانت قد نزلت منه فقد غادرت منذ الفجر مع حاشيتها من النساء الخيام التي أصرت على الاقامة فيها مع تابعيها خارج أسوار أورشليم لكي تستمتع بسحر ذلك الريف الجميل وطراوته •

وتوجهت تابعات بلقيس وجلهن شابات جميلات ، منذ البكور الى النافورة ليغسلن ثياب سيدتهن وقد سبقتهن هى في ملابس في مثل بساطة ملابسهن ، تصاحبها مربيتها حينما سارت في اثرها تلك الشابات وهن ينرثرن في مرح .

وقالت المربية:

- « ان الأسباب التي تبدينها يا ابنتي لا تأثير لها في • ويبدو لي

هذا الزواج كما لو كان ضربا خطيرا من الجنون · واذا كان من المكن تلمس الأعذار للخطأ فما ذلك الا للمتعة التي يقدمها » ·

- تلك حكمة بناءة! آه لو سمعك سليمان الحكيم ٠٠٠
- أهى اذن من الحكمة ، بعد أن تخطى سن الشباب ان يصبو الى زهرة السبئين ؟
- هذا نوع من التملق! وانك لتبالغين فيه يا ساراحيل بطبيعتك ٠
- لا توقظي في نفسي القسوة التي ما زالت نائمة · أود أن أقول · ·
  - ـ قولي اذن
  - ـ انك تحبين سليمان وربما كنت جديرة به ٠
    - فأجابت الملكة الشابة ضاحكة:
- ــ لا أدرى ولقد ساءلت نفسى جديا فى هذا الصدد وربما كان الملك يثير فى شيئا من الاهتمام ·
- لو كان الائمر كذلك لما درست تلك النقطة الدقيقة بكل هذه العناية والتدقيق كلا انك تهدفين الى رباط سياسى وتلقين بالزهور فوق طريق المجاملات المجدب لقد فرض سليمان بسلطانه الجزية على بلادك وأنت تسعين الى تخليصها بأن تحصلى لنفسك على سيد فى نيتك أن تجعلى منه عبدا ولكن خذى حذرك •
  - ـ وماذا أخشى ؟ أنه يعبدنى •
- مد انه یکن لشخصه العظیم عاطفة من القوة بحیث لا تتیح لمشاعره بالنسبة لك أن تتعدی الرغبة الحسیة ، ولیس ثمة ماهو أو هی منها ۱ ان سلیمان عمیق الفكر طموح بارد ۰
- ـ أليس هو أعظم أمراء الارض وأنبل أبناء جنس سام الذى انحدر منه لا أبحثي لى ضمن أمراء الأرض عمن هو أجدر منه ينجب خلفاء لأسرة الحميريين !
- ... ان سلالة الحميرين ، أجدادنا ، تنحدر من أعلى مما تتصورين · أتتصورين أبناء سام يحكمون سكان الجو ؟ · · انى أستند الى تنبؤات العرافين · · ان أقداركما لم تتم بعد ، والعلاقة التي تتعرفين بها على

زوجك لم تظهر بعد ، ولم يترجم الهدهد بعد ارادة القوى الخالدة التي تتولى حمايتك .

ـ أمصيري مرتبط اذن بارادة طائر ؟

- انه طائر فريد في العالم لا يمت ذكاؤه للأنواع المعروفة · ولقد قال في تبير رجال الدين ان روحه مأخوذة من عنصر النار · انه ليسى حيوانا أرضيا فط وهو ينتمي الى الجن ·

وأردفت بلقيس قائلة:

ــ حقا ان سليمان يحاول عبثا استئناسه ويقدم له دون جدوى أما كتفه أو قبضة يده ·

اخشى أنه لن يستكين عليها أبدا · ففى الوقت الذى كانت فيه الحيوانات خاضعة ، وقد انقرض جنسها ، لم تكن تطبيع أبدا الرجال المخلوقين من طين · كانوا ينحدرون من السلالات المختلطة بين الانسروالجن أو من الجن أبناء الجو والنار · أما سليمان فهو من سلالة خلقها أدوناى من طبن ·

- ومع ذلك فأن الهدهد يطيعني ٠

وابتسمت ساراحيل وهزت رأسها · فقد كانت مربية الملكة ، وهي أميرة من دم الحميرين وتربطهما صلة قرابة بآخر ملك من ملوكهم متعمقة في العلوم الطبيعية : كان ما تتسم به من حذر يعادل تميزها وطيبتها ·

وأضافت قائلة:

- أيتها الملكة ، ثمة أسرار تعلو على سنك ، ويجب أن تظل بنات بيتنا جاهلة بها قبل أن يتزوجن ، فلو أضلتهن العاطفة أو استقطتهن فان هده الاسرار تظل مغلقة بالنسبة لهن حتى يظل عامة الناس في معزل عنها الى الأبد ، ويكفيك أن تعلمي أن الهدهد ، تلك القبرة الشهيرة ، لن يعترف بسيد سوى الزوج المكرس لأميرة سبأ ،

- انك تجعلينني ألعن هذا الطغيان المغطى بالريش .
- ومع ذلك فقد يكون هو الذي سينقذك من طاغية يحمل السيف.
- ــ لقد حصل سليمان على كلمة منى · ولقد تقرر المصير ياساراحيل الا لو أردنا اثارة أحقاده الصائبة · ولقد انتهت المهلة والليلة بالذات ·

وهمهمت المربية قائلة:

-- أن قوة الآلهة كبيرة •

ولكى، تنهى بلقيس الحديث استدارت وأخذت تجمع زهور السوسن واللقاح وبخور مريم التى كانت تنشر ألوانا عديدة على خضرة المراعى حينما أخذالهدهد الذى كان قد تبعها وهو يطير على انخفاض يحوم حولها فى خيلاء كما لو كان يطلب منها العفو .

وأتاح توقف الملكة هذا الفرصة للنساء المتأخرات في اللحاق بمولاتهن · كن يتحدثن فيما بينهن عن معبد أدوناى الذى اكتشفت جدرانه وعن بحر الفولاذ موضوع جميع الاحاديث منذ أربعة أيام ·

واستولت الملكة على هذا الموضوع الجديد وأحاطت بها تابعاتها في حب استطلاع • وكانت أشجار الجميز الكبيرة التي كانت تنشر فوق رءوسهن منظرا عربيا أخضر ذا خلفية زرقاء تحيط هذه المجموعة الساحرة من النساء بظلالها الشفافة •

وقالت لهن بلقيس :

ليس ثمة ما يعادل الدهشدة التي أخذتنا أمس مساء ٠

لقد ذهل سليمان نفسه ففقد القدرة على الكلام • ومنذ ثلاثة أيام فقط اعتقد البجميع أن كل شيء قد ضاع ، وسقط الفنان أدونيرام مصعوقا فوق أطلال ما بناه • ولقد ذاب مجده أمام أعيننا وسط سيول الجمم الثائرة وغاص الفنان في العدم • أما الآن فان اسمه المنتصر يدوى فوق التلال وقد أقام عماله على عتبة داره كومة من السعف • انه أكبر مايكون الآن في اسرائيل • وقال صبية (سبئية :)

ـ ان الضبجة التي أحدثها انتصاره قد وصلت الى خيامنا · ولقـ د جعلنا الاضطراب الذي اعترانا لذكرى الكارثة السابقة ، أيتها الملكة ، نر تعد خوفا على حياتك · ان فتياتك يجهلن ما حدث ·

ــ أدونيرام كما قيل لى لم ينتظر أن يبرد المعدن المصهور · واستدعى اليه منذ الصباح العمال الذين أثبطت شجاعتهم · وتجمع حوله رؤساؤهم الثائرون فهدأ من روعهم ببعض الكلمات ·

وانهمكوا في العمل طيلة ثلاثة أيام · وخلصوا القوالب حتى يسرعوا بتبريد الحوض الذي كانوا يظنونه قد تهشم · لقد كان ثمة لغز عميق يحيط بخطتهم • وفي اليوم الشالث سبق هؤلاء الصناع العديدون الفجر ورفعوا النيران والأسود الفولاذية بروافع كانت ما تزال مسودة من حرارة المعدن • وجرت تلك الكتل الصماء تحت الحوض وثبتت في أماكنها بسرعة تمت الى المعجزات • وهكذا بدا بحر الفولاذ وقد تجوف وعزل عن حمالاته وارتكز على تماثيله الأربعة والعشرين • وبينما كانت أورشليم تشكو من تلك النفقات الباهظة عديمة الجدوى كان العمل الفني الرائع يتألق أمام أنظار صانعيه ودهشتهم • وفجأة رفعت الحواجز التي كان العمال قد أقاموها واندفعت الجموع • وانتشرت الضجة حتى وصلت الى القصر • وخشي سليمان أن يكون في الأمر ثورة فهرع وسرت برفقته • كان هناك جمهور غفير يندفع متبعا خطواتنا • واستقبلنا مائة ألف عامل اعتراهم جنون الفرح و توجوا رءوسهم بسعف النخل الأخضر •

ولم يستطع سليمان تصديق عينيه · لقد كانت المدينة بأسرها ترفع اسم أدونيرام الى عنان السماء ·

- يا للانتصار الرائع! كم لابد أن يكون سعيدا!

\_ هو! انه عبقریة فذة ٠٠ وروح عمیقة غامضة! لقد دعوه بناء علی طلبی و بحثوا عنه وهرول العمال من کل جانب ٠٠ ولکنها کانت جهودا دون جدوی! لقد اختفی أدونیرام ازدراء منه لانتصاره و تجنبا للمدیح ٠ کان النجم فی حالة کسوف ٠ وقال سلیمان : هیا بنا ان ملك الشعب قد صب غضبه علینا ٠ أما أنا فقد کانت نفسی حزینة وأنا أغادر ساحة معرکة العبقریة ، کما کان فکری مضطربا لذکری هذا الکائن البشری الزائل العظیم بأعماله والأعظم باختفائه فی مثل هذه اللحظة ٠

وقالت عذراء من سبأ:

- لقد رأيته ذات يوم يمر · ومر لهب عينيه بخدى فسبب لهما الاحمرار · ان له جلال الملوك ·

وأضافت احدى رفيقاتها قائلة:

- ان جماله يفوق جمال أبناء البشر وقامته مهيبة ومنظره ساحر · ان فكرى ليتمثل الآلهة والجن في صورته ·

- أظن ان أكثر من واحدة منكم على استعداد لربط مصيرها بمصير أدونيرام الكريم ؟

ــ أيتها الملكة ! من نكون نحن أمام هذه الشخصية العظيمة ؟ انروحه قد ارتفعت الى عنان السماء ولن يهبط هذا القلب الفخور الى حيث نكون٠

وكانت أغصان الياسمين المزهرة التي تشرف عليها أشجار التربنتينا والأكاسيا وقد تخللتها نخلات قلائل كانت تميل برءوسها الساهمة ، كانت تحيط بمغسل سيلو ، هنا كانت تنمو أشحار الحبق والسوسن والزعتر ورعى الحمام وورد « سارون » القانى ، وتحت هذه الاحراش المتشابكة من أشجار الزهور كانت تنتشر هنا وهناك مقاعد ترجع الى قرون طويلة كانت تنساب تحتها جداول الماء الرطب المنحدرة من النافورة ، كان هذا المتنزه محاطا بأشجار اللبلب التي كانت تلتف حول الاغصان ، وكانت أشجار «الابيوس» (١) ذات العناقيد المحمرة المعطرة و «الجليسين» حالسويا الزرقاء تنطلق في تعاريج عبقة رشيقة حتى قمم أشجار الابنوس الشاحبة المرتعدة ،

وفى اللحظة التى غزا فيها موكب ملكة سبأ ضفاف النافورة كان ثمة رجل يجلس على حافة الحوض وقد ترك احدى يديه لمداعبة الموج وحين فاجأه الموكب نهض بغية الابتعاد وكانت بلقيس أمامه فرفع عينيه الى المسماء واستدار بمزيد من السرعة .

الا أنها كانت أسرع منه فوقفت أمامه معترضة طريقه وقالت:

\_ أيها الفنان أدونيرام لماذا تتحاشاني ؟

وأجاب الفنان قائلا:

ـ انى لم أحاول أبدا الاختلاط بالناس وأخشى وجه الملوك •

وأجابت الملكة برقة نفاذة انتزعت نظرة من الفنان الشاب :

ـ أهذا الوجه يرى في تلك اللحظة المروعة ؟

ان ما اكتشفه كان أبعد من أن يهدى، روعه · فقد خلعت الملكة مظاهر العظمة ، ولم تكن المرأة في بساطة زينتها الصباحية الا داعية لمزيد من الخوف · كانت قد حبست شعرها تحت ثنيات غلالة طويلة هفهافة ، وكان ثوبها الأبيض الشفاف وقد رفعته النسمة المستطلعة يتيح للعين أن تلمح صدرا كأنه صب داخل كأس · كان شباب بلقيس في تلك الزينة

<sup>(</sup>۱) نبات ذو عناقيد عطرة الرائحة ، وهو من أصل كندى ولم تعرفه أوربا الا في القرن السابع عشر ،

البسيطة يبدو أكثر نضارة ومرحا والاحترام لم يعد يحتوى لا على الاعجاب. ولا على الرغبة • لقد أحدثت تلك المفاتن التي تجهل قدرها وهذا الوجه الذي يشبه وجه الأطفال وتلك الروح العذرية في قلب أدونيرام انطباعة عميقة •

وقال في مرارة:

ما جدوى احتجمازى ؟ يكفينى ما بى من آلام • وليس لديك ما تمنحينه لى سوى مزيد من الألم • ان عقلك سطحى وودك عابر وانك • لا تنصبى الفخ الا لتمعنى فى تعذيب اسراك • • الوداع أيتهما الملكة • لتنسى سريعا ولا تبوحى لأحد بسرك •

وأثر هذه الكلمات الأخيرة التي نطقها أدونيرام بحزن ألقي نظرة على بلقيس • وفجأة اعترته رعدة • كانت بلقيس بحيويتها الطبيعية وعداة الملاء ارادتها والقاء الأوامر لا ترغب في أن يتركها • فتسلحت بكل مالديها من فتنة وأجابت : « انك جاحد يا أدونرام » •

وكان هو رجلا حازما فلم يسلم: « هذا صحيح ، وربما كنت على خطأ اذ لم أذكر ذلك • فقد زارنى اليأس لساعة واحدة فى حياتى وقد استفدت أنت بتلك الساعة فأحرجتنى أمام مولاى وعدوى •

وتمتمت الملكة قائلة في خجل وتأنيب:

\_ لقد كان هناك!

- كانت حياتك في خطر فهرعت لأقف أمامك •

وقالت الأميرة ملاحظة :

- كل هذا الاهتمام وسط مثل هذا الخطر الجسيم! وما هو الجزاء · المنتظر!

كانت براءة الملكة وطيبتها تفرض عليها التأثر بينما كان الازدراء الذي تستحقه من هذا الرجل العظيم الذي أهانته يحفر في قلبها جرحا

وأردف المثال قائلا:

« أما سليمان بن داود فقد كان رأيه لا يقلقنى • انه ينتمى الى . جنس طفيلي حسود مستعبد متنكر تحت الأرجوان • • ان سلطاني في مأمن.

من نزواته • أما الآخرون الذين يبصقون السباب من حولى ، المائة ألف مخبــول بلا قوة ولا فضيلة فانى آبه لهم أقل مما أهتم بخلية ذباب ذى طنين • • أما أنت أيتها الملكة ، أنت التى تبينتك وحدك وسط هذه الجموع انت التى وضعك تقديرى فى مكان حر غاية فى الارتفاع! ان قلبى ، هذا القلب الذى لم يؤثر فيه شىء حتى الآن قد تمزق وانى لقليل الأسف لذلك • • الا أن مجتمع الناس قد أصبح لا يطاق بالنسبة لى • اذ ماجدوى المدائح أو الاهانات التى تتوالى من قريب وتختلط على نفس الشفاه كما يختلط العلقم بالشهد!

- انك قاس بالنسيبة للندم · هل يجب أن أناشدك الرحمة ؟ ألا يكفى · ·

ــ كلا ، انه النجاح الذي تراودينه · ولو أنني كنت ملقى على الأرض الداس قدمك على جبيني ·

\_ الآن ؟ ٠٠ أقول لك بدورى كلا وألف مرة كلا ٠

حسن ! اتركينى اذن أحطم عملى وأشوهه وأعود فأضع الخزى .والعار على رأسى • وسوف أعود تتبعنى صيحات ازدراء الجموع • ولو ظل فكرك وفيا لى فسيكون عارى هو أجمل يوم فى حياتى •

وصاحت بلقيس قائلة في حماس لم تجد الوقت لكتمانه :

\_ اذهب وأفعل ذلك !

ولم يستطع أدونيرام السيطرة على صيحة الفرح التى صدرت منه و بدأت الملكة تتبين نتائج مثل هذا الارتباط المخيف · كان أدونيرام يقف في جلال أمامها لافي ثياب العمال العادية ولكن في الثياب التي تحتمها رتبته على رأس جمهور العمال · كان يلبس معطفا قصيرا أبيض وحينما كانت منطقة عريضة محلاة بالذهب ترفع من قامته · وكان يلف ذراعه الأيمن بثعبان من الصلب تحلى قمة رأسه ياقوته متألقة · وكان يغطى رأسه بغطاء قمعى الشكل يتدلى الى منتصف وجهه ويتدلى منه شريطان يهبطان على صدره · كان جبينه يبدو كما لو كان يحتقر التاج ·

وفى لحظة ما انساقت الملكة وراء الأوهام فيما يختص بمكانة هذا الرجل الجرىء • وما لبث أن عاد اليها صوابها وتمكنت من كبح جماح نفسها ولكنها لم تستطع التغلب على الاحترام الغريب الذى شعرت به يتملكها •

#### وقالت له :

- اجلس ، ولنعد الى مشاعر أكثر هدوءا حتى ولو ثار لذلك عقلك المتحدى ، ان مجدد غال على ، فلا تحطم شيئا ، ان تلك التضحية قد قدمتها وقد قمت أنا باستهلاكها ، ان سعادتى سدوف تتعرض للخطر لذلك ، وأنت تعلم أيها الفنان ان سمعتى قد أصبحت مرتبطة بكرامة الملك سلمان ،

### \_ وتمتم الفنان في لامبالاة :

- كنت قد نسيت ذلك • ويبدو لى أنى سمعت من يقول ان ملكة سبأ سوف تتزوج من ابن مغامرة من بنات مؤاب ، ابن الراعى داود بششبع أرملة أوربا الحثى الزانية • ياللرباط العظيم • • الذى لابد أن يجدد دم الحمدين المقدس !

واحمر خدا الملكة الشابة حمرة شديدة لا سلما وأن مربيتها ساراحيل ، بعد أن وزعت الأعمال على تابعات الملكة اللاتي اصطنعن وانحنين على المفسل ، قد سمعت هذه الاجابة وهي التي تعارض مشروع سليمان معارضة شديدة ، وردت الملكة في ازدراء مصطنع :

- ألا يحظى هذا الرباط بتأييد أدونيرام ؟
- ـ بل ان الأمر على العكس من ذلك ، وأنت ترين ذلك جيدا
  - ۔ کیف ؟
- \_ لو أنه كان لا يروق لى لكنت قد أنزلت سليمان من فوق عرشه ولعاملته كما سبق أن عاملتنى وأظن أنك في تلك الحالة لن تفكرى في ذلك لأنك لا تحبينه
  - \_ وما الذي يحملك على الاعتقاد في ذلك ؟
- ـ انك تشعرين بتفوقك عليه · ولقد أذللته وهو لن يغفر لك ذلك ، والكراهية لا تولد الحب ·
  - أن كل هذه الجرأة ٠٠
  - ان المرء لا يخشى الا من يحبه
  - وشعرت الملكة برغبة مروعة في اأن تكون موضع خشية ٠

ان فكرة أحقاد ملك العبرانيين ، الذي انساقت معه حتى الآن في

حرية تامة ، لم تعطها حتى الآن أذنا صاغية واستنفذت فيها مربيتها كل ما تملك من بلاغة · أما الآن فان هذا الاعتراض يبدو لها أميل الى الحق فعادت الله بهذه العبارة :

- ليس من الجدير بى الاستماع الى غمزاتك ضد مضيفى و ٠٠ وقاطعها أدونيرام قائلا:

\_ أيتها الملكة ، اننى لا أحب الناس وانى أعرفهم ، أما هـذا فقد خبرته لسنوات طويلة ، انه يبدو فى فراء حمل وديع ولكنه نمر قد لجمه رجال الدين وهو يقرض لجامه فى هدوء وبطء ، وقد اكتفى حتى الآن بقتل أخيه أودنياس : هذا قليل ولكن ليس له أقارب آخرين ،

وصبت ساراحيل الزيت على النار قائلة:

ــ قد يعتقد المرء حقا أن الفنان أدونيرام يغار من الملك · وكانت تلك المرأة تتأمله منذ لحظة في اعجاب ·

وأجاب الفنان قائلا:

ـ سـيدتى ، لو لم يكن سليمان من جنس أقـل من الجنس الذى أنتمى اليه لخفضت نظراتى نحوه ، الا أن اختيار الملكة يبين لى أنها لم تخلق لشخص آخر ، .

وفتحت ساراحيل عينيها في دهشة ، وذهبت فوقفت خلف الملكة وحينئذ لاحت لها في عيني الفنان علامة غريبة لم تفهم كنهها ولكنها جعلتها ترتعد ٠

وصاح أدونيرام من جديد قائلا وهو يضغط على كل كلمة :

- أيتها الملكة ان اتهاماتي التي لم تحدث فيك أي تأثير قد وضحت ظنوني • وسوف أمتنع من الآن فصاعدا عن الاضرار في ذهنك بهذا الملك الذي لا يحتل فيه أي مكان •

ــ وبعد أيها الفنان ، ماجدوى الضغط على هكذا ؟ هب أننى لا أحب الملك سليمان ٠

وقاطعها الفنان قائلا بصوت منخفض وفي تأثر:

- قبل حديثنا كنت تعتقدين أنك تحبينه ٠

وابتعدت ساراحيل واستدارت الملكة وقد اعتراها الاضطراب · - أه ! بربك ياسيدتي لنكف عن هذه الأحاديث :

انها الصاعقة تلك التي أصبها فوق رأس! ان كلمه تائهة فوق مشفتيك تخفى عنى اها الحياة واما الموت ، أه! لا تتكلمى! لقد جاهدت للوصول الى تلك اللحظة الجليلة وها أنا نفسى أبعدها ، دعى لى الشك فقد هزمت شجاعتى وان أوصالى لترتعد ، هذه التضحية ينبغى أن أعد نفسى لها ، ياللأسف ، ان كل هذا الرونق وهذا الشباب وهذا الجمال يتألق فيك! ، ومن أكون بالنسبة لك؟ لا لا ، حتى لو كلفنى الأمر فقدان سعادة لا أمل فيها فاحبسى أنفاسك التي ربما تقذف الى أذنى بكلمة قاتلة ، ان هذا القلب الضعيف لم يخفق أبدا ولذا فان أول قلق يعتريه يحطمه ويبدو لى اننى على وشك الموت ،

ولم تكن بلقيس بأكثر ثقة منه · وألقت نظرة خاطفة على أدونيرام فرأت هذا الرجل بالغ القوة والنفوذ والاعتزاز قد أصبح شاحبا وقد وقف في احترام وبلا قوة ورفرف شبح الموت على شفتيه · واختفى العالم أمام ناظرى الملكة وسط شعورها بالنصر وتأثرها وسعادتها وارتعاد أوصالها · ونمتمت تلك الفتاة الملكية قائلة : \_ ياللأسف ! أنا أيضا لم أحب من قبل ·

وضاع صوت الملكة دون أن يجرؤ أدونيرام ، وسط خوفه من أن يستيقظ من حلمه ، على اقلاق هذا السكون •

ولم تلبث ساراحيل أن اقتربت ، وأدرك كلاهما أن لا بد من الكلام والا خانت كل منهما مشاعره • وكان الهدهد يطير هنا وهناك حول المثال الذى سارع بالتقاط هذا الموضوع • وقال بلهجة شاردة :

\_ كم هو متألق ريش هذا الطائر! اتملكينه من مدة طويلة ؟

وتولت ساراحيل الاجابة دون أن تشبيح بعينيه عن النحات أدونيرام: « ان هذا الطائر آخر سلالة جنس يسيطر عليه كما يسيطر على جميع سكان الجو جنس الجن و لا يدرى أحد أية معجزة تلك التى حافظات على حياة الهدهد وهو منذ وقت لا يعلمه أحد لا يطيع الا أمراء الحميريين وبواسطته تجمع الملكة كلما أرادت جميع طيور السماء » •

وأحدث هذا الخبر الذى أسرت به المربية أثرا غريبا في ملامح . أدونيرام الذى أخذ يتأمل بلقيس بمزيج من الفرح والتأثر .

#### وقالت الملكة:

- انه حيوان غريب الأطوار · وعبثا غمره سليمان بمداعباته وبقطع الحلوى فقد كان الهدهد يتجنبه في اصرار ولم يتوصل لحمله على الوقوف على قبضة بده ·

وفكر أدونيرام لحظة ، وبدا متأثرا لفكـــرة طرأت عليه وابتســم وأولته ساراحيل مزيدا من الاصغاء ٠

ونهض أدونيرام ونطق اسم الهدهد الذي كان قد حط على أحد الأحراش وظل الطائر ساكنا ينظر اليه من جانب عينه وسار الفنان خطوة ورسم في الهواء علامة تو T الغامضة ففرد الطائر جناحيه وطار فوق رأسه ثم هبط في استكانة في قبضة يده •

وقالت ساراحيل:

\_ لقد كانت شكوكي في محلها: لقد تحققت النبوءة •

يا أطياف أجدادى المقدسة! يا أبى طوبال عابيل! انكم لم تخدعونى أبدا! بلقيس أيها الروح المخلوق من نور ، يا أختى وقرينتى! أخيرا عثرت عليك ١٠ اننا وحدنا أنت وأنا اللذان نسيطر على هذا الرسول الطائر لجن النار الذين ننحدر منهم ٠

ــ ماذا! يا الهي ، أيكون أدونيرام ٠٠

- اننى آخر سلالة كوس حفيد طوبال ـ قابيل الذى تنحدرين منه عن طريق سبأ شقيق النمرود صياد الحميريين وثالث أجدادهم ١٠٠ ان سر أصلنا ينبغى أن يظل مغلقا على أبناء سام الذين عجنوا بطين الأرض ٠

وقالت بلقيس وهي تمد اليه يدها:

ـ ينبغى لى أن أنحني أمام مولاى مادامت الأقدار لا تبيح لى تقبيل أى حب غير حب ادونيرام •

وأجاب وهو يسقط تحت قدميها:

\_ اننى لا أود تقبل مثل هذه النعمة الغالية الا من بلقيس وحدها ! لقد طار قلبى للق\_اء قلبك ومنذ الساعة التي ظهرت لى فيها أصــبحت عبدا لك •

ولعل هذا الحديث كان يدوم وقتا طويلا لو أن ساراحيل بما منحه

لها سنها من حدر لم توقفه بهذه العبارة : « فلتؤجلا تلك الاعترافات العاطفية اذ ثمة صعاب جمة سوف تنهال عليكما وأكثر منخطر يتهددكما٠ ان أبناء نوح هم سادة العالم بأمر أودناي ، وسلطانهم يمتد الى حياتيكما الفانيتين • أن سليمان ملك مطلق في بلاده التي تتبعها بلادنا وتدين لها بالجزية · وجيوشه مهابة وغروره شديد · ويتـــولي أودناي حمــايته وله جواسيس عديدون · لنبحث عن وسيلة لوضع حد لاقامتها المحفوفة بالمخاطر لديه ، وحتى ذلك الحين لنلزم جانب الحذر ، ولا تنس يا ابنتي أن سليمان ينتظرك هذا المساء في هيكل صهيون ٠٠ ان تحللك من وعدك وقطعك لعلاقتك به سوف يثيره ويؤلب شكوكه • لتطلبي مهلة اليوم فقط يحجة ظهور فأل مضاد ٠ وغدا سوف يعطيك الكاهن الكبير حجة جديدة ٠ ان بحثك يجب أن ينصب على تهدئة صبر سليمان العظيم • أما أنت يا أدونيرام فلتغادر الآن خادماتك فان الصباح يتقدم وقد غطى الجدار الجديد الذي يشرف على نبع سيلو بالجنود ، وسوف تحول الشمس التي تسعى الينا أنظارهم جهتنا • وحينما ينفذ القمر الى السماء فوق تلال افرايم اعبر نهر ابوسيدر واقترب من مخيمنا حتى تبلغ خميلة أشجار الزيتون التي تحجب الخيام عن سكان التلين · وهناك سوف نستوحي النصائح من الحكمة والتفكير ، •

وافترقوا آسفين · أما بلقيس فلحقت بتابعاتها وأما أدونيرام فقد تبعتها أنظاره الى اللحظة التي اختفت فيها تحت أوراق أشجار غار الورد ·

## الرفاق الثلاثة

واستأنف الراوى حديثه في الجلسة التالية قائلا:

الخذ سليمان والكاهن الكبير للعبرانيين يتحدثان منذ بعض الوقت. تحت سماحة المعيد •

وقال الكاهن صادوق لليكه:

ـ يجب ذلك ، ولن تستفيد من موافقتى على هذا التأجيل الجديد ٠ اذ كيف تحتفل بالزواج والخطيبة غائبة ؟

وأردف الأمير قائلا وهو يرسل تنهيدة :

- أيها الكاهن المبجل صادوق ، ان تلك التأجيلات المخيبة للرجاء تؤثر في أكثر مما تؤثر فيك ومع ذلك فاني أتجملها في صبر ·

وقال الكاهن اللاوى وهو يمر بيده الجافة السماحية التي تشويها عروق زرقاء على لحيته الطويلة البيضاء المنقسمة الى قسمين :

- \_ لحسن الحظ ، أما أنا فلست عاشقا .
  - \_ ولذا فينبغى أن تكون أكثر هدوءا •

وأردف صادوق قائلا:

ماذا ؟ منذ أربعة أيام ورجال الجيش واللاويون رجال الدين. الميهودى على قدم وساق ، والقرابين المتطوعة على تمام الاستعداد ، والنار تشميعل بلا جدوى في الهيكل ، وفي اللحظة المنتظرة لاقامة الحفل نضطر

التأجيل كل شيء • ان الكهنة والملك تحت رحمة نزوات امرأة أجنبية تسرح ينا من حجة لحجة وتلعب بما لدينا من سرعة تصديق •

ان ما كان يجرح كبرياء الكاهن الكبير هو أنه كان يرتدى كل يوم دون جدوى الزينات الكهنوتية ثم يضطر بعد ذلك لخلعها دون أن يظهر أمام أعين رجال بلاط السبئيين الفخامة الكهنونية لاحتفالات اسرائيل. كان يروح ويجىء في اضطراب بطول الساحة الداخلية للمعبد بثيابه الرائعة أمام سليمان الحزين .

وكان صادوق قد ارتدى لهذه المناسبة الجليلة ثوبه المصنوع من الكتان ومنطقته المطرزة والثوب الكهنوتي ـ ايهود ـ مفتوح فوق كل من كتفيه: وله مطعف من الدهب والياقوت والقرمز تتألق فوقهعقتان نحت فوقهما النحات أسلما القبائل الاثنتي عشرة . وكان «الراسيونال»(۱) المعلق في شرائط من الياقوت وحلقات من الذهب المنقوش يلمع فوق صدره · كان مربعا وطوله شبرا ومطرزا بصف من اليشب (۲) الأحمر والزمرد الأصدفر والزبرجد ، وبصف ثان من البهرمان (۳) واللازورد وأنواع اليشب ، ثم بصف ثالث من اليواقيت وحجر الجمشت والعقيق ، وأخيرا بصف رابع من أنواع الزبرجد والعقيق · وكان معطف والعقيق ، وأخيرا بصف رابع من أنواع الزبرجد والعقيق ، وكان معطف مغيرة من الياقوت والقرمز بينها صفوف من الجلاجل الصغيرة من الذهب مغيرة من الباقوت والقرمز بينها صفوف من الجلاجل الصغيرة من الذهب وبنسيج من الكتان مطرز باللؤلؤ ويتألق في الجزء الأمامي منه خنجر من وبنسيج من الكتان مطرز باللؤلؤ ويتألق في الجزء الأمامي منه خنجر من الذهب المطلى باللون البني وقد ربط بشريط في لون العقيق ، وكان الخنجر بعصل الكلمات الآتية وقد حفرت حفرا عميقا : أدوناي مقدس (٤) ·

وكان الأمر يحتاج لساعتين من الزمن وستة من الخدم لاعادة تلبيس صادوق هذه الملابس القدسية المتصلة بسلاسل صغيرة وعقد خفية ومشابك من الذهب • كان هذا الثوب مقدسا ، ولم يكن من المسموح لمسه الا لليهود اللاويين • وأدوناى نفسه هو الذى أملى رسمه على موسى بن عمران خادمه •

<sup>(</sup>۱) يصب أو يصف أو يشب أو يشف حجر كريم بعضه بنى أو في لون الدم ،

<sup>(</sup>٢) نوع من الياقوت .

 <sup>(</sup>٣) قطعة مربعة من القماش تحميل الني عشر حجرا تمشيل القبائل البدائية ويرتديها كبير الكهنة في المناسبات الكبرى .

<sup>(</sup>٤) هذا التقصيل مشتق من التوراة ( خروج اليهود ٢٨ ) .

وهكذا فمنذ أربعة أيام والزينات الكهنوتية تتلقى اهانة يومية على. كتفى صادوق الكاهن المبجل الذى تثيره تلك الاهانات لاسيما أن العار أصبح أكثر حدة لأنه وافق على زواج سليمان من ملكة سبأ على الرغم منه.

كان ذلك الرباط يبدو له خطيرا على دين العبرانيين وقوة رجال الدين وقد كانت الملكة بلقيس مثقفة ٠٠ وكان يرى أن الكهنة السبئيين قد أتاحوا لها معرفة كثير من الأشياء التي ينبغي أن يجهلها أى ملك تربي تربية حذرة ٠ وكان يتوجس شرا من نفوذ ملكة ضليعة في فن حكم الطيور ٠ لقد كان الكهنة دامًا غير راضين عن هذه الزيجات التي تعرض الدين للأذى الدائم الصادر من الزوج الشاك ٠ وكان صادوق الذى بذل جهدا كبيرا للتهدئة من غرور العلم لدى سليمان باقناعه بأن لم يعد ثمة ما يتعلمه ، كان يرتعد فرقا من أن يعلم الملك كثيرا من الأشياء مازال يجهدها ٠

ولقد كان على حق في تلك الفكرة لا سيما أن سليمان قد بدأ بالفعل يفكر في ذلك ووجد أن وزراءه أقل لباقة وأكثر طغيانا من وزراء الملكة لقد تزعزعت ثقة ابن داود ، وأصبح له في كل يوم أسرار يخفيها عن صادوق ولم يعد يستشيره في شيء ومن المؤسف في البلاد التي يرتبط فيها الدين بالكهنة ويتجسد فيهم أنه في اليوم الذي يستقط فيه الكاهن الأكبر ، وكل انسان فان ، فان الدين ينهار معه وحتى الله نفسه فانه يختفى مع مساعده المتكبر الجبار .

ولقد ظل صادوق متماسكا دون عناء رغم يقظته وكآبته وذلك لانه لم يكن متعمقا اذ أنه كان ينعم بأن ليس في جعبته سوى القليل من الأفكار • كان يوسع تفسير القانون في صالح عواطف الملك ، وكان يبرر تلك العواطف بالمجاملات الخاطئة الدنيئة الا أنها متمشية مع الشكليات • وهكذا كان سليمان يخضع للغير في استسلام • • أما أن تأتى فتاه من الميمن وطائر ملعون فيهددان بهدم بناء ثقافة على هذا القدر من الحذر فتلك هي الفكرة التي لم يكن ليقبلها !

أيتهمهما بالسحر ؟ ألا يكون في ذلك اعتراف بقدرة العلوم الخفية التي ينكرها في ازدراء ؟ لقد كان صادوق في حيرة حقيقية • وكانت له ديما عدا ذلك هموم أخرى فقد كان النفوذ الذي يمارسه أدونيرام على العمال يقلق الكاهن الأأكبر الذي كان على حق في خشيته من حدوث سيطرة خفية متآمرة • ومع ذلك فقد كان صادوق يمنع على الدوام تلميذه الملكي من فصل الفنان الوحيد القادر على اقامة أجمل معبد في العالم للاله أدوناي

والى جذب اعجاب جميع شاعوب الشرق وقرابينهم تحت اأقدام هيكل أورشليم • وكان صادوق ينتظر نهاية الاعمال لكى يتخلص من أدونيرام واكتفى حتى ذلك الحين باثارة الريبة الكئيبة لدى سليمان • ولقد ساءت الأوضاع منذ بضعة أيام فلقد اختفى أدونيرام كما نذكر وهو فى أوج انتصاره غير المتوقع والمستحيل والمعجز •

وكانت تلك الغيبة تدهش رجال البلاط جميعا فيما عدا الملك على مايبدو لأنه لم يش هذا الموضوع قط مع كاهنه الأكبر وهو تحفظ غير معتاد منه ٠

وهكذا رأى المبجل صادوق أنه أصبح عديم الجدوى فصمم على أن يظل ضروريا ، فاضطر الى أن يمزج نبوءاته الغامضة ذات اللهجة الطنانة الرنانة بنبوءات أخرى يخفيها بحيث يثير خيال الأمير ، وكان سليمان يحب الخطب ، لاسيما وأنها كانت تتيح له فرصة تلخيصها في ثلاثة أو أربعة أمسال ، أما في تلك الحالة فإن الخطب ذات اللهجة الإنشائية التي كان يلقيها الحبر الكبير بدلا من أن تقاس على المعلومات الدينية التي يقدمها صادوق كانت تدور حول أهمية رأى الاستاذ وحول عدم الثقة وتعاسة الملوك اذا أسلموا أنفسهم للحيل الماكرة والكذب والمصلحة الذاتية ، ثم كان صادوق وسط اضطرابه ينطوى في أعماق غير المفهوم ،

وقال سليمان: ـ رغم أنك تتحدث حديثا رائعا فانى لم آت للقائك فى المعبد للاستماع لهذه البلاغة: يالتعاسة الملك الذى يتغذى بالكلام! وسوف يأتى الى هنا الآن ثلاثة رجال مجهوبولين يطلبون الاستماع الى وسوف أستمع اليهم لأنى أعلم خطتهم • وقد اخترت هذا المكان لهذه الجلسة فقد كان من المهم أن يظل مسعاهم سرا •

ـ ومن هم هؤلاء الرجال يامولاي ؟

- انهم أناس يعلمون ما يجهله الملوك · ويستطيع المرء معهم أن يتعلم الكثير ·

وما لبث ثلاثة صناع أن أدخلوا الى الفناء الداخلي للمعبد وانحنوا تحت أقدام سليمان • كانت هيئتهم تنم عن الاكراه وأعينهم قلقة •

وقال لهم سليمان :

- أرجو أن أسمع الصدق من شفاهكم ولا تأملوا في فرض أي شيء

على الملك فان أشد اسراركم خفية معروفة لديه ، أنت يافانور ، انك عامل يسيط في هيئة البنائين ، وأنت عدو لأدونيرام لأنك تكره تفوق عمال المعادن ، ولكي تهدم عمل رئيسك خلطت الاحجار القابلة للاحتراق بطوب أفرانه ، وأنت يا عمرو ، انك عامل من عمال النجارة وقد غمرت عروق الخشب في اللهب لاضعاف قاعدة بحر الفولاذ ، أما أنت ياميتوازييل فأنت عامل معادن من قبيلة روبين وقد أثرت المعادن المنصهرة بأن أضفت اليها حمما كبريتية احضرتها من ضمضاف بحيرة عمورية ، أنتم الشلاثة كنتم حمما كبريتية احضرتها من ضمضاف بحيرة عمورية ، أنتم الشلائة كنتم تهدفون دون جدوى الى لقب الرؤساء ورواتبهم ، ها أنتم ترون أن نظرتي الثاقبة تستشف أسرار أكثر أعمالكم سرية ،

## وأجاب فانور في هلع:

- ـ أيها الملك العظيم انها وشاية من أدونيرام تلك التي ضيعتنا ٠
- ـــ ان أدونيرام يجهل المؤامرة التي لا يعلمها سواى · واعلموا أن شيئا لا يخفي على فطنة من يحميهم أدوناي ·

واست تدل سليمان من الدهشة التي اعترت صادوق على أن كاهنه الأكبر لا يعول كثيرا على رعاية أدوناي •

### واأردف الملك قائلا:

ــ ان اخفاءكم للحقيقة ليس اذن الا ضياعا لكم ، وما سوف تذكرون معروف لدى ، ان وفاءكم هو الذى أصفه موضع الاختبار ، وليكن عمرو أول المتكلمين ،

وقال عمرو وقد اعتراء خوف لا يقل عن خوف شريكيه في الجريمة :

- مولاى لقد راقبت الورش والساحات والمصانع مراقبة تامة · ولم

يظهر أدونيرام فيها مرة واحدة ·

## وأكمل فانور الحديث قائلا:

\_ أما أنا فقد خطرت لى فكرة الاختفاء ، حين هبط الظلام ، فى قبر الأمين أبسالون بن داود على الطريق المؤدى من موريا الى مخيم السبئين وفى نحو الساعة الثالثة من الليل مر أمامى رجل يرتدى ثوبا طويلا ويضع على رأسمه عمامة كتلك التى يرتديها اليمنيون و وتقدمت وتعرفت فيه على أدونيرام • كان متجها الى خيام الملكة • ولما كان قد لمحنى فلم أجرؤ على اقتفاء أثمره •

واصل ميتوازاييل بدوره الحديث قائلا:

ــ مولاى انك تعلم كل شيء والحكمة كامنة في عقلك • وسوف أتكلم بكل اخلاص • فاذا كان ما سأسر به من شأنه أن يكلف من ينفذون الى تلك الأسرار المروعة حياتهم فتكرم بابعاد رفيقي حتى لا يسقط قولى الاعلى وحدى •

وما أن رأى عامل المناجم نفسه وحده فى حضرة الملك والكاهن الأكبر. حتى سجد أمامه قائلا :

مولای مد صولجانك حتى لا أموت .

ومد سليمان يده وأجاب قائلا : ـ ان نيتك الحسنة تنقذك فلا تخش شيئا ياميتوزاييل يا بن قبيلة روبين !

لقد أخفيت جبينى فى قفطان وصبغت وجهى بلون قاتم وساعدنى الليل على الاختلاط بالخصيان السود الذين يحيطون بالأميرة • وقد تسلل أدونيرام فى الظلام حتى وصل تحت قدميها وقد حدثها طويلا • وقد نقلت رياح الليل الى أذنى نبرات حديثهما • وقد قفلت راجعا قبل الفجر بساعة وكان أدونيرام مازال مع الأميرة •

وكظم سليمان غيظه ورأى ميتوزاييل دلائل الغيظ في حبات عينيه. فصاح به قائلا:

ـ أيها الملك لقد كانت الطاعة من واجبى ولكن اسمح لى ألا أضيف شـيئا .

- استمر! اني آمرك .

مولاى ان مصلحة مجدك عريزة على رعاياك • ولأمت اذا لزم الأمر الا أن مولاى لن يكون ألعوبة فى يد هؤلاء الأجانب الخونة • ان كبير كهنة السبئيين والمربية واثنين من نساء الملكة يعلمون أسرار هذا الحب • واذا كنت قد فهمت مايدور فان أدونبرام ليس هو مايبدو • انه يملك كما تملك الأميرة قدرة سحرية • وهذه القدرة هى التى تمكنها من السيطرة على الطير وتمكن الفنان من السيطرة على أشباح النار • ومع ذلك فان هذين المحظوظين يخشيان سلطانك على الجن وهو سلطان منح لك دون علمك • وتحدثت ساراحيل عن خاتم مرصع شرحت خصائصه للملكة المندهشة

وأسفوا في هذا الصدد على هدهد بلقيس • ولم أستطع تبين قلب الحديث لأنهم خفضوا أصواتهم وخشيت الضياع اذا تقدمت قريبا جدا منهم • وما لبثت ساراحيل والكاهن الأكبر والتابعتان أن انسحبوا جميعا وهم يثنون ركبهم أمام أدونيرام الذي ظل ، كما سبق أن قلت ، وحده مع ملكة سبأ • أيها الملك! انى أطمع في عفوك لأن الحديعة لم تقترب من شفتى!

ـ بأى حق تريد سبر غور نوايا مولاك ؟ ومهما يكن حكمنا فسيكون عادلا • • ليسبجن هذا الرجل في المعبد مع رفيقيه على ألا يتصل أحد بهما حتى اللحظة التي نتصرف فيها في مصائرهم •

من ذا الذى يستطيع وصف ذهول الكاهن الأعظم صادوق حين قام البكم الذين ينفذون ارادة سليمان في سرعة وسرية بجر ميتوزاييل وقد اعتراه الهلع •

## وأردف الملك قائلا في مرارة:

ما أنت ترى أيها المبجل صادوق أن حرصك لم ينفذ الى أى شى · القد أصم أدوناى أذنيه عن صلواتك ولم تؤثر فيه قرابيننا فلم يتنازل بانارة بصيرة خدامه · وقد تمكنت أنا وحدى بفضل قواى الخاصة بكشف خطة أعدائى · ومع ذلك فهم يسيطرون على قوى خفية ولهم آلهة مخلصون · أما أنا فالهى قد تخلى عنى !

ـ لانك تحتقره وتسعى الى الارتباط بامرأة غريبة · أيها الملك انزع من نفسك شـعورا غير طاهر وسوف يسلم اليك أعداؤك · ولكن كيف السبيل الى الامساك بأدونيرام الذي يملك القدرة على الاختفاء وعلى الملكة التي يحميها حق الضيافة ؟

- ان الانتقام من امرأة لأمر تحت مستوى كرامة سليمان · أما عن شريكها فسوف تراه يظهر بعد لحظة · فقد طلب منى هذا الصباح موعدا للمقابلة وانى أنتظره فى هذا المكان ·

- ان أدوناى راض عنا ٠ أيها الملك ! انه لا ينبغى أن يخرج من هذا السور !

اذا حضر الينا دون خوف فتأكد أن المدافعين عنه ليسوا ببعيد . ولكن لنتجنب الاندفاع الأعمى ، ان هؤلاء الرجال الثلاثة ألد أعدائه وقد أفسيد الحسد والحقد قلوبهم ، وربما يكونون قد وشوا بالملكة ، اننى أحبها يا صادوق ولن أوجه الى تلك الاميرة اهانة الاعتقاد في تدنسها بتلك

العاطفة المهينة بناء على كلام هؤلاء التعساء الثلاثة • ولكنى كنت أخشى مؤامرات أدونيرام الخفية وهو الذى يتمتع بنفوذ كبير على الشعب ولذا فقد أمرت بمراقبة هذه الشخصية الغامضة •

\_ أتفترض اذن أنه لم ير الملكة ؟

- انى مقتنع بأنه تحدث اليها سرا ، فانها محبة للاستطلاع متحمسة للفنون طموحة للشهرة وهى مدينة بالولاء لتاجى • هل تكون خطتها هى الاستيلاء على الفنان واستخدامه فى بلادها فى مشروع رائع أو الاستعانة به فى تجنيد جيش يقاوم جيشى وتتحرر بذلك من الجزية ؟ لست أدرى • • أما فيما يختص بحبهما المدعى ألم أحصل على وعد الملكة ؟

وبينما هو يتحدث بتلك اللهجة الحازمة أمام صادوق الذى أحزنه أن يرى هيكله موضع ازدراء وتأثيره يتبدد عاد البكم فظهروا بغطاءات رءوسهم البيضاء ذات الشكل البيضاوى وستراتهم المصنوعة من قشور الاسماك وأحزمتهم العريضة التى يتدلى منها سيف صغير وخنجر مقوس وتبادلوا الاشارة مع سليمان وظهر أدونيرام على عتبة المعبد وقد تولى ستة رجال من أتباعه حراسته حتى هذا المكان ، وأسر اليهم ببعض الكلمات في صوت منخفض فانسحبوا •

# ♦ \ \_ اللقساء

وتقدم أدونيرام فى خطى بطيئة وبوجه مطمئن حتى بلغ الكرسى الضخم الذى يجلس عليه ملك أورشليم • وبعد أن حيا فى احترام انتظر الفنان كما جرى عليه العرف أن يشجعه سليمان على الكلام •

وأخيرا قال له الأمير: « أخيرا تكرمت أيها الفنان ردا على تمنياتنا ، ومنحتنا فرصة تهنئتك بانتصار ٠٠٠ لم يكن أحد يأمل فيه وأن نعبر لك عن امتناننا ١٠٠٠ العمل الذي قمت به جدير بي وجدير بك بل هو يفوق ذلك . أما عن مكافأتك فلا يمكن أن تكون في مشمل هذا العمل . ولتحددها أنت نفسك ١٠٠٠ الذي تتمنى على سليمان ؟

- انى أطلب اعفائى يا مولاى • ان الأعمال توشك على النهاية ، ومن المستطاع انهاؤها بدونى • ان مصيرى فى أن أجوب العالم ، وهذا المصير يدعونى تحت سماء أخرى • ولذا فانى أضع بين يديك السلطة التى قلدتنى اياها • ان مكافأتى هى الأثر الذى أتركه والشرف الذى حصلت عليه فى التعبير عن مشاريع ملك عظيم مثلك •

\_ ان طلبك هذا يؤسفنا · وقد كنت آمل في الاحتفاظ بك بيننا في مركز كبير بالبلاط ·

- ان طباعی لا تتناسب مع کرمك • فان استقلالی بطبیعتی انعزالی بطبیعة فنی ، لا آبه لمظاهر العظمة التی لم أخلق لها ولذا فانی لو بقیت فما أکثر ما أضع تسامحك موضع الاختبار • ان الملوك ذوو أمزجة غیر متعادلة ؛ ان الحسد یحیط بهم ویحاصرهم ، والحظ غیر ثابت علی حال واحدة ولطالما عرفت ذلك من تجاربی • ان ماتسمیه انتصاری ومجدی ألم یکن علی وشك افقادی شرفی بل وربما حیاتی ؟

ـ انى لم أعتبر مشروعك قد فشل الا فى اللحظة التى أعلن فيها حموتك النتيجة المحتومة ، ولست أدعى أبدا أى نفوذ أقوى من نفوذك على أشباح النار .

- ان أحدا لا يحكم هؤلاء الأشباح لو كان لهم وجود • وفوق ذلك فان هذه الغوامض في متناول يد صادوق المبجل أكثر منها في يد صانع بسيط مثلي • ان ماحدث خلال تلك الليلة المروعة لا أدرى عنه شيئا: وقد أشاع سير العملية الاضطراب في خططي • ومع ذلك يا مولاي ففي ساعة القلق تلك انتظرت عبثا مواساتك وتأييدك • وهذا هو السبب الذي جعلني في يوم النجاح لا أفكر في انتظار تقريظك •

ـ ان هذا أيها الفنان حقد وغرور

- لا يامولاى بل هى عدالة متواضعة مخلصة • فمنذ الليلة التى صببت فيها بحر الفولاذ والى اليوم الذى اكتشفته فيه فان جدارتى لم تكسب شيئا كما أنها لم تخسر شيئا • والنجاح وحده هو الذى خلق الاختلاف • • وكما رأيت فان النجاح بيد الله • وادوناى يحبك وقد تأثر لصلواتك ، وأنا الذى ينبغى أن أهنئك يا مولاى وأن أهتف قائلا لك : شكرا ! وقال سليمان فى نفسه :

- من ذا الذي يخلصني من سخرية هذا الرجل ؟

ثم سأله قائلا:

ـ انك تغادرنى دون شك لكى تتم معجزات أخرى فى أماكن أخرى ؟

- ربما كنت استطيع القسم على ذلك في الماضي أيضا يا مولاي ٠ لقد كانت هناك عوالم تضطرم في رأسي الملتهب ٠

وكنت أرى فى أحلامى كتلا من الجرانيت وقصورا مطمورة بها غابات من الأعمدة وكانت المدة التى تستغرقها أعمالنا تثقل على • أما اليوم فان حميتى قد هدأت والتعب يؤرجعنى والفراغ يبتسم لى • ويبدو لى أن رسالتى قد انتهت •

وخيل الى سليمان رؤية بعض أضواء الحنان تنعكس حول مقلتى أدونيرام · كان وجهه جادا وملامحه مكتئبة وصوته أكثر نفاذا من المعتاد حتى أن سليمان اضطرب لذلك وقال : « ان هذا الرجل جميل جدا ٠٠

وسأله سليمان وهو يتصنع عدم الاهتمام:

- أين تنوى الذهاب بعد مغادرتك بلادى ؟

وأجاب الفنان دون تردد :

- الى صور ، فقد وعدت الملك حيرم الكريم ، الذى يتولى رعايتى ، بذلك ، وهو يحبك حب الأخ لأخيه وقد أبدى نحوى عطفا أبويا ، ولو تكرمت وأذنت لى فانى أرغب فى أن احمل اليه خطه تحوى منظرا علويا للقصر والمعبد وبحر الفولاذ وكذلك للعمودين الكبيرين المضفرين المصنوعين. من البرونز ، جاكين وبوعز اللذين يزينان باب المعبد الكبر ،
- ان رغبتك مجابة وسوف يتولى خمسمائة من الفرسان حراستك ويحمل اثنا عشر جملا الهدايا والكنوز التي ستخصص لك •
- ـ تلك مجاملة تفوق الحد: ولن يحمل أدونيرام معه سوى معطفه وليس معنى ذلك يا مولاى أننى أرفض هباتك وأنت كريم والهبات كبيرة وقد يؤدى رحيلى المفاجىء الى نضوب خزانتك دون أن يكون بالنسبة لى ذا فائدة واسمح لى أن أكون صريحا صراحة تامة وان هذه المنح التي أقبلها أتركها أمانة بين يديك واذا احتجت اليها يا مولاى فسوف أخبرك بذلك و

### وقال سليمان:

- أى بعبارة أخرى فان الفنان أدونيرام يريد أن يجعلنا تابعين له وابتسم الفنان وأجاب في رقة :
  - \_ لقد حدست فكرتى يا مولاى ٠
  - \_ وربما يحتفظ لنفسه بيوم يفاوضنا فيه وعلى علينا شروطه ٠ وتبادل أدونيرام مع الملك نظرة دقيقة متحدية وأجاب :
  - \_ مهما يكن من أمر فاني لا أطلب الا مايتفق وعظمة سليمان وقال سليمان وهو يزن تأثير كلامه:
- \_ أظن أن ملكة سبأ تحمل في رأسها بعض المشاريع وتفكر في استخدام عبقريتك ٠٠٠
  - ـ مولای ، انها لم تحدثنی فی ذلك قط ٠

وفتحت تلك الاجابة المجال لشكوك أخرى ٠

وقال صادوق معترضا:

ــ « ومع ذلك فان عبقريتك لم تكن عديمة التأثير فيها ، أترحل دون أن تودعها ؟ » •

وكرر أدونيرام تلك الكلمة قائلا: أودعها ٠٠

ورأى سليمان لهبا غريبا يشع من عينه ، وأضاف :

- لو سمح لى الملك فسوف يكون لى شرف استئذانها في الرحيل ، وأردف الملك قائلا:

ــ « كنا نأمل في الاحتفاظ بك لاحتفالات زواجنا القادمة · فأنت تعلم · • » ·

وعلت الحمرة القانية جبين أدونيرام وأضاف دون مرارة :

- ـ انى أعتزم التوجه الى فينيقيا دون تلكؤ ٠
- ـ مادمت تلح فى ذلك أيها الفنان فأنت حر: انى أقبل استئذانك ٠٠ وقال الفنان معترضا:
- ابتداء من مغيب الشمس · فمازال أمامى رفع أجور العمال وأرجو يا مولاى أن تأمر قهرمانك عزرياهو باحضار المال اللازم الى العداد المقام فى أسفل عمود جاكين وسوف أقوم بالتخليص كالمعتاد ودون اعلان رحيلي حتى أتجنب تزاحم الوداع ·
- انقل هذا الأمر ياصبادوق الى ابنك عزرياهو · انتظر كلمة أخرى : من هم العمال الثلاثة المدعوون فانور وعمرو وميقوزاييل ؟
- انهم ثلاثة طموحون شرفاء ولكن بلا مواهب · انهم يرنون الى لقب رؤساء عمل وقد ألحوا على لمنحهم كلمة السر على هذا الأساس حتى يحصلوا على رواتب أكبر ` وأخيرا استمعوا لصوت العقل ، ومنذ وقت قريب سنحت لى فرصة تهنئة نفسى بطيبة قلوبهم ·
- أيها الفنان لقد قال الله في كتابه : « اخش الثعبان الجريح الذي

يطوى نفسه » يجدر بك أن تحسن معرفة الناس: ان هؤلاء هم أعداؤك وهم الذى تسببوا بكيدهم فى الحوادث التى كادت تتسبب فى فشسل صب بحر الفولاذ •

ـ وکیف عرفت ذلك یا مولای ؟ ۰۰

لقد ظننت أن كل شىء قسد ضاع ولمسا كنت أثق فى حذرك فقد معتت عن الأسباب الخفية للكارثة • ولما كنت أتجول بين الجماعات فقد مسمعت هؤلاء الرجال الثلاثة يتكلمون وهم يظنون أنهم على انفراد •

ـ لقد تسببت جريمتهم في موت عدد كبير من الناس ١٠ ان مثلا كهذا سيكون شديد الخطورة ، وأنت الذي تملك حق التصرف في مصيرهم ٠ لقد كلفني هذا الحادث حياة ابن لي كنت أحبه ، وهو فنان ماهر يدعي بينوني لم يظهر منذ ذلك الحين ٠ وأخيرا يا مولاي فان العدالة من خصائص الملوك ٠

ـ سوف تطبق العدالة على كل منهم · لتعش سعيدا أيها الفنان أدونيرام ولن ينساك سليمان أبدا ·

وبدأ أدونيرام مفكرا وسط حيرته واضطرابه · وفجاة قال وقد ااستسلم للحظة من التأثر:

« مهما يحدث يامولاى تأكد الى الأبد من احترامى وذكرياتى الخالصة ونقاء قلبى • واذا راودت الشكوك فكرك فلتقل لنفسنك : ان أدونيرام كأكثر البشر لا يملك من أمر نفسه شيئا ؛ وكان لابد من أن يكمل أقداره! » •

- « وداعا أيها الفنان ولتكمل أقدارك! » ·

قال الملك ذلك وهو يمد اليه يدا انحنى عليها الفنان في خضوع ولكنه لم يضع عليها شفتيه قط وارتعد سليمان •

وتمتم صادوق قائلا وهو يشاهد أدونيرام يبتعد :

ـ « حسن يامولاى حسن! بماذا تأمر ؟ » •

- « بأعمق ألوان الصمت يا أبت · اننى لن أثق منذ الآن الا فى نفسى وحدها · ولتعلم جيدا أننى الملك · ومهمتك هى الطاعة والاحق عليك غضبى ، والصمت والا دفعت حياتك ثمنا · · هيا أيها الشبيخ ،

لا ترتعد فإن الملك الذي فأض لك بأسراره ليعلمك صديق لك • ادع. هؤلاء العمال الثلاثة المحبوسين في المعبد فأني أرغب في توجيه مزيد من. الأسئلة اليهم » •

وبدأ عمرو وفانور مع ميتوزاييل: واصطف خلفهم البكم في منظرهم المروع وقد شهروا نصالهم ·

وقال لهم سليمان في لهجة شديدة: لقد وزنت كلامكم والتقيت بخادمي أدونيرام • أهي العدالة أم الحسد اللذان يدفعانكم ضده ؟ وكيف يجرؤ عمال بسطاء على الحكم على رئيسهم ؟ ولو أنكم كنتم من الرجال المرموقين أو من الرؤسساء بين اخوانكم لكانت شهدتكم أقل احاطة بالشكوك • ولكن كلا: لقد دفعكم الجشع والطموح الى لقب رؤساء عمال ولما لم تستطيعوا الحصول عليه أعمى الحقد قلوبكم •

#### وقال ميتوزابيل وهو يسجد:

- « مولای انك ترید اختبارنا · ولكن حتى ولو كلفني الأمر حياتي فاني أتمسك بأن أدونيرام خائن • وحين تآمرت على ضياعه كنت أرغب في انقاذ أورشليم من طغيان غادر يصبو الى اخضاع بلادي لجحافل أجنبية ٠ ان صراحتي الرعناء هي أوثق ضمان لاخلاصي ٠ لا يليق بي. مطلقا أن أثق في رجال هم موضع ازدراء ، في عبيد لخدامي • لقد خلق الموت ثغرات في هيئات العمال ، وقد طلب أدونيرام اعفاءه من العمل • ويهمني كما يهمه العثور من بين رؤساء العمال ، على أناس جديرين بثقتي فلتتوجهوا اليه هذا المساء بعد دفع الرواتب راجين اختبار رؤساء العمال وسوف يكون وحده ٠٠ حاولوا اقناعه بحججكم ٠ من هنا أعرف ما اذا كنتم من الجادين في أعمالكم البـارعين في فنونكم الحاصلين على تقدير اخواً نكم • ان أدونيرام فنان متبصر وقراراته موضع ثقة • هل تخلي الله عنه حتى هذه اللحظة ؟ هل كشف عن عاره بواسطة أحد تلك الاندارات الروعة أو بضربة من ضرباته الهائلة التي تعرف ذراعه الخفية توجيهها الى المذنبين ؟ حسن ! ليكن يهوا قاضيا بيننا • فلو حصلتم على عطف أدرنيرام واختاركم فسيكون ذلك بالنسبة لي علامة سرية تدل على أن السيماء في صفكم وسوف أتولى أمر أدونيرام • أما اذا لم يحدث ذلك ولو أنكر عليكم لقب رئيس عمال فسوف تمثلون غدا أمامي برفقته وسوف أستمع الى الاتهامات والدفاع التي يوجهها كل منكم للآخر • وسوف يتولى. الشيوخ من الشعب الحكم · هيا فكروا فيما قلت لكم وليرشدكم أدوناي» - ونهض سليمان من مقعده وابتعد في بطء وهو يتكيء على كتف كبير الكهنة الذي بدا عليه عدم المبالاه ٠

واقترب الرجال الثلاثة بشدة وقد جمعتهم فكرة واحدة وقال فانور :  $\star$  يجب أن ننتزع منه كلمة السر  $\star$ 

وأضاف الفينيقي عمرو قائلا : « أو يموت » •

وصاح متيوزابيل قائلا:

- « بل يجب أن يمنحنا كلمة السر بصفتنا رؤساء نم يموت ! » ·

واتحدت أيديهم في قسم ثالث · وحينما كانوا على وشك اجتياز العتبة استدار سليمان ولمحهم من بعد وتنفس بقوة وقال لصادوق: « أما الآن فالي المتعة! هيا بنا للقاء الملكة · »

# ١١ \_ عشاء الملك

واستأنف الراوى حديثه في الجلسة التالية قائلا:

بدأت الشهبة تلفح الفرارع الشهبة تلفح المناس الصحراء الملتهبة تلفح المزارع التي أضاءتها انعكاسات مجموعة من السحب النحاسية •

وكانت ظلال تل موريا هي الوحيدة التي تضفي شيئا من الفيء على مجرى أبو سيدر الجاف · كانت الأوراق الذابلة مائله الى أسفل وزهور غار الورد المحترقة معلقة في أغصانها وقد انطفأ رونقها وانكمشت · كانت الحرابي والأبراص والسحالي تلهث بين الصخور وكفت الخمائل عن الرسال غنائها كما انقطع خرير الجداول ·

أما أدونيرام فقد كان مشغولا وباردا كالثلج خلال ذلك اليوم الملتهب الكئيب وكان كما أعلن لسليمان قد أتى ليستأذن من حبيبته الملكة التى استعدت للفراق وكانت هي نفسها هي التي طلبته و فقد قالت له: « أن رحيلك معى سوف يعتبر تحديا لسليمان واذلالا له أمام شهبه واضافة اهانة الى الألم التي اضطرتني القدرات الأبدية الى أن أسببه له ويقاؤك هنا بعد رحيلي أيها الزوج العزيز سوف يكون سعيا منك وراء موتك و أن الملك يغار منك ولن يخلف هروبي من ضحية تشفى غليل أحقاده الا أنت » و

- حسن! فلنقتسم اذن مصير أبناء جنسا ولنكن على الالرض ضالين مشتتين لقد وعدت هذا الملك بالذهاب الى صور • ولنكن صادقين بمجرد أن تصبح حياتك بعيدا عن رحمة الأكاذيب • وسوف أتوجه في هذه الليلة نفسها نحو فينيقيا التي لن أقيم فيها قبل أن الحق بك في

الميمن عن طريق الحدود السورية ثم بلاد العرب الصخرية عن طريق عروب والتواءات جبال غسان و باللأسف! أهكذا أغادرك بسرعة أيتها الملكة العزيزة وأتركك في أرض غريبة تحت رحمة طاغية عاشق ؟ وطب نفسا يامولاى فان روحي لك وحدك وأتباعي مخلصون وسوف تتبدد تلك الأخطار أمام حذري وحرصي وسوف تكون الليلة القادمة التي ستخفي مروبي عاصفة مظلمة و أما سليمان فاني أكرهه ، وهو لا يطمع الا في بلادي وقد أحاطني بالجواسيس وحاول اغراء أتباعي وشراء ذمم ضباطي والتفاوض معهم على تسليم قلاعي و ولو كان قد حصل على بعض الحقوق على شخصي لما رأيت أبدا اليمن السعيد . لقد انتزع مني وعدا ، هذا على شخصي لما رأيت أبدا اليمن السعيد . لقد انتزع مني وعدا ، هذا صحيح ولكن ماقيمة حنثي بهذا القسم أمام عدم اخلاصه ؟ وهل كنت صحيح ولكن ماقيمة حنثي بهذا القسم أمام عدم اخلاصه ؟ وهل كنت حرة في عدم خداعه وهو الذي أشار الى منذ لحظة ، وهو يستعمل تهديدات أساء اخفاءها ، بأن حبه لا حدود له وأن صبره قد أوشك على نهايته ؟

\_يجب اثارة جماعات العمال!

- انهم فى انتظار رواتبهم ولن يحركوا ساكنا ٠ وما جدوى القاء نفسك فى مجازفات فى مثل تلك الخطورة ؟ ان هذا التصريح يرضينى بدلا من أن يقلقنى فقد توقعته وانتظرته بفارغ الصبر ٠ لترحل فى سلام يا حبيبى ولن تكون بلقيس أبدا الالك !

\_ وداعا اذن أيتها الملكة: لابد من مغادرة تلك الحيمة التي وجدت فيها سعادة لم أحلم بها قط • ويجب الكف عن تأمل تلك التي تعتبر بالنسبة لى الحياة نفسها • هل أراك ثانية ؟ ياللاسف • ! لقد مرت تلك اللحظات السريعة كالحلم !

\_ كلا يا أدونيرام ، سوف يجتمع شملنا قريبا والى الأبد ٠٠٠ أن أحلامي وتنبؤاتي قد اتفقت مع نبوءات الجن، وهي تؤكد لى دوام جنسنا واني لا حمل معى ضمانا ثمينا لزواجنا • وسوف تضع في حجرك هذا الابن الذي قدر له أن يتسبب في نهضتنا وفي تحرير اليمن وبلاد العرب كلها من النير الضعيف لورثة سليمان • ان اغراء مزدوجا يدعوك وعاطفة مزدوجة تربطك بتلك التي تحبك وسوف تعود » •

وتأثر أدونيرام لكلام الملكة • وألصق شفتيه بيد أسقطت عليها الملكة بعض الدموع • واستعاد شجاعته وألقى عليها نظرة أخيرة طويلة ، ثم استدار في جهد وأسلدل وراءه ستار الحيمة وعاد الى ضفة نهر أبو سيدر •

كان سليمان ينتظر الملكة الباسمة الحزينة في ميللو (١) وقد أصبح نهبا للغضب والشك والندم السابق لأوانه وأسلم نفسه لقلق شديد · أما أدونيرام فقد جاهد لاخفاء غيرته في أعماق حزنه واتجه الى المعبد لدفع أجور العمال قبل أن يمسك بعصا المنفى · كان كل من هذين الغريمين يفكر في الانتصار على غريمه ويعتمد على معجزة تبينها كل منهما • كانت الملكة تخفى هدفها ، أما سليمان فقد أحيط علما بكل شيء الا أنه كان يخفى بدوره مشاعره وهو يطلب من كرامته الفطنه شسيئة من الشك ·

كان يفحص حاشية ملكة سبأ من أعلى شرفات قصر ميللو • وكانت تلك الحاشية تزحف متقدمة بطول طريق اماثيا • وقد أطلت على بلقيس الجدران القرمزية للمعبد الذي كان أدونيرام مازال يسيطر عليه ، تلك الجدران التي كانت ترسل على السحب القاتمة بريق حافتها ذات الاسسنان الحادة وكان العرق الحفيف يندى صدغى سليمان وخديه كما كانت عينه تكاد تلتهم الفضاء وقد اتسعت حدقتها • ودخل موكب الملكة يصحبها كبار ضباطها ورجال ماشيتها الذين اختلطوا بحاشية الملك •

وبدا الأمير قلقا اثناء السهرة · فقد بدت بلقيس باردة بل وتكاد تكون ساخرة : كانت تعلم أن سليمان يتدله عشقا · وكان العشدا صامتا · وكانت نظرات الملك الخفية أو التي يديرها في تصنع تبدو كما لو كانت تهرب من انطباعة نظرات الملكة التي كانت تغضها تارة وتثيرها تارة أخرى تحت تأثير عاطفة طال صبرها والتحكم فيها ، فكانت تلك النظرات تحيى في سليمان أوهاما كان يريد أن يظل سيدها · كان مظهره المستغرق يدل على أن لديه خطة ما · لقد كان ابنا لنوح ولاحظت الأميرة أنه بدافع الوفاء لتقاليد ابى الكرم كان يطلب من النبيذ أن يقدم له الحل الذي يبحث عنه · ولما كان رجال البلاط قد انسحبوا فقد حل البكم محل ضباط الأمير · ولما كان أتباع الملكة هم الذين يقومون على خدمتها فقد استبدلت السبئين بالنوبين الذين كانوا يجهلون اللغة العبرية هستبدلت السبئين بالنوبين الذين كانوا يجهلون اللغة العبرية

وقال سليمان بن داود بلهجة حادة :

« سيدتى لابد من تفسير للموقف فيما بيننا » ٠

<sup>(</sup>١) قصر بناه سليمان بعد أن شيد المعبد وقد ذكر في التوراة (الجزء الأول. ، الملوك ٩ ، ٢٤ ) - النص الفرنسي للعهد القديم ..

- \_ أيها الملك العزيز انك تسبق رغباتي •
- \_ لقد ظننت أن أميرة سبأ الوفية لوعدها ملكة أكثر منها امرأة ٠٠ وقاطعته بلقيس بحماس قائلة:
- « الأمر عكس ذلك تماما ، فاني امرأة يامولاى قبل أن أكون مملكة ، ومن ذا الذى ليس عرضة للخطأ ؟ لقد ظننتك حكيما ثم ظننتك عاشيقا ، • وأنا الذى أصبت بأقسى ألوان سوء التقدير » وتنهدت •

#### وأردف سليمان قائلا:

ـ « انك تعلمين جيدا أننى أحبك والألما عرضت مملكتك للخطر ولما دست بقدميك قلبا يثور في نهاية الأمر » •

\_ كنت على وشك توجيه مثل هذا اللوم لك ١٠ انك لا تحبنى أنا يامولاى ولكنك تحب الملكة ٠ ولنتكلم بصراحة ، فهل أنا في سن تبيح لى السعى وراء زيجة من زيجات التقاليه ؟ حسن ! نعم ، لقد أردت سبر غور نفسك : ان المسرأة في وهي أكثر رقة من الملكة ، قد استبعدت العقل السياسي وأرادت التمتع بسلطانها ٠ لقد كان حلمها هو أن تكون محبوبة ٠ وحين أخرت ساعة تنفيذ وعدها الذي انتزع منها على حين غرة فإنها قد وضعتك موضع الاختبار ٠ كانت تأمل في ألا تنتزع انتصارك الا من قلبها وقد أخطأت في ذلك ؛ فقد استعملت التهديد والوعيد واستعملت مع حاشيتي حيلا سياسية وأصبحت فعلا مولاهم أكثر مني ٠ لقد كنت أتمنى أزوجا ، عاشقا ، وها أنذا أخشى أن يصبح لي سيدا ٠ كما ترى اني أتحدث بصراحة واخلاصي ٠

- اذا كان سليمان عزيزا لديك لكنت قد غفرت له أخطاء سببها تأجج صبره ليصبح عبدا لك ؟ ولكن كلا ، ان فكرك لم ير فيه الا موضعا للكراعية ، وليس من أجله ٠٠

س « صه يامولاى ولا تضف الاهانة الى الشكوك التى جرحتنى • ان عدم المبالاه يثير عدم المبالاه والغيرة تصد القلب • وأخشى أن أدفع ثمن اشرف الذى كنت تريد أن تولينى اياه من راحتى وحريتى » •

ولاذ الملك بالصمت ولم يجرؤ على التمادى فى الوثوق فى شهادة جاسبوس نذل دني، والا فقد كل شيء ·

وأردفت الملكة قائلة في رقة طبيعية ساحرة :

\_ اسمع یا سلیمان ، کن صادقا وکن أنت نفسك وکن رقیقا · ان. أوهامی عزیزة علی أنا أیضا · وفکری متحیر · ولکنی أشعر بأنه یسعدنی را التأکد والاطمئنان ·

- أه ! لو قرأت هذا القلب الذي تسيطرين عليه دون أن يقتسمه أحد معك لطردت جميع أسباب القلق • لننس شكوكي وشكوكك ووافقي أخيرا على سعادتي • يا لسلطان الملوك القاتل ! انني تحت قدمي بلقيس ابنة الرعاة لست الا عربيا تعسا من الصحراء !

« ان أمانيك تتفق مع أمانى ، وقد فهمتنى » • وأضافت قائلة
 وهى تقرب وجهها البرى المتأجج بالعاطفة من شعر الملك :

- « نعم ، انها صرامة الزواج العبرى هي التي تثلجني وتخيفني ٠ ولقد كان الحب وحده كفيلا باغرائي لولا ٠٠ » ٠

ــ لولا ؟ اتمى كلامك يا بلقيس : فان نبرة صوتك تنفذ الى نفسى . وتلهبنى .

م « كلا ، كلا ، ٠٠٠ ماذا كنت بصدد قوله وما هو هذا العشاء ؟ الفاجىء ؟ ١٠٠٠ ان هذا النبيذ اللذيذ أحيانا يخون وأشعر أننى مضطربة تماما » •

وباشارة من سليمان ملأ البكم والنوبيون الكئسوس وأفرغ الملك كأسه في جوفه في جرعة واحدة وهو يلاحظ في سرور أن بلقيس تفعل مثل ما يفعل •

وأضافت الأميرة في مرح :

- « يجب الاعتراف بأن الزواج طبقا للشعائر اليهودية لم يوضع للملكات وأن له شروطا سيئة ، •

وسأل سليمان وهو يوجه اليها نظرات أخفاها طول الانتظار :

- أهذا هو الذي يجعلك تترددين ؟

- لاشك فى ذلك • ففيما عدا مضايقات الاستعداد بالصيام ممه يصيب المرأة بالدمامة أليس من المؤلم اسلام الشعر للمقص وأن تضطر المرأة الى وضع غطاء على رأسها الى نهااية العمر ؟ وأضافت قائلة وهى تلف غدائرها الأبنوسية الرائعة :

ـ الحقيقة أننا لا نملك سحرا كبيرا حتى نفقده ٠

وقال سليمان معترضا:

ـ ان نساءنا لديهن حرية استبدال شعورهن بكمية كثيفة من ريش الديكة حسنة التصفيف (١) •

وابتسمت الملكة في شيء من الازدراء • ثم قالت :

م ان الرجل عندكم يشسترى المرأة كما تشسترى الجوارى أو الخادمات • بل ويجب أن تأتى فى ذلة الى باب خطيبها وتقدم نفسها • وأخيرا فان الدين لا يحتل أى مكان فى هذا العقد الذى يشبه الصفقة • وحين يتلقى الرجل شريكة حياته فانه يفرد ذراعه عليها وهو يقول لها بالعبرية الفصيحة : لقد خصصت لى • وفيما عدا ذلك فلديكم سهولة طلاقها وخيانتها بل حتى رجمها بالحجارة لأوهى الأسباب • • • ان فخرى بحب سليمان لا يعدله الا خوفى من الزواج منه •

وصاح الأمير وهو ينهض من الأريكة التي يستريح فوقها :

- « حب سليمان ! هل أنت محبوبة أنت ! هل مارست امرأة من قبلك مثل هذا السلطان المطلق ؟ لقد كنت ثائرا فهدأت روعى حسب رغبتك ، وكانت الانشعالات الكثيبة تشيع الاضطراب في نفسي واني لأبذل قصارى جهدى لطردها • انك تخدعينني وأشعر بذلك ولكني أتآمر معك على التغزير بسليمان » •

ورفعت بلقيس كأسها الى ما فوق رأسها وهي تستدير في حركة عاطفية • وملا عبدان الكئوس وانسحبا •

وظلت قاعة الوليمة خاوية · وأضفى ضوء المصابيح وهو يخفت أشعة غريبة على سليمان الذى كان شاحبا ملتهب العينين وقد ارتعدت شفتاه وزال لونهما · واستولى عليه شعور غريب بنفاذ الصبر وأخذت بلقيس تتأمله بابتسامة غامضة ·

وفجأة تذكر ٠٠٠ وقفز فوق أريكته وصاح قائلا :

\_ « أيتها المرأة لا تبنى الآمال على العبث بحب الملوك ٠٠٠ ان الليل

<sup>(</sup>۱) يقول جيرار في هذا الصدد : حتى اليسوم تضطر النسساء المنزوجات من اليهود في الشرق الى استبدال شعورهن التي يجب أن تقص الى ما فوق الاذنين وأن تختفى تحت غطاء للرأس بالريش ١٠

يحمينا بسدوله والغموض يحيط بنا وثمة عاطفة ملتهبة تسرى فى كيانى بأسره • ان الغضب والحب يسكرنني وهذه الساعة ملك لى • واذا كنت صادقة فلن تحرمينى من سعادة دفعت ثمنها غاليا • احكمى وكونى حرة ولكن لا تصدى أميرا يهب نفسه لك وتحرقه الرغبة وهو على استعداد غى هذه اللحظة أن ينتزعك من سلطان الجحيم » •

واضطربت بلقيس وخفق قلبها وأجابت وهي تخفض عينيها:

- « امنحنى الوقت الكافى لاختبار مشاعرى فان تلك اللغة جديدة يالنسبة لى ٠٠٠ » ٠

وقاطعها الملك وهو يهذى بعد أن أفرغ كأسه الذى كان يستمد عنه كل هذه الجرأة :

- « کلا ! کلا فان ثباتی قد بلغ ذروته والمسألة بالنسبة لی مسألة حیاة أو موت • أیتها المرأة ، سوف تکونین لی وأقسم علی ذلك • واذا کنت تخدعیننی فسأنتقم لنفسی ، أما اذا کنت تحبیننی فان حبا أبدیا سوف یدفع ثمن صفحی » •

ومد يداه ليضم اليه الفتاة • ولكنه لم يضم الا ظلا فان الملكة كانت قد تراجعت في هدوء • وسقطت ذراعا ابن داود وقد ازدادتا ثقلا • ومالت رأسه ولاذ بالصمت وفجأة ارتعد واعتدل في جلسته • • واتسعت حدقتا عينيه المندهستين في صعوبة • كان يشعر بالرغبة تموت في صدره حينما أخذت الأشياء تتأرجح فوق رأسه • كان وجهه المكتئب الحين الذي تحيط به لحية سوداء يعبر عن رعب غامض • وانفرجت شفتاه دون أن تنطقا أي صوت ثم عادت رأسه تحت ثقل العمامة فسقطت على وسائد الفراش • لقد شعر بأنه يقيد بأغلال غير مرئية وثقيلة فأخذ يبعدها بفكره أما أعضاؤه فلم تعد تستجيب لمجهوده الحيالي •

واقتربت منه الملكة في بطء وجدية ورآها في ارتياع واقفة أمامه وقد أسندت خدها الى أصابعها المطوية بينما أسندت كوعها على اليد الأخرى • كانت تتأمله • وسمعها تقول :

- « ان المخدر أحدث مفعوله ۰۰ » ٠

ودار انسان عين سليمان الأسود في حدقته البيضاء الكبيرة التي تشبه عين أبي الهول وظل ساكنا بلا حراك ٠

وأضافت هي قائلة:

- « حسن! اننى أطيع وأستسلم ، اننى لك! ٠٠ » ٠

وركعت على ركبتيها ولمست يد سليمان التي كانت باردة كالثلج • وأرسل تنهيدة عميقة •

#### وتمتمت قائلة:

- « انه مازال يسمع ۱۰۰ اسمع ياملك اسرائيل ، أنت الذى تفرض الحب ، كما يتراءى لسلطانك ، مع العبودية والحيانة ، اسمع : اننى أفلت من سلطانك ، ولكن اذا كانت المرأة قد خدعتك فلن تخدعك الملكة أبدا ، اننى أحب ، ومن أحب ليس أنت ؛ فأن الأقدار لم تسمع بذلك ، اننى أنحدر من سلالة أرقى من سلالتك ، وقد اضطررت اطاعة لأوامر الجن الذين يتولون حمايتى اختيار زوج من نفس دمى ، أن نفوذك ليذوب أمام نفوذهم ، لتنسانى وليختر لك أدوناى شريكة لحياتك ، انه كبير كريم ، ألم يعطك الحكمة وأجزل لك ثمن خدماتك فى هذه المناسبة ؟ انى أتركك فى رعايته وأسحب منك مساندة الجن الذين تحتقرهم والذين لم تعرف كيف تحكمهم فانها مساندة لا جدوى منها ، ، » ،

واستولت بلقيس على الأصبع الذي كانت ترى طلسم الخاتم الذي أهدته لسليمان يلمع فيه وهمت باستعادته الا أن يد الملك الذي كان يتنفس بصعوبة انقبضت بمجهود كبير وأغلقت بعنف وحاولت بلقيس دون جدوى اعادة فتحها •

وهمت بالكلام من جديد حين طوحت رأس سليمان بن داود الى الخلف وارتخت عضملات رقبته وانفرج فمه وانطفأ بريق عينيه نصف المفتوحتين ٠ كانت روحه قد طارت الى بلاد الأحلام ٠

كان كل شيء نائما في قصر ميللو فيما عدا أتباع ملكة سبأ الذين أناموا مضيفيهم • كانت الصاعقة تهدر من بعيد وكانت السماء السوداء تلمع فيها خطوط البرق • وكانت الرياح التي خرجت من عقالها توزع الأمطار فوق الجبال •

كان ثمة جواد عربي أسود سواد القبر في انتظار الأمرة التي أعطت اشارة التراجع • وما لبث الموكب الذي كان يلف بطول الأحراش حول تلال صهيون أن هبط وادى يهوشافاط • واجتاز فوق صهوة الخيل نهر ابوسيدر الذي بدأ يمتلئ بمياه الأمطار ليحمى هذا الهروب •

وترك الموكب خلف قمة « التسابور » التي توجها البرق ووصل الى زاوية حديقة أشجار الزيتون والى طريق بيثانيا الصاعد •

وقالت الملكة لحراسها:

- « لنتبع هذا الطريق ، ان جيادنا خفيفة الحركة · لقد طويت الخيام في حده الساعة وسار رجالنا فعلا في طريق الأردن · وسوف نلتقى بهم في الساعة الثانية من النهار فيما وراء بحيرة سالى ( البحر الميت ) ، التي نبلغ منها دروب جبال بلاد العرب » ·

وابتسمت الملكة للعاصفة وهى تسلم لجوادها العنان وراودتها فكرة أنها تقسم الخزى مع حبيبها أدونيرام الذي لابد أنه يجوب طريق صور ٠

وفى اللحظة التى ولجوا فيها الى طريق بيثانيا الضيق كشفت خطوط البرق جماعة من الرجال كانوا يعبرونه فى صمت وتوقفوا مذهولين لصوت هذا الموكب من الأشباح المتداخلة وسط ظلمات الليل البهيم •

ومرت بلقيس وحاشيتها أمامهم · ولما كان أحد الحراس قد تقدم للتعرف عليهم فقد قال للملكة في صوت خفيض :

- « انهم ثلاثة رجال يحملون ميتا مسربلا في كفنه » •

# ۲ / - ماکبیتاخ (۱)

وى خلال فترة الراحة التى تلت هذه الرواية انفعل المستمعون فى مناقشة الأفكار المتناقضة · كان بعضهم يرفض قبول التقليد الذى اتبعه الراوى فقد كانوا يدعون أن ملكة سبأ قد رزقت فعلا من سليمان ، لا من غيره ، بولد · واعتقد الحبشى بوجه خاص أنه قد أهين فى معتقداته الدينية وذلك بافتراض أن ملوكه لم يكونوا الا من سلالة عامل من العمال ·

وصاح بالراوی قائلا: « لقد کذبت · لقد کان أول ملوکنا فی الحبشة یدعی مینیلیك و کان حقا ابنا لسلیمان من بلقیس ـ ماکیدا · ومازال أحد المنحدرین من نسله یحکمنا فی قصر جندار (۲) ·

وقال له أحد الايرانيين :

- " أيها الأخ ، دعنا نستمع حتى النهاية والا قذف بك الى الخارج كما حدث من قبل فى تلك الليلة · ان تلك القصة من وجهة نظرنا أرثوذكسية واذا كان قسيسكم الصغير يوحنا الحبشى يتمسك بكونه من نسل سليمان فسنمنحه ذلك على أن تكون أمه حبشية سودا لا الملكة بلقيس التى لها نفس لوننا » ·

و قاطع صاحب المقهى الاجابة الثائرة التي هم الحبشى بتوجيهها وأعاد الهدوء بصعوبة •

<sup>(</sup>١) معيناها اللحم يترك العظم .

<sup>(</sup>٢) قصر النجاشي •

#### واستأنف الراوى روايته قائلا:

حينما كان سليمان يستقبل في بيته الريفي أميرة السبئيين نظر رجل كان يمر على مرتفعات سوريا الى الشفق وهو على وشك الانطفاء في السحب ثم الى المشاعل التي اشعلت في ميللو وكأنها الكواكب المنثورة، نظر الى ذلك مفكرا ثم أرسل فكرة أخيرة الى غرامياته وألقى نظرة وداع على صخور سوليم والى ضفاف أبو سيدر الذي قدر عليه ألا يراه ثانية .

كان الوقت متأخرا وشاهدت الشمس وهي تشحب هبوط الليل على الأرض • وحين سمع أدونيرام صوت المطارق تدق على الفولاذ داعية العمال انتزع نفسه من أفكاره واجتاز جموع العمال • ولكي يرأس عملية دفع الرواتب دلف الى المعبد ففتح بابه الشرقي نصف فتحة وجلس في أسفل عمود جاكين •

كانت المشاعل المضاءة تحت الرواق تتأرجح نيرانها وهي تتلقى بعض قطرات المطر الدافئ التي فتح لها العمال اللاهثين من القيظ صدورهم في مرح .

كان الجمع غفيرا • وكان يعمل تحت امرة أدونيرام بخلاف المحاسبين موزعون أعدوا لتلقى مختلف الأوامر • كان الفصل بين طبقات العمال الثلاث يتم بناء على كلمة كانت تحل في هذه المناسبة محل الرموز المكتوبة التي كان تبادلها لابد أن يستغرق الكثير من الوقت • ثم كان الراتب يدفع بعد نطق كلمة السر •

كانت كلمة السر بالنسبة للعمال تحت التمرين فيما مضى هى كلمة « جاكين » ، وهو اسم أحد الأعمدة البرونزية · وكانت كلمة السر لغيرهم من العمال هى كلمة بوعز وهو اسم عمود آخر · أما كلمة الرؤساء فكانت يهوا »

وقد اصطف العمال حسب طبقاتهم وكانوا يتقدمون الى العدادات أمام القهارم تحت رئاسة أدونيرام الذى كان يلمس أيديهم ثم يهمس فى أدانهم محكلمة يقولها بصوت منخفض • وكانت كلمة السر فى هذا اليوم الأخير قد تغيرت • كان العامل تحت التمرين يقسول طوبال ـ قابيل وكان العامل يقول « جيبليم » • وكان العامل يقول « جيبليم » • وخف التجمع شيئا فشيئا وأصبح الفناء خاويا وانسحب آخر العمال من

طالبي الرواتب وتبين أن الجميع لم يتقدموا بدليل أن بعض المال تبقى في الصندوق ·

وقال أودنيرام: « غدا لابد من نداء الأسماء لمعرفة ما اذا كان بعض العمال قد عاقهم المرض أو ما اذا كان الموت قد زار بعضا منهم » •

وما أن ابتعد الجميع حتى أمسك أدونيرام كما هى عادته وبما يتسم به من همة وعين ساهرة ، أمسك بمصباح ليقوم بجولة فى الورش الخالية وفى مختلف أجزاء المعبد حتى يتأكد من تنفيذ أوامره ومن اطفاء النيران • كانت خطاه ترن رنينا حزينا على البلاط • وتأمل للمرة الاخيرة أعماله وتوقف طويلا أمام مجموعة من تماثيل الملائكة الاطفال المجنحة ، وهى آخر ما قام به بينونى الشاب •

وتمتم وهو يرسل أنة : « ياولدي العزيز »

ولما تم له هذا الطواف ألفى أدونيرام نفسه فى القهاعة الكبرى للمعبد • وكانت الظلمات التى تزداد كثافة حول مصباحه تدور فى أشكال حلزونية مائلة للحمرة مبينة الخطوط العليا للقباب وجوانب القاعة ذات الابواب الثلاثة التى تواجه الشمال والغرب والشرق •

وكان الباب الاول ، الباب الشمالي ، مخصصا للشعب والثاني يفتح لمرور الملك وجنوده ، أما باب الشرق فقد كان باب اليهود اللاويين . كان العمودان الفولاذيان جاكين وبوعز يريان من الخارج عن طريق البب الثالث ،

وقبل أن يخرج أدونيرام من الباب الغربى ، أقرب الأبواب اليه ، ألقى نظرة على داخل القاعة المظلم وتصورت مخيلته المتأثرة بالتماثيل العديدة التي كان يتأملها للتو ، تصورت رؤية شبح طوبال ـ قابيل وسط الظلام · وحاولت عينه الشابتة النفاذ الى الظلمات الا أن الوهم تضخم وهو ينمحى وبلغ أعالى المعبد ثم ذاب في أغواد الجدران كما لو كان ظل رجل سلط عليه مصباح متحرك مبتعدا · وخيل اليه سماع صرخة شاكية ترن تحت القباب ·

زحینئذ استدار أدونیرام وهو یهم بالخروج و فجأة انفصلت صورة آدمیة عن عمود ملتصق بالحائط وقالت له بصوت مستوحش :
« لو کنت ترید الخروج فاعطنی کلمة سر الرؤساء » •

وكان أدونيرام دون سلاح · ولما كان موضع احترام الجميع ومعتادا على اصدار الأوامر بالإشارة فلم يفكر حتى في الدفاع المقددس عن شخصه ·

وأجاب وقد تعرف على العامل ميتوازييل: « أيها التعس ابتعد! سوف ترقى الى طبقة الرؤساء حينما تصبح الخيانة والجريمة موضع تكريم! لذ بالفرار مع شركائك قبل أن تصل عدالة سليمان الى رءوسكم».

وسمعه ميتوزاييل ورفع مطرقته بذراع قوى فسقطت على جمجمة أدونيرام محدثة صوتا شديدا • واهتز الفنان وقد أذهلته الضربة • وبحركة غريزية سعى الى ايجاد مخرج من الباب الثانى باب الشمال • وهنا وقف السورى فانور وقال له :

- « اذا كنت تريد الخروج فاعطني كلمة سر الرؤساء! » ·

وأجاب أدونيرام في صوت واهن : « انك لم تقض سبع سنوات في العمل » •

- كلمة السر!
  - ا الما أ

وطعنه فانور البناء بمقصه الذي غاص في جنبه ٠

الا أنه لم يستطع تكرار الضربة لأن معمارى المعبد استيقظ من الألم وطار كالسهم الى الباب الشرقى لكى يهرب من قاتليه .

وهنا كان ينتظره عمرو الفينيقي العامل في هيئة النجارين •

وصاح به بدوره قائلا:

ــ اذا كنتَ تويد المرور فاعطني كلمة سر الرؤساء ٠

ونطق أدونيرام في صعوبة وايماء قائلا:

- « انى لم أحصل عليها بهذه الطريقة ، ولتسل في هذا الشان من أرسلك » •

ولما كان يحاول فتح مكان يمر منه ضربه عمرو بسن فرجاره في قلبه ٠

وفى هذه اللحظة دوت العاصفة التى أعلن عنها هدير رعد شديد · كان أدونيرام ملقى على الأرض وقد غطى جسمه ثــلاث بلاطات كبيرة · واجتمع القتلة لدى قدميه وقد أمسك كل منهم بيد الآخر ·

وتمتم فانور قائلا :

\_ « كان هذا الرجل عظيما » ·

وقال عمرو : « انه لن يشغل في القبر مكانا أكبر مما ستشغله» ·

ـ ليسقط دمه على سليمان بن داود!

وأجاب ميتوزاييل قائلا:

ــ « لنتأوه على أنفسنا ؛ انا نملك سر الملك · فلنعدم الدليل على جريمة القتل · ان المطر يسقط والليل بهيم لاضوء فيه وابليس يحمينا · لنجر هذه الجثة بعيدا عن المدينة ونسلمها للقبر » ·

وعلى هذا لفوا الجثة في ميدعة طويلة من الجلد الابيض ورفعوها باذرعهم وهبطوا بها بلا ضوضاء الى ضفة أبو سيدر متوجهين الى أكمة منعزلة تقع فيما وراء طريق بيثانيا • ولما وصلوا الى هناك وقد اعتراهم الاضطراب وارتعدت أوصالهم ، ألفوا أنفسهم فجأة أمام موكب من الفرسان ولما كانت الجريمة تتسم بالجبن فقد توقفوا فالهاربون داغًا جبناء • • وحينئذ مرت ملكة سسبا في صمت أمام قتلة مرتاعين يجرون جثة زوجها أدو نعرام •

وتوجه هؤلاء الى مكان أبعد من ذلك وحفروا حفرة فى الأرض غطت جثة الفنان · وبعد ذلك انتزع ميتوزاييل ساقا صغيرة لشجرة من أشجار الأكاسيا وزرعها فى أرض حديثة الحرث حيث رقدت ضحيتهم ·

وفى أثناء ذلك كانت بلقيس تواصل الهرب خلال الوديان وكانت الصاعقة تمزق السماء وكان سليمان نائما · وكان جرحه أشد قسوة لأنه كان لابد أن يستيقظ ·

وأتمت الشمس دورتها حول الارض حين زال تأثير المخدر الذي شربه · وأخذ يتخبط ، وهو يتألم من أحلام أليمة ، ضد الأشباح والرؤيا ولم يعد الى مجال الحياة الا تحت تأثير هزة عنيفة ·

ونهض سليمان مندهشا · وكانت عينساه التائهتان تبدوان كما لو كانت تبحثان عن عقل سيدهما · وأخيرا تذكر · ·

كانت الكأس الفارغة أمامه · وعادت كلمات الملكة الأخيرة فارتسمت في ذهنه · ولكنه لا يراها أمامه فاعتراه الاضطراب · وأخذ شعاع من أشعة الشمس يطير في سخرية فوق جبينه فجعله يرتعد · وتبين كل شيء وأرسل صرخة غضب مدوية ·

وعبثا حاول جمع المعلومات عنها فان أحدا لم يرها وهي تخرج كما اختفت حاشيتها في الوادي ولم يعثر الاعلى آثار مخيمها ·

وصاح سليمان قائلا وهو يوجه الى الكاهن الكبير صادوق نظرة نائرة: « تلك اذن هى النجدة التى يقدمها ربك الى خدامه! أهذا هو الوعد الذى أعطانى اياه ؛ لقد أسلمنى كألعوبة الى أشراح الهوة السحيقة • أما أنت أيها الوزير الأحمق الذى تحكم باسمه بفضل عجزى، نقد تخليت عنى دون أن تتوقع أى شىء ودون أن تمنع أى شىء! من لى بفرق مجنحة لالحق بهذه الملكة الخائنة! ياجن الأرض والنار ، أيتها المخلوقات المتمردة ، ويا أشباح الجو أتطيعوننى ؛ » •

وصاح صادوق قائلا :

- « لا تلعن · أن يهوا وحده هو الكبير وهو اله غيور » ·

ووسط هذا الهرج ظهر النبى أهياس بن سيلو كئيبا مروعا تلهبه النار المقدسة · كان أهياس حقيرا ومخيفا يستمد مكانته من عقله · ووجه كلامه لسليمان قائلا : « لقد وضع الله علامة على جبين قابيل القاتل وقال : « ان من يحاول قتل قابيل سوف يعاقب سبع مرات ! ولما أراق لاميه ، وهو من سلالة قابيل ، الدم قال الله : سوف ينتقم لموت لاميه سبعين مرة سبع مرات · فاسمع اذن أيها الملك ما أمرنى الله أن أقوله لك : ان من أراق دم قابيل ولاميه سوف يعاقب سبعمائة مرة سبع مرات » ·

وخفض سليمان رأسه وتذكر أدونيرام وعلم من ذلك أن أوامره قد نفذت فانتزع منه القوم تلك الصبيحة : ياللتعساء ! ماذا فعلوا ؟ انى لم أقل لهم أن يقتلوا ، •

لقد تخلى ربه عنه وأسلمه الى رحمة الجن واحتقرته أميرة السبئيين وخانته ولذا فقد اعترى اليأس سليمان فخفض جفنه فوق يد لا تحمل سلاحا ويلمع فيها الخاتم الذى تلقياه من بلقيس وأعطاه هذا الطلسم بصيصا من الأمل و ولما كان يجلس وحده فقد أدار الفص تجاه الشمس وحينئذ رأى جميسع طيور السماء تهرع نحسوه ما عدا الهدهد القبرة

السحرية • ودعاه ثلاث مرات فاضطره الى طاعته وأمره أن يقوده بالقرب من الملكة • وللتو استأنف الهدهد طيرانه ، ولما كان سليمان يرفع ذراعيه نحوه فقد ألفى نفسه يرفع من فوق الأرض ويحمل الى الجو • وتملكه الارتياع فأدار يده وعاد فهبط الى الأرض • أما الهدهد فقد اجتاز الوادى الصغير وحط على قمة أكمة فوق غصن ضعيف من أغصان الأكاسيا لم يستطع سليمان اكراهه على مغادرته •

وتملك الدوار تفكير الملك سليمان ففكر في تسيير جيوش لا حصر لها لتدمير مملكة سبأ بالنار وبالدم · وكان كثيرا مايحبس نفسه ليلعن حظه ويدعو الأشباح · واضطر عفريت من جن الهوات السحيقة الى خدمته وأكره على اتباعه في معازله · ولكي ينسى سليمان الملكة ويغير عاطفته القاتلة أمر باحضار النساء الأجنبيات من كل مكان وكان يتزوجهن طبقا لشعائر محرمة علمته دين الصور الوثني · ومالبث لكي يخضع الجن أن عمر الأماكن المرتفعة وبني في مكان لا يبعد كثيرا عن قمة تابور معبدا لمولوخ ·

وهكذا تحققت النبوءة التي نطق بها طيف هينوش في مملكة النار الي أبنه أدونيرام بهذه العبارة: « لقد قدر لك أن تنتقم لنا وهذا المعبد الذي تقيمه الأدوناي سوف يكون السبب في ضياع سليمان » .

الا أن ملك العبرانيين قد زاد عن ذلك كما يخبرنا التلمود . وذلك لأن خبر قتل أدونيرام كان قد انتشر وطلب الشعب الثائر · تطبيق العدالة وأمر الملك تسعة من رؤساء العمال بالتحقيق من موت الفنان بعد العثور على جثته ·

ومرت سبعة عشر يوما . وكان البحث فيما حول المعبد بلا جدوى وجاب الرؤساء الريف بلا فائدة • وأنهك الحسر أحدهم فأراد التعلق بغصن من أغصان الاكاسيا ليسهل على نفسه مهمة التسلق ، فطار من فوقه طائر لامع مجهول • ودهش رئيس العمال هذا اذ رأى أن الشجرة الصغيرة برمتها تتهادى تحت يده ولا يربطها بالارض أى شى • لقد كانت الارض حديثه الحفر ، فدهش رئيس العمال هذا ودعا اليه رفيقيه •

وفى الحال حفر رؤساء العمال التسعة بأظافرهم ولاحظوا أن الحفرة في شميكل قبر ٠٠ وحينئذ قال أحدهم لاخوانه: « ربما كان المذنبون

عمالا أرادوا انتزاع كلمة سر الرؤساء من أدونيرام · أفسلا يجدر بنا خشية أن يكونوا قد توصلوا ألى هذه الكلمة أن نفيرها ؟

واعترض آخر قائلا : « وأية كلمة نتبناها ؟ » ·

وقال ثالث: « لو وجدنا هنها أستاذنا نختار أول كلمة ينطق بها أى منا · ان تلك الكلمة سوف تخلد ذكرى هذه الجريمة ، والقسم الذى نؤديه هنا للانتقام له نحن وأبناؤنا من قتلته ونسلهم مهما كانوا من المتأخرين .

وحلف اليمين واتحدت أيديهم فوق القبر ثم عادوا الى الحفر والتنقيب بهمة ونشاط ·

ولما تعرفوا على الجثة أمسك أحد رؤساء العمسال بأحد أصابعها فانسلت جلده في يده ، وكذلك الحال بالنسبة لثان · وأمسك به ثالث من معصمه كما يفعل رؤساء العمال مع العمال فانفصل الجلد كذلك . وحينئذ صاح هذا قائلا: « ماكبيناخ » أى اللحم يترك العظم (١) ·

وفى الحال اتفقوا على أن تكون تلك الكلمة من الآن فصاعدا هى كلمة سر الرؤساء وصيحة تجمسع المنتقمين لأدونيرام • وأرادت عدالة السماء أن تؤلب تلك الكلمة ولقرون طويلة الشهسعوب ضد الملوك وسلالاتهم .

وكان فانور وعمرو وميتوزاييل قد لاذوا بالفرار . الا أن العمال في بلاد ماكا ملك بلاد جيتسمانيا قتلوهم وقد ظنوهم متخفين في زى العمال وكان هؤلاء الشلكية قد اختبئوا في هذا البلد تحت أسماء ستركين وأوترفوت وهوبن .

ومع ذلك فان الهيئات العمالية اسمستمرت تحت ايحماء خفى فى تتبع الثار الذى أخذوا به خطأ من أبيرام (٢) أو القاتل . . وظلت سلالة أدونيرام مقدسة بالنسبة لهم ، ذلك أنهم ظلوا لمدة طويلة يقسمون بابن الأرملة ويقصدون بذلك نسل أدونيرام وملكة سبأ .

وبناء على أمسر من سليمان بن داود دفن أدونيرام العظيم تحت الهيكل في المعبد الذي شيده ، وهذا هو السبب الذي من أجله تخلى ادوناى عن سفينة العبرانيين وضرب العبودية على خلفاء داود .

<sup>(</sup>١) هذه القصص استقاها نيرفال من تقاليد الماسونية .

<sup>(</sup>٢) هذا هو اسم أحد القتلة حسب رواية ماسونية أخرى .

وتزوج سليمان في تعطشه الى المجد والنفوذ والملذات من خمسمائة المرأة ، وتمكن أخيرا من اجبار الجن الذين تصسالح معهم على خدمة اغراضه ضد الامم المجاورة وذلك بواسطة الخاتم الشهير الذي صاغه فيما مضى « ايراد » أبو كاينيت ما فيائيل والذي آل على التوالى الى هينوش الذي استخدمه ليتحكم في الصخر ثم « جارد » الكاهن الأعظم تم النمرود الذي أورثه لسبا أبي الحميريين (۱) .

وأخضع خاتم سليمان لسلطانه الجن والرياح والحيوانات جميعا. ولما شبع من السلطة والملذات صار الحكيم يردد: « كلوا واحبوا واشربوا ففيما عدا ذلك ليس الا غرور » .

وبالغرائب المتناقضات: ان سليمان لم يكن سهيدا! لقد كان هذا اللك الذي حطت المادة من قيمته يريد أن يصبح خالدا ...

وكان يأمل بحيله وبعون من علمه العميق أن يتوصل الى ذلك بواسطة بعض الشروط: فلكى يطهر جسمه من عناصر الفناء دون أن يذيب هذا الجسم كان لابد أن يستفرق في سبات الأموات العميق طوال مائتين وخمسة وعشرين عاما في مأمن من كل ما قسد يحيق به ومن أى عامل من عوامل التلف. وبعد ذلك تعود الروح الشاردة الى غلافها وقد استعادت شبابها في أزهى مراحل الرجولة المتفتحة ويدل عليها سن الثالثة والثلاثين .

ولما كان سليمان قد اصبح شيخا محدودبا فما أن تبين من اضمحلال قواه الدلائل على اقتراب النهاية أمر الجن الذين استعبدهم بأن يبنوا له في جبل قاف قصرا لا يصل اليه أحد ، وشيد في وسطه عرشا ضخما من الذهب والعاج تحمله اربعة أعمدة صنعت من ساف شجرة بلوط قوية .

وهناك قرر سليمان ، أمير الجن ، قضاء فترة هذه التجربة ، وقد قضى الفترة الاخيرة من حياته فى السميطرة على جميع الحيوانات والعناصر والمواد ذات الخصائص الكفيلة بتحليل المادة وذلك بواسطة الرموز السحرية والعبارات التصوفيه وبمساعدة الخاتم ، وقد سيطر على بخار السحاب ورطوبة الارض وأشعة الشمس وهبوب الرياح والفراشات والعثه واليرقات ، كما سيطر على الطيور الجارحة

<sup>(</sup>۱) هذه المعلومات استقاها نرفال من «المكتبة الشرقية» لهربلو .

والخفافيش والبومة والفئران والذباب الملوث والنمل وأسر الحشرات الزاحفه أو القارضة وكذلك سيطر على المعادن والحجارة والقلويات والحوامض وحتى على ما تخرجه النباتات .

وبعد أن اتخد هذه الاجراءات وتأكد من أنه انتزع جسمه من جميع عوامل الهدم ، أعوان ابليس التي لا ترحم ، أمر بأن يحمل للمرة الاخيرة الى قلب جبل قاف ، وجمع الجن وفرض عليهم أعمالا ضخمة بعد أن حملهم ، تحت التهديد بأفظع الوان العقاب ، على احترام نومه والسهر من حوله .

وبعد ذلك جلس على عرشه وعدل بقوة جميع أعضاء جسمه التى بدأت تبرد شيئًا فشيئًا . وذبلت عيناه وتوقفت أنفاسه وراح في سبات الموت .

واستمر عبيده من الجن في خدمته وفي تنفيذ أوامره وفي السجود أمام سيدهم الذي كانوا ينتظرون صحوته ·

واحترمت الرياح وجهه ولم تجرؤ اليرقات التي تولد الدود على الاقتراب منه ، واكرهت الطيور وذوات الأربع القوارض على الابتعاد . وأدار الماء بخاره • وهكذا وبفضل التأثيرات السحوية ظل الجسم سليما لمدة قرنين من الزمان .

وطالت لحية سليمان وتدلت حتى قدميه ونفذت أظافره من جلد قفازاته ومن قماش حذائه المذهب .

ولكن كيف تتمكن الحكمة البشرية مع حدودها الضيقة من بلوغ الخلود ؟ لقد اهمل سليمان السيطرة السحرية على احدى الحشرات وأصغرها اطلاقا . . لقد نسى احد أنواع حشرة العثة .

وتقدمت العثة دون أن يتبينها أو يراهـا أحد · والتصقت بأحد الأعمدة التي يستند اليها العـرش وقرضته في بطء ودون أن تتوقف اطلاقا · ومهما بلغت حاسة السمع من ارهاف فلم تكن لتسمع حكيك هذه الذرة التي كانت تهز خلفها كل عام مقدار بضع حبات منشورة نشرا ضئيلا .

وظلت تعمل طيلة مائتين وأربعين عاما . . ثم فجأة مال العمود المقروض تحت ثقل العرش الذي انهار محدثا صوتا ضخما .

وهكذا هزمت العثه سليمان وكانت هي أول من علم بموته لأنه ملك الملوك حين تدحرج على الأرض لم يستيقظ .

وحينئذ علم الجن الراسفون في قيود الذل بخطئهم واستعادوا حريتهم .

هنا تنتهى قصة سليمان بن داود العظيم الذى لا بد أن يستمع المؤمنون الصلادقون قصته باحترام لأن يد النبى قد خطتها باختصار في السورة الرابعة والثلاثين من القرآن مرآة الحكمة وينبوع الحقيقة.

# نهاية قصدة سليمان وملكة الصباح

واختتم الراوى قصته التى دامت قرابة أسبوعين . وقد خشيت تشتيت اهتمام القارىء لو تحدثت عما شاهدته فى استانبول فى فترات الاستراحة فى تلك السهرات . وكذلك لم آخذ فى الاعتبار بعض القصص الصغيرة التى تخللت الرواية هنا وهناك كما هى العادة ، سواء فى اللحظات التى يكون فيها الجمهور بعد قليل العدد أو للترفية بعد بعض التفاصيل الدرامية . وكثيرا ما ينفق أصحاب المقاهى المبالغ الطائلة الخسمان منافسة هذا أو ذاك من الرواة المشهورين . ولما كانت الجلسة مقاه عديدة فى نفس الليلة . كما أنهم يحضرون جلسات فى الحريم حين يريد الزوج أن تشاركه اسرته المتعة بعد أن يتأكد بنفسه من أن الرواية مشوقة . ويتوجه الحريصون من الناس لدى تحديد أجر الراوى الى رئيس هيئة الرواة الذين يسسمونهم « القصيديين » ، وذلك لأنه قد يحسدث أحيانا أن يختفى سيئو النية من الرواة ، حين لا يكون راضيا عن الأجر الذى تناوله من المقهى أو من المنزل ، وسط موقف مشوق عن الأجر الذى تناوله من المقهى أو من المنزل ، وسط موقف مشوق تاركا المستمعين آسفين لعدم قدرتهم على معرفة خاتمة القصة .

وكنت احب كثيرا المقهى الذى يرتاده أصدقائى الايرانيون نظرا لتنوع رواده وحرية القول السائدة فيه . كان هذا المقهى يذكرنى بمقهى سورات الذى حدثنا عنه برناردان دى سان بيير (١) والواقع أن التسامح

<sup>(</sup>۱) نشرت هذه القصة سنة ۱۷۹۹ وقد رواها فولتير في قصة زاديج - في هسنده القصة نرى رواد المقهى يردون على اسئلة احد الفلاسفة حول دين كل منهم فيقرظ كل دينه حتى ياتى دور أحد الصينيين فيبين أن كل الادبان سواء .

في هذه الإجتماعات التي تضم تجارا من جميع بقاع اسيا أكبر منه في المقاهي التي لا برتادها الا الأتراك أو العرب ، وكانت القصة التي رواها

ق هده الإجتماعات التي تضم تجارا من جميع بعاع اسيا البر منه ق المقاهي التي لا يرتادها الا الأتراك أو العرب ، وكانت القصة التي رواها لنا الراوي تناقش في كل جلسة من مختلف جماعات الرواد ، وذلك لان الحديث في مقاهي الشرق لا يكون أبدا عاما ، وفيما عدا ملاحظات الحبشي الذي يبدو أنه يسرف في تعاطى « عصير نوح » فان أحسدا لم يضع المعطيات الرئيسية للرواية موضع الشك ، وذلك لانها في الواقع مطابقة للمعتقدات العامة في الشرق . ومع ذلك فقد صادفنا شيئا من روح المعارضة الذي يتميز به الفرس والعرب من سكان اليمن ، كان راوينا ينتمي الى مذهب على الذي يشبه الى حد ما التقليد الكاثوليكي راوينا ينتمي الأتراك قد اجتمعوا على مذهب عمر الذي يعتبر مثل البروتستانتية والذي نشروه حين اخضعوا الشعوب الجنوبية (كذا) ،

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العــ



### نافورة المياه العذبة لآسسيا

لم نكن قد عدلنا عن فكرة تخصيص يوم من أيام الجمعة لزيارة نافورة المياه العذبة لآسيا • وفي هذه المرة اخترنا الطريق البرى الذي يؤدى بعد ذلك الى بويوكدرى .

وفي الطريق توقفنا لدى بيت ريفي كان مقرا ل ب . أفندى وهو أحد كبار موظفى السلطان ، وكان هذا الموظف أرمينيا متزوجا من قريبة الأرمن الذين يقيم لديهم صديقي ، وكانت ثمة حديقة مزينة بالنباتات النادرة تتقدم مدخل البيت وكانت هناك طفلتان غاية في المجمال مرتديتان ملابس تجعلهما سلطانتين صغيرتين تلهوان في الممرات تحت رعاية مربية زنجية . وتقدمت الفتاتان لتقبيل الرسام ورافقتانا حتى داخل البيت ، وأتت سيدة في ملابس شرقية لاستقبالنا وقال لها صديقي : « كاليميرا كوكونا » أي صباح الخير ياسيدتي ، لقد حياها باللغة اليونانية لأنها كانت من هذه البلاد رغم ارتباطها بالأرمن ،

وقد يجد المرء شيئا من الحرج لاضطراره للحديث في علاقة سفر عن شخصيات من الأحياء لا سيما اذا كانوا قد بدلوا قصارى جهدهم لحسن استقبال الأوربي العابر والذي يسعى الى أن يحمل في عودته الى بلاده شيئا من الحقيقة حول العادات الاجنبية والمجتمعات المتعاطفة في كل مكان مع مجتمعاتنا والتي ترسل اليها الحضارة الفرنسية اليوم بعضا من اشعة النور ... واذا كنا في العصور الوسطى قد تلقينا كل شيء من الشرق فنحن الآن نريد ان نعيد الى هذا المنهل المشترك الذي نهلت منه الانسانية جمعاء القدرات التي منحتنا اياها لكى تصبح الأم العالمية عظيمة من جديد .

ان اسم فرنسا الجميل عزيز على هذه الامم البعيدة : وهنا تكمن قوتنا المستقبلة ... هذا هو ما يمكنها من الانتظار مهما فعلت الديلوماسية المستهلكة لحكوماتنا .

ويمكننا أن نقول ونحن نذكر بعض شخصيات تلك البلاد ما قاله راسين في مقددمة مسرحيته « بايزيد » : « ان هذا جد بعيد » ولكن أليس من المستطاع أن نوجه الشكر الى مضيفين هرعوا الينا وغمرونا بكرم ضيافتهم كما فعل لنا الارمنيون ؟

انهم باعتبارهم أكثر اتصالا من الأتراك بافكارنا فهم يعتبرون نوعا من مراحل الانتقال تؤدى الى حسن نوايا الاتراك التى كانت فرنسا دائما بالنسبة نهم الأمة الصديقة .

واعترف أننى بعد غيبة عام كامل عن بلادى وجدت متعة كبيرة في العثور على وسط عائل أوربى خالص ، فيما عدا ملابس النساء ، التى لا ترتبط ، لحسن حظ اللون المحلى ، الا الى آخر الصبيحات المستحدثات في استانبول .

وقدمت لنا السيدة ب ٠٠ تحية الضيافة بواسطة بنتيها الصغيرتين. وبعد ذلك دلفنا الى القاعة الرئيسية حيث كان يوجد عدد كبير من نساء الشرق • وجلست احداهن أمام البيانو لكى تلعب أحدث المقطوعات التى وصلت من باريس ؛ وكان ذلك تحية حظيت بتقديرنا الشديد ونحن نبدى اعجابنا بأجزاء من أوبرا جديدة لهاليفي •

وكانت ثمة بعض الجرائد على الموائد وبعض كتب الشعر والمسرحيات لفيكتور هوجو ولامارتين . وهذا يبدو غريبا لمن قدم من سوريا وبسيطا غاية في البساطة اذا تذكرنا أن القسطنطينية تستهلك من الكتب الأدبية والفنية الآتية من باريس مثلما تستهلك بيترسبورج تقريبا .

وبينا كنا نمر بأعيننا على الكتب المصورة ومجموعات الصور دخل السيد ب · وأراد استبقاءنا للعشاء · ولكن لما كنا قد عزمنا على الذهاب الى المياه العذبة فقد اعتذرنا شاكرين · وأصر السيد ب · · على مرافقتنا حتى البسفور ·

وقضينا بعض الوقت على الشاطىء فى انتظار احد القوارب . وبينما كنا نجوب الرصيف رأينا رجلا ذا مظهر جليل ولون يشبه لون الأجناس المختلطه قادما من بعيد وهو يرتدى ملابس غاية فى الاناقة

على الطريقة التركية ، لا على طراز ثوب الاصلاح ولكن على الطراز القديم .

وتوقف الرجل حين رأى السيد ب . . . الذى حياه في احترام وتركناهما يتحدثان بعض الوقت ، واخبرنى صديقى أنه شخصية كبيرة وأنه ينبغى توجيه سلام حار له حين يغادرنا ، قال ذلك وهو يضع يده على صدره ويده على فمه حسب العادة الشرقية ، وقد قمت بتنفيذ هذه التعليمات ورد الرجل ذو الدم المختلط التحية بظرف جم ،

وكنت واثقا من أنه ليس السلطان الذى رأيته من قبل . فقلت في نفسى حين ابتعد من عساه يكون ؟

واجابني الرسام بمزيج من مشاعر الاعجاب وبعض الفزع: - انه كيسلر أغا .

وفهمت كل شيء . ان كيسل أغا هو رئيس خصيان السراى وهو أكثر رجل يخشى جانبه بعد السلطان وقبل رئيس الوزراء . وأسفت لأننى لم أعقد معرفة أكثر توثقا مع هذه الشخصية التي كانت تبدو شديدة الأدب ولكن كذلك شديدة الاقتناع بأهميتها .

وأخيرا التحق بنا بعض الراغبين في الركوب . وغادرنا ب .. افندى وحملنا قارب ذوستة من المجدفين الى الشاطىء الأسيوى .

وقضينا ساعة ونصف الساعة لبلوغ المياه العذبة • وكنا نعجب على كلا الشاطئين بالقلاع المشرفة مناحية البحر الأسود على بيراواستانبول واسكودا والتي تحميها من غزوات القرم أو التريبيزوند • انها عبارة عن أسوار وأبراج كتلك التي تفصل بيرا عن غلطه •

ولما تعدينا القلاع الأسيوية والأوربية دخل قاربنا الى أنهار المياه العذبة وكانت الأعشاب العالية التى تطير منها طوائف طيور البحر هنا وهناك تحف بهذا المصب الذى ذكرنى بعض الشيء بفرعى النيل اللذين يصبان قرب البحر في بحيرة المنزلة . الا أن الطبيعة هنا كانت أكثر هدوءا وأشد اخضرارا وأقرب الى طابع الشمال وكانت تعبر عن جمال اللاتنا المصرية كما تترجم اللغة اللاتينية اللغة اليونانية باضعافها ،

ونولنا برا فى برارى رائعة تتخللها المياه الحارية . وكانت الفابات التى تتميز فى اضاءتها بدوق فنى تضفى من مكان الى آخر ظلالها على الأعشاب الطويلة • وكانت الحيام التى نصبها باعة الفاكهة والمرطبات

تضفى على المنظر طابع الواحات التى تتوقف لديها القوافل المتنقلة . وكان المكان غاصا بالناس فكانت ألوان الثياب المختلفة تغير من لون الخضرة كما يحدث حين تنعكس ألوان الزهور الزاهية على الحشائش فى الربيع . وفي افسح مكان خال وسط أشجار الغابة تبينا نافورة من الرخام الأبيض تشبه في هيئتها منظر السرادقات الصيفية التى يطفى اسلوبها الهندسي الخاص على القسطنطينية .

ان فرح هؤلاء الناس بشرب الماء جعلهم يخترعون أجمل ما يخطر فكرته على بالنا من المنشئات . لم يكن ذلك نبعا كنبع أرنئوط - قول الذي ينبغى أن ننتظر أمامه مزاج أحد الأولياء الذي لا يسمح بانسياب الماء من النافورة الا ابتداء من يوم عيده . ويطيب هذا للكفار الذين ينتظرون بصبر طويل أن تهبط معجزة فتتيح لهم الارتواء من الماء الصافى . أما في نافورة المياه العذبة لأسيا فلا تعذب مثل هذه النزوات أحد . ولست أدرى أي ولي من أولياء الله المسلمين يجعل المياه تنساب في وفرة وصفاء لا يعرفهما القديسون من اليونانيين . ويدفع المرء بارة واحدة للحصول على زجاجة من هذا الشراب الذي يكلف للعدول عليه من مكانه عشرة قروش كنفقات سفر .

وكانت العربات من جميع الانواع ، وأغلبها مذهب وتجره الثيران، قد أوصلت نساء اسكودار الى ينابيع المياه العذبة . ولذا فلم نر بالقرب من النافورة الا نساء وأطفالا يتكلمون ويصرخون ويتحدثون فى انطلاق وضحك وتخبطات مازحة لطيفة بتلك اللغة التركية التى تشبه مقاطعها الرقيقة شقشقة الطيور .

واذا كانت النسباء الى حد ما مختفيات تحت خمرهن فانهن مع ذلك لا يحاولن الاختفاء الشديد عن الافرنج المستطلعين ١٠ ان تعليمات الشرطة التى كثيرا ما تأمرهن بجعل الخمر أكثر كثافة وان يحجبن عن الكفار كل عورة من شائها التأثير على احاسيسهم تلهمهن نوعا من الاحتشام لا يضعف بسهولة أمام اغراء عادى ٠

وكانت حرارة النهار في هذا الوقت شديدة وكنا قد حلسنا تبحت شجرة ضخمة من أشجار السيجان تحيط بها الأرائك الريفية وحاولنا الاستغراق في النوم الا أن النوم ظهرا مستحيل بالنسبة للفرنسيين ولما لاحظ الرسام أننا لا نستطيع النوم أخذ يقص علينا احدى القصص

كانت القصة هي مفامرات أحد أصدقائه وكان قد قدم ال

القسطنطينية لجمع ثروة عن طريق طبع الصور على المعادن الحساسة (١)٠

كان يبحث عن الأماكن شديدة الزحام . وأتى يوما فوضع جهازه العاكس تحت ظلال المياه العذبة ·

وكان ثمة طفل بلهو على الحشائش وأسعد الحظ الفنان بتثبيت صورته الكاملة على لوحة معدنية • ووسط فرحته برؤية هذه التجربة الناجحة عرضها أمام محبى الاستطلاع الذين لا ينعدمون أبدا في مثل هذه المناسبات .

واقتربت الأم بدافع طبيعى من حب الاستطلاع ودهشت ارؤية طفلها وقد رسم بكل هذا الوضوح ، وظنت أن ذلك ضرب من فروب السيحر .

ولما كان الفنان لا يعرف اللغة التركية فلم يفهم لأول وهلة التقريظ الذي وجهته له السيدة . الا أن زنجية كانت ترافق السيدة وجبت اليه اشارة ٠٠ وصعدت السيدة الى عربتها واتجهت الى اسكودار ٠

وحمل الرسام تحت ابطه الصندوق الذي يحتوى على جهازه العاكس ، وهي آلة ليست سهلة الحمل ، وظل يتبع العربة مسيرة فرسخ كامل .

رحين وصل الى أولى مساكن اسكودار رأى العربة من بعيد تتوقف وتنزل منها السيدة الى كشك منعزل يطل على البحر ·

وأشارت اليه العجوز بألا يظهر نفسه وأن ينتظر ، وحين أدخى الليل سدوله أدخلته الى البيت .

ومثل الفنان أمام السيدة التي صرحت له بأنها استقدمته ليستخدم آلته في رسم صورتها بنفس الطريقة التي استخدمها في رسم صورة طفلها .

وأجاب الفنان قائلا أو بالأحرى محاولا افهامها:

« ان هذه الآلة لا تعمل الا في الشمس » .

 <sup>(</sup>۱) الامر يتعلق ولاريب بالرسام اميل روجييه الرسام الذى حاول جمع الثرية عن طريق رسوماته وكذلك عن طريق الطبع على المعادن الحسياسة ٠٠

وقالت السيدة:

## « حسن ، لننتظر الشمس » •

وكانت السيدة ، لحسن حظ الاخلاق لدى المسلمين ، أرملة . وفي صباح اليوم التالى انتهز الفنان فرصة نفاذ شعاع جميل من أشعة الشمس من خلال النوافذ ذات القضبان فانهمك في عكس ملامح السيدة الجميلة القاطنة في حي اسكودار ، لقد كانت في شرخ شبابها رغم أنها أم لطفل كبير وذلك لأن نساءالشرق كما نعرف يتزوج أغلبهن في سن الثانية عشرة ، وبينما كان يهذب لوحته سمعت صوت طرقات على الباب الخارجي ،

#### وصاحت به السيدة قائلة :

" اختبى، وساعدتها الخادمة فى ادخال الرجل وجهازه العاكس فى خزانة ضيقة جدا ملحقة بغرفة النوم ، وقضى الرجل التعس فى صومعته تلك وقتا طويلا كان فيه نهبا للافكار السوداء فقد كان يجهل أن هذه المرأة أرملة وظن بطبيعة الحال أن الزوج قد عاد فجأة ودون اخطار من بعض رحلاته ، وكان ثمة فرض آخر لا يقل عن الأول خطورة ألا وهو تدخل الشرطة الى هذا البيت الذى ربما يكون البعض قد لمح فيه فى الليلة الماضية دخول أحد الكفار ، وفى تلك الاثناء كان يصيخ السمع ، ولما كانت المنازل الخشبية للاتراك ليس بها الا حواجز غاية فى الضعف فقد عداً روعه قليلا حين لم يسمع الا وشوشة أصوات نسائية ،

والواقع ان السيدة قد استقبلت احدى صديقاتها التى أتت لزيارتها • الا أن الزيارات التى تقوم بها النساء فى القسطنطينية تستمر عادة طول النهار فان هؤلاء العاطلات الجميلات ينتهزن كل فرصة لقتل أكبر قدر ممكن من الوقت . وكان ظهوره خطرا فان الزائرة قد تكون عجوزا أو قبيحة الشكل . وفوق ذلك فرغم أن الزوجات يتقاسمن الازواج فى سهولة الا أن الغيرة لا تغيب غن نفوسهن حين يكون الأمسر متعلقا بمسألة غرامية • لقد كان التعس موضع اعجاب •

وحين أقبل المساء غادرت الصديقة الثقيلة البيت أخيرا بعد أن تناولت الغداء ثم المرطبات بعد ذلك واسترسلت في أحاديث تغلب عليها بلا شك الغيبة ، وهكذا أمكن اخراج الفرنسي من مخبئه الضيق .

وكان الوقت متأخرا بحيث يتعذر استئناف العمل الطويل الشافى

في الصورة ، كما أن الفنان كان قد تحمل الجوع والعطش لعدة ساعات · ولذا فقد اضطروا الى ارجاء الأمر لليوم التالي ·

وفى اليوم الثالث ألفى نفسه فى موقف البحار الذى تحدثت عنه الأغنية الشعبية وزعمت أن احدى رئيسات عهد لويس الخامس عشر قد احتجزته مدة طويلة ... وبدأ الملل يتسرب الى نفسه ،

ان حديث السيدات التركيات ذو وتيرة واحدة فضالا عن أنه من العسير ، حين يجهل المرء اللغة التركية ، أن يتسلى لمدة طويلة بصحبتهن . لقد توصل الى انجاز الصورة المطلوبة بنجاح وأفهم السيدة أن ثمة أعمالا على جانب كبير من الاهمية تستلزم عودته الى بيرا . الا أنه كان من المستحيل الخروج من البيت فى وضح النهار . وحين أقبل المساء قدمت له السيدة تحية رائعة من المرطبات اضطرته الى البقاء كدليل لا أقل منه للاعتراف بكرم الضيافة هذا . ومع ذلك ففى اليوم التالى ابدى رغبته القوية فى الانصراف . وكان لابد كذلك من انتظار حلول المساء ولكنهم أخفوا آلة الطبع الحساسة فكيف له الخروج من هذا البيت دون تلك الآلة الثمينة التى لم يكن من المكن فى هذا الوقت العثور على مثلها فى المدينة ؟ كما أنها كانت مصدر رزقة ، أن نساء اسكودار على شيء من التوحش فى علاقاتهن الفرامية ، وقد افهمت الكلمات التركية ، بأنه اذا كان يريد مغادرتها من الآن فصاعدا فسوف تستدعى الجيران مدعية أنه تسلل خفية الى البيت للاعتداء على شرفها ،

وانتهت تلك العلاقة المزعجة بنفاد صبر الشاب فتخلى عن آلته وتوصل الى الهرب من النافذة حينما كانت السيدة مستفرقة في النوم.

والمؤسف في هذه المفامرة أن أصدقاءه في بيرا لما افتقدوه أكثر من ثلاثة أيام قاموا بابلاغ الشرطة التي حصلت على بعض المعلومات عن المشهد الذي دار في ينبوع المياه العدبة لأسيا و ورأى بعض الريفيين العربة وهي تمر وانفنان يتبعها من بعيد واستدلت الشرطة على البيت ولا بد أن السيدة التركية التعسة كانت تلقى مصرعها بواسطة الشعب المتعصب الفاضب من استقبالها لاحد الكفار لولا أن الشرطة اختطفتها سرا وكان جزاؤها خمسين ضربة عصا كما تلقت الزنجية خمسا وعشرين ضربة اذ أن القانون لا يطبق على العبيد الا نصف العقوبة التي تطبق على الاحرار من الناس و

## ٧ \_ أمسية عيد الفطر

ن عيد الفطر لدى الأتراك يشبه عيد رأس السنة عندنا • فان الحضارة الأوربية التى نفذت شيئا فشيئا الى عاداتهم قد جذبتهم شيئا فشيئا فيما يختص بالتفاصيل المتفقة مع دينهم •

وهكذا فان النساء والأطفال يشغفون حبا بالتحلى بالزينات والكماليات واللعب القادمة من فرنسا أو ألمانيا ، وفوق ذلك فاذا كانت النساء التركيات يتقن صنع المربى فان امتياز صنع الحلوى وتعليبها تعليبا والمعا في صناديق من الكرتون ينتمى الى الصناعة الباريسية ، ولقد مر رنا في طريق عودتنا من ينبوع المياه العذبة بشارع بيرا الكبير الذى أصبح في هذه الأمسية شبيها بشارع لومبارد لدينا ، ولقد طاب لنا التوقف لدى صانعة الحلوى الأولى مدام مونييه لتناول بعض المرطبات ومشاهدة الجماهير ورأينا هناك بعض الشخصيات الكبيرة وأثرياء الاتراك الذين قدموا بانفسهم للحصول على المشتروات اذ أنه ليس من الحرص في شيء في هسذا البلد تكليف الأتباع بشراء الحلوى ، وكانت مدام مونيه تحظي بصفه خاصة بثقة علية القوم من الأفندية الذين كانوا يعرفون أنها لن تبيعهم الا الموثوق به من الحلوى ، وقد يحدث أحيانا أن يؤدى التنافس والغيرة والأحقاد به من الحوائم في المجتمع الاسلامي ، واذا كان الصدام المسلح قد أصبح نادرا الا أن السم في بعض الاحوال ما زال هو الحجة الكبرى لدى النساء اللاتي ظللن حتى ذلك الوقت أكثر تخلفا من أزواجهن ،

وفى لحظة ما اختفى جميع الأتراك من المحل حاملين لفائفهم لمسا يختفى الجنود حين تدق ساعة الانسحاب ، لأن الوقت كان قد حان لاداء احدى الصلوات التي يؤدونها ليلا في المساجد. ان هؤلاء القوم الطيبين لا يكتفون في سهرات رمضان بالاستماع الى الرواة وبرؤية القراقوز فان لديهم أوقاتا للصلاة تسمى « ركعات » ترتل فيها في كل مرة عشر آيات من القرآن • وينبغي في كل ليلة تأدية عشر ركعات سواء في المساجد ، وهو الأفضل ، أو في البيت أو في الشارع اذا لم يكن للمرء بيت ، كما يحدث لكثير من الناس الذين لا ينامون الا في المقاهي • وعلى ذلك فان المسلم الحق يجب أن يرتل كل ليلة مائتي آية أي ستة آلاف آية في الليالياليالياليالياليالياليالياليا والسرح أو النزهات الا نوعا من الترويح بعد هذا الواجب الديني •

وقصت علينا بائعة الحلوى قصة تبين الى حد ما سداجة بعض الموظفين الأتراك • كانت قد أرسلت في طلب بعض صناديق اللعب من نورمبرج عن طريق سفينة تمر في نهر الدانوب • وكانت رسوم الجمارك تدفع بناء عن الاقرار بثمن البضاعة • الا أنه في القسطنطينية وغيرها لتجنب الغش فان للادارة الحق في الاحتفاظ بالبضاعة بعد دفع الثمن المذكور في الاقرار اذا افترضت أن قيمتها أكبر •

ولما انتزعت أغلفة صناديق اللعب القادمة من نورمبرج أصدر جميع موظفى الجمرك صيحة اعجاب وكان الاقرار يقدر قيمة البضاعة بعشرة آلاف قرش ( ٢٦٠٠ فرنك ) وكانت حسب تقديرهم تقدر على الأقل بثلاثين ألفا وهكذا احتفظوا بالصناديق التي كان الثمن الذي دفع في بيعها بهذه الطريقة سخيا دون أن تتحمل صاحبتها نفقات تفريغ وأخذت مدام مونييه العشرة آلاف قرش وهي تسخر من سذاجتهم وتقسمواهم الدمي والجنودوالعرائس الخشبية لاليهدوها لأطفالهم ولكن ليلهواهم انفسهم بها والجنودوالعرائس الخشبهة لاليهدوها لأطفالهم ولكن ليلهواهم انفسهم بها و

وفى اللحظة التي غادرت فيها الحانوت عثرت فى أحد جيدوبى ، وانا أبحث عن مندديلى ، على القنينة التي كنت اشد تريتها فى ميدان سيراسكييه ، وسألت مدام مونييه من كنه هذا الشراب الذى بيع الى على أنه مرطب والذى لم استطع تحمل الجرعة الأولى منه : هل هو عصير ليمون آسن أم شراب بافارى مضروب أم شراب خاص بهذا البلد ؟

وانفجرت بائعة الحلوى وفتياتها ضاحكات في جنون لدى رؤية القنينة بحيث غدا من المستحيل استخلاص أية بيانات منها وقال لى الرسام وهو يشيعني ان هذا الضرب من المشروبات لا يباع الا للأتراك حين بلوغهم سنا معينا ومن المعتاد في هذا البلد أن تضعف الحواس بعد سن الثلاثين ومع ذلك فان كل زوج مجبر عدين ترتسم آخر. تقويرة

لهلال العيد ،على أداء أكثر واجباته خطورة ٠٠ ومنهم من لاتكفى مهازل قر اقوز لاثارته ٠

وهلت ليلة العيد: ورحل هلال رمضان اللطيف الى حيث رحلت الأهلة السابقة وثلوج العام الماضى ،مما كان يسلم شاعرنا العجوز فرانسوا فيللون الى أحلام اليقظة والواقع ان الحفلات فى صبغتها الجادة لاتبدأ الا من الآن و ان الشمس التى تطلع لافتتاح شهه شوال ينبغى لها ان تنتزع التاج من فوق رأس القمر المتعالى وتجرده من هذا الضياء الذى أغتصبه منها فتحول طوال ثلاثين يوما الى شمس حقيقية ليلية، بمساعدة الأنوار والمصابيح والألعاب النارية وأخبرنى الايرانيون الذين يقيمون معى فى ييلدزخان باللحظة التى يشيع فيها القمر الى مثواه ويجلس فيها الهلال الجديد على عرشه ويقام لتلك المناسبة حفل رسمى واثع و

وقامت قوات الجيشس في تلك الليلة بحركة كبيرة · وأقيم سياج بين اسكى سراى محل اقامة السلطانة الأم والسراى الكبيرة الواقعة في الطرف البحرى لاستانبول · وابتداء من قصر الأبراج السبعة وقصر بليزير الى مسجد أياصوفيا أخذ الناس يتدفقون من مختلف الاعباء نحو هاتين النقطتين ·

وكيف يتسنى لى وصف جمال هذه الليلة المحظوظة ؟ وكيف اشرح على وجه الخصوص السبب الغريب الذى من أجله تجعل هذه الليلة السلطان الرجل الوحيد السعيد فى امبراطوريته ؟ فقد اضطر جميع الناس المتمسكين بالدين خلال شهر كامل الى الامتناع عن أية فكرة مرتبطة بالحب (١) .

ولم يبق أمامهم الاليلة واحدة ثم يصبح في امكانهم ارسال باقة الزهور الدالة على التفضيل الى من يقع عليها الاختيار من نسائهم ، اذا كان لهم الكثير · أما اذا لم يكن لهم سوى زوجة واحدة فان الباقة تصديم حقا لها ·

اما السلطان فبصفته حاكما مطلقا (بادشاه) وخليفة فمن حقه عدم الانتظار حتى الليلة الأولى من هلال العيد وهو هلال الشهر القادم ولا يظهر الا في اليوم الأول من أيام شهر العيد • وبذا يكون له السبق بليلة

 <sup>(</sup>۱) من الواضع أن كلام نيرقال فيه الكثب من الخيال والغرض من ذلك هو أثارة مواطنيه من القراء .

واحدة على جميع رعاياه من أجل الحصول على وريث وفي هذه الحالة لاتنجبه الا امرأة جديدة ·

هذا هو مضمون الاحتفال الذي اقيم كما قيل لى بين السراى القديمة والجديدة • وتقدم أم السلطان أو عمته الى ابنها جارية عذراء تشتريها بنفسها من السوق وتقودها في موكب تحوطه الأبهة في عربة من عربات المواكب •

وفعلا ما لبت خيط طويل من العربات ان عبر الاحياء الماهسولة في استانبول متبعا الشدع المريزي حتى اياصوفبا التي يفع باب الفصر التبير بجوارها وكانت تلك العربات ، وعددها عشرون ، تضم جميع قريبات سموه وكذلك جميع السلطانات اللاتي تحررن من العبودية مع الحصول على معاش بعد انجابهن لأمير أو أميرة ولم تكن سياجات العربات تمنع من تمييز أشكال روسهن المغطاة بالنقاب الاببض أو ملابسهن الخارجية وكانت من بينهن واحدة الدهشتني ضخامتها ولا بد أنها تحظى ببعض الامتيازات أو بفضل آلحرية التي تستمدها من مركزها أو من سنها لمسهد تكن هذه تحيط رأسها الا بخمار غاية في الرقة كان يمكن الرائي من تمييز سماتها التي كانت فيما مضى جميلة و أما المحظبة الجديدة فلا بد أنها كانت في العربة الرئيسية ولكن كان من المستحيل تمييزها من السيدات الأخريات وكان ثمة عدد كبير من الحدم السائرين على الاقدام يحملون الشعلات والجراد المشتعلة على جانبي الموكب و

وتوقف الموكب في الميدان الرائع لدى باب السراى · وكانت ثمة نافورة رائعة تزين هذا الميدان وقد جملت بالرخام والتعريجات والنقوش العربية المذهبة وسقف على الطراز الصينى وزينات براقة من البرونز ·

وما زال باب القصر يتيح لك من بين أعمدته رؤية الأكشاك التى كانت ترصص في الماضي لعرض الرءوس ، رءوس السراى الشهيدة · (١)

<sup>(</sup>۱) تسببت مقطوعة شعرية من ديوان «الشرفيات» لفيكتور هوجو في شهرة هسده الرءوس .

#### م حفلات السراو

وانى لأجد نفسى مضطرا الى عدم الولوج فى وصف الاحتفالات الداخلية للقصر فقد اعتدت ألا اتحدث الاعما أراه بنفسى • ومع ذلك فقسد كنت أعرف مقدما بعض أجزاء المكان الذى تقام فيه الاحتفالات • ان كل أجنبى يستطيع زيارة القصور الكبرى والمساجد فى أيام معينة اذا كان يملك ألفين أو ثلاثة آلاف من القروش التركية • الا أن هذا المبلغ يفوق طاقة السائح العادى الذى يتردد غالبا فى تقديمه • ولكن لما كان من المستطاع بهذا الثمن استحضار أى عدد من المصاحبين فان محبى الاستطلاع يساهمون فيسه أو ينتفرون حتى تقوم احدى الشخصيات الاوربية الكبيرة بدفع هسدة النفقات •

وهكذا استطعت رؤية جميع هذه القصور في الوقت الذي مر فيه أمير بروسيا الملكي • وقد جرى العرف في مثل هذه المناسبات أن يقبل من يتقدمون من الأوربيين ضمن الموكب •

وبدلا من المجازفة بوصف فى الامكان قراءته فى جميع كتب الرحلات من الأفضل بيان موضع الابنية العربية وحدائق السراى التى تشميط المثلث الأرضى الذى يقطعه القرن الذهبى والبسفور انها مدينة باسرها تحيط بها الأسوار العائية ذات الفتحات والأبراج المتباعدة والتى ترتبط بالجدار الكبير الذى بناه الاغريق والذى يشرف على البحر بطوله حتى قصر الابراج السبعة والدى يغلق هكذا المثلث الضخم الدى تشكله مدينة اسمستانبول اغلاقا تاما «

وتضم أبنية السراىعددا كبيرا من المباني القديمة والجواسق والمساجد

أو الزوايا وكذلك بعض المباني الأكثر جدة والتي تقارب الذوق الأوربي ٠ وثمة حدائق مدرجة بها أما بن فسيحة مزروعة بالنجيل وخمانل وجداول من الرحام وطرقات ضيقة مغطاة بنقوش من الحصي ، وأشجار صعيرة مفصوصه ومربعات من الزهور النادرة وقد خصص كل ذلك لنزهه السيدات ٠ وكانت هناك حدائق أخرى على الطريقة الانجليزية وبرك صغيرة اهلة بالطيور وسييجان باسقة وأشجار السرو والجميز تنتشر حول الجواسق في الجزء الأكثر قدماً · وفي استطاعة جميع الأشخاص المعروفين بعض الشيء أو الذين يتعاملون مع الموظفين عبور أجزاء السراي غير المخصصــة للنساء أثناء النهار • ولقد تنزهت فيها كثيرا في ذهابي اما الى المكتبة أو الخزانة • أما المكتبة ، التي كان من اليسير دخولها ، فتضم عددا كبيرا من الكتب والمخطوطات الطريفة لاسيما نسخة من القرآن محفورة على ورق رقيق من الرصاص يمكن تقليبه كالورق العادى بفضل جودة صناعته وزخارفِ، هذا المصمحف من الميناء وهي شمديدة التألق ٠ أما في خزانة الكنوز فيمكننا الاعجاب بالمجوهرات الامبراطورية التي يحتفظ بها منذ قرون ٠ وفي احدى القاعات نرى كذلك جميع رسوم السلاطين في صور مصغرة وقد رسمها أول الأمر بللين الفينيسي ثم غيره من الرسامين الايطاليين ٠ أما آخر هذه الرسوم ، وكان للسلطان عبد المجيد ، نقد قام برسمه فرنسوا كاميل روجييه الذي كان له فضل تصــوير سلسلة مز الملابس البيزنطية الحديثة •

وهكذا فقد أخلت العادات القديمة وحياة العزلة والوحسة النسوبة الى المسلمين المكان أعام التقدم الذى فرضته الإفكار الحديثة ، كان ثمة فناءان فسيحان يتقدمان مبانى السراى الكبيرة بعد المدخل الأول الذى يسمى بصفة خاصة : الباب ، وكان آخر الفناءين معاطا بأروقة منخفضة وقد خصص فى غالب الأمر لتدريب الغلمان الذين كانوا يتنافسون فى المهارة فى الانعاب الرياضية والفروسية ، أما أولهما الذى كان دخوله مباحا للجميع فيعطينا مظهرا ريفيا بأشجاره وعرائسه ، وكان ثمة شىء غريب يميزه الاوهوهاون ضخم من المرمر كان يبدو من بعيد كما لو كان فوهة بئر ، كان هذا الهاون مخصصا لائمر خاص وهو دق جسم المفتى ، رئيس الدين بيد هاون من الحديدتناسب مع حجم الهاون ، لو حدث وأخل الدين بيد هاون من الحديدتناسب مع حجم الهاون ، لو حدث وأخل بواجباته ، وفى كل مرة يأتى هذا الشخص لزيارة السلطان كان يضطر الى المرور أمام هذه المفرمة الكبيرة التى قد يكون من حظه اختتام حياته فيها ، وكان من نتيجة الهلع الخير الناتج عن ذلك أن لم يتعرض لهذا التعذيب، حتى الآن سوى مفتى واحد ،

وكان تدفق الجمسوع من الكبر بحيث بدا لى من المستحيل الدخول حتى ان الفناء الاول وعدلت عن ذلك رعم ان الجمهور العادى تمكن من الدخول حتى هناك ورأى سيدات السراى القديمة يهبطن من عرباتهن وكانت الشعلات والحراب النارية تنشر اللهب هنا وهناك على الملابس وفوق ذلك فان عددا كبيرا من السعاة يوزعون ضربات العصى العديدة للمحافظة على نظام الصفوف الأولى وحسب ما علمت لم يكن الأمر يعدى مشهدا من مشاهد العرض والتشريفة وكان ينبغى أن تتولى السلطانات وعددهن ثلاث استقبال الجارية الجسديدة للسلطان وكذلك المحظيات وعددهن ثلاثون في أجنحهتن ولم يكن ثمة ما يمنع السلطان من قضاء ليلته مع العذراء اللطيفة ، عذراء ليلة العيد وينبغى الاعجاب بالحكمة للسلامية التي وضعت في حسبانها امكانية استيلاء محظية ، ربما تكون عقيما على حب رئيس الدولة ورضائه و

كان الواجب الدينى الذى فرض عليه تلك الليلة مستمدا فى أغلب الأحيان من المحافظة على نسله • وكذلك الأمر بالنسبة لهذا الواجب الذى يفرض عنى المسلمين العاديين فى الليلة الأولى من شهر العيد •

وهذا الامتناع الذي فرض عليهم طوال شهر كامل والذي ربما كان من نتائجه تجديد قوى الرجل وهذا الصيام الجزئي الذي يطهره لابد أنهما يخضعان لاحتياطات طبية مشابهة لتلك التي نجدها في القانون اليهودي ولنذكر أن الشرق هو الذي اعطانا الطب والكيمياء وتعاليم الصحة التي تعود اني آلاف السنين ، ولنأسف لائن أدياننا في الشامال لا تمنحنا الا تقليدا غير مكتمل و اني لآسف اذ أن لوحات العادات الغربية التي ذكرت فيما سبق تهدف الى اتهام المسلمين بالفسق و

ان معتقداتهم وعاداتهم تختلف عنا الى حد أنه لا يمكننا الحكم عليهم الا من وجهة نظر فسادنا النسبى • ويكفى أن نقول لأنفسنا ان الشريعة الاسلامية لا تجد أية خطيئة فى تلك الحمية الحسسية الضرورية لبقساء شعوب الجنوب التى طالما طحنتها أوبئة الطاعون والحروب • ولو تصورنا الطهر والكرامة اللذين يسسودان العلاقة بين المسلم وزوجاته فاننا نغير وأينا فى سراب الشسهوة هذا الذى خلقه كتابنا فى القرن الثامن عشر •

# ع - الأتميدان

كان اليوم التالى هو أول أيام عيد الأضحى • ودوت طلقات المدافع من جميع القلاع وجميع السفن لدى طلوع الشمس فطغت على صوت المؤذن الذى كان يحيى الله من أعالى. آلاف المآذن • وقد أقيم الاحتفال بالعيد هذه المرة في الأتميدان ، وهو ميدان اشتهر بذكرى أباطرة بيزنطه الذين خلفوا فيه بعض الآثار • ويزيد طول هذا الميدان عن عرضه وما زال يبدو في صورته القديمه كساحة ركوب وما زالت ترى فيه المسلتان اللتان كانت تدور حو هما المركبات أيام نضال « الخضر » « والزرق » في عهد البيزنطيين • وتقف أحسن المسلتين حالا ، والتي ما زالت أحجار الجرانيت الوردية وتقف أحسن المسلتين حالا ، والتي ما زالت أحجار الجرانيت الوردية فيها مغطاه بالنقوش الهيروغليفية التي لا تزال سهلة التمييز ، على قاعدة من المرمر الأبيض تحيط بها النقوش البارزة التي تمثل الأباطرة الاغريق يحيط بهم رجال البلاط ، وكذلك المعارك والاحتفالات الرسمية • انهما لا يتسمان بجمال شمديد في التنفيذ الا أن وجودهما يثبت أن الأتراك ليسوا أعداء للتماثيل المنحوتة كما نظن في أوربا •

وفى وسسط الميدان يوجد عمود غريب مكون من ثلاثة ثعابين متداخلة ، ويقال انه كان يستخدم فيما مضى كمقعد مثلث الأرجل تقال عليه النبوءات فى معبد دلفى •

ويحف مسجد السلطان أحمد بأحد جوانب هذا الميدان · وهناك كان سمو السلطان عبد المجيد يأتي لاقامة صلاة العيد الكبرى ·

وفى اليوم التالى ، الذى كان أول أيام العيد ازدحم مثلث استانبول الهائل بما ينيف عن المليون من سكان استانبول واسكودا وبيرا ، ذلك

اسلت الذي ينتهى باخر طرف بلسراى و ونظرا لقرب محسل افامتى استطعت التواجد في طريق مرور المولب الدى دان متجها الى الاتميدان واستمر الاستعراض أنذى يجوب الشوارع المحيطة بأبا صوفيا ساعه على الافل و الا أن ملابس الجنسود لم تسكن تحوى أية طرافة بالنسبة للافرنجى و ففيما عدا الطربوش الأحمر الذي يستخدم كغطاء رأس لهم جميعا فإن الوحدات المختلفة كانت ترتدى تقريبا الزى الأوربي و أما اللواءات فكانوا يرتدون ملابس تشبه التي ترتدى في بلادنا وقد طرزت بسعف مذهب على جميع الخياطات و كانوا جميعا يرتدون الردنجوت الأزرق ولم نر واحدا منهم يرتدى زيا عاديا و

راختلط الأوربيون المقيمون في بيرا بأعدادهم الكبيرة بالجماهير وذلك لأن جميع الأديان تشارك في أيام العيد في فرحة المسلمين ١٠ انه على الأقل عيد مدنى بالنسبة لمن لا تربطهم المساعر القلبية باحتفالات الاسلام ٠ وكانت موسيقي السلطان بقيادة شقيق الموسيقي دونيزتي تعزف «مارشات » عسكرية غاية في الجمال ، لا سيما أن جميع الآلات كانت تعزف معا في وقت واحد على الطريقة الشرقية ٠ وكان أطرف ما في المولب استعراض الحرس الخصوصي للسلطان الذين كانوا يغطون في المولب بخوذات مغطاة بزينات ضخمة تعلوها زينة عالية من الريش الأزرى ويخيل للرائي أنه بصدد عابة تسمير كما حدث في خاتمة مسرحية «ماكبث» «ماكبث» «ماكبث» «ماكبث» «ماكبث» «ماكبث» «ماكبث » «ماكب

وبعد ذلك ظهر السلطان وكان يرتدى ملابس غاية في البساطة ولا يحمل من زينة الا باقة براقة على قلنسوته ، ومع ذلك فقيد كان جواده مغطى بالوشى المذهب والماس لدرجة بهرت جميع الانظار ، وكذلك كان السياس يقودون عددا كبيرا من الجياد المطهمة بالرشيم المتألقة بالأحجار الكريمة ويسيرون في ركاب السلطان ، ونان الوزراء والقضاة وكبار العلمياء وجمهور غفير من الموظفين يتبعون بطبيعة الحال رئيس الدولة ثم تأتى قوات عسكرية أخرى فتختتم المسيرة ،

ولما وصل هذا الموكب بأسره الى ميدان الأتميدان ذاب فى الأفنية الفسيحة وفى حدائق المسجد ، وترجل السلطان من فوق صهوة جواده فاستقبله الأئمة والعلماء الذين كانوا فى انتظاره فى المدخل زعلى درجات السلم ، وكان ثمة عدد كبير من العربات مصطفة فى الميدان وتجمعت كريمات سسيدات القسطنطينية فى هذا المكان لرؤية الاحتفال من وراء

القضبان المدهبة للعربات · وحصلت علياهن مكانة على امتياز شـــغل المقاصير المرتفعة للمسجد ·

ولم أتمكن من رؤية ما يدور في الداخل الا أني سمعت أن الاحتفال الرئيسي يتركز في ذبح شاة كأضحية · وقد حدث ذلك في جميع بيوت المسلمين في هذا الصباح ·

وكان الميدان غاصا بالألعاب والملاهى والباعة من جميع الأنواع و وبعد الأضحية اندفع الجميع نحو المأكولات والمرطبات وكانت الفطائر والكريمة المحلاة بالسكر والمقليات والكباب ، وهو الصحن المفضل لدى الشعب ويتكون من قطع من لحم الضأن المسوى تؤكل بالبقدونس مع شرائح مقطعة من الخبر الخالى من الخميرة ، كانت توزع على الجميع على نفقة الشخصيات الهامة ، وفوق ذلك فقد كان في استطاعة كل فرد أن يتقدم الى أى بيت ويسساركه في الطعام الذي كان دائما معدا ، كان الفقراء والأغنياء وجميع المسلمين الذين لهم بيوت خاصة يكرمون وفادة من يأتون اليهم قدر طاقتهم دون الالتفات الى حاتهم أو الى دينهم ، تلك عادة كانت قائمة لدى اليهود وفي اعياد القرابين ،

أما اليوم الثاني والثالث من أيام العيد فليسا الا استمرارا للأعياد العامة التي تقام في اليوم الأول ·

واذا كنت لم أحاول تصوير القسطنطينية فما ذلك الا لان تصورها ومساجدها وحماماتها وشواطئها قد وصفت مرات عديدة • لقد أردت فقط اعطاء فكرة عن النزهة عبر شوارعها وميادينها في وقت الاعياد الرئيسية • ان تلك المدينة ما زالت كما كانت في الماضي هي الخاتم الغريب الرائع الذي يصل أوربا بآسيا •

واذا كان مظهرها الخارجى هو أجمل منظر في العالم ، فمن الممكن توجيه النقد ، كما فعل كثير من الرحالة ، الى الفقر السائد في بعض الاحياء وقذارة أحياء أخرى كثيرة ، ان القسطنطينية تبدو كما لو كانت زينة مسرحية ينبغى النظر اليها من القاعة دون زيارة الكواليس ، وكان ثمة انجليز متصنعون يكتفون بالدوران حول الطرف المدبب للسراى وارتياد القرن الذهبي والبسفور في سفينة تجارية ثم يقولون لانفسهم:

\_ لقد رأيت كل ما تحلو رؤيته · هنا تكمن المبالغة · ان ما ينبغى الاسف عليه هو أن استانبول وقد فقدت جزئيا طابعها القديم لم تبلغ بعد

من ناحية التنظيم والرعاية الصحية درجة تمكن من مقارنتها بالعواصم الاوربية و وما لا شك فيه أنه من العسير جدا شق شوارع منتظمة فوق جبال استانبول وفوق رءوس بيرا واسكودار العالية الا أن الامر ممكن لو اتبع نظام أفضل في البناء والرصف ومع ذلك فان المنازل المطلية والقباب القصديرية والمآذن البساسقة تعتبر من الناحية الشيعرية موضع اعجاب ولكن هذه المساكن الخشبية العشرين ألفا التي كثيرا ما تزورها الحرائق وهذه المقابر التي يسمع فيها فوق أشجار السرو هديل الحمائم ولكن كثيرا ما تأتي بنات آوى لاخراج الموتى من أجداثهم حين تصبح الارض رخوة بعد العواصف العساتية ، كل ذلك يعتبر الوجه الآخر من الميدالية البيزنطية التي قد يحلو للمرء جلاؤها بعد الوصف العلمي الانيق الذي قدمته اللبدي مونتاج(۱)

وعلى كل حال فليس ثمة من يقدر على تصوير الجهود التى يبذلها الاتراك ليجعلوا عاصمتهم في مستوى التقدم الاوربي وكل طريقة من طرق انفن أو التحسين المادى هم على علم بها • ولكن مما يؤسف له هو روح الروتين وهو من خصائص بعض الطبقات ويؤيده احترام العادات القديمة • ان الاتراك من هذه الناحية شديدو التمسك بالشكليات مثلهم مشل الانجليز •

ولما كنت قد اكتفيت بشهور ليالى رمضان الثلاثين في استانبول فقد انتهزت فرصة بلوغ هلال شعبان لاخلاء المسكن الذي استأجرته في يبلدز خان وأراد أحد الايرانيين الذي اتخذني صديقا والذي كان يدعوني دائما ميرزا (أي المثقف) أن يقدم لي هدية وقت رحيلي فهبط بي الي قبو مليء بالاحجار الكريمة على حد قوله وظننت أنه كنز أبي القاسم الا أن القبر لم يكن يحوى الاحجارة عادية و

وقال لى: تعال فستجد هنا اليواقيت الجمرية والبنفسجية والحمراء والفيروز، وهنا كذلك الاحجار عديدة الالوان · اختر أية واحدة من هذه الاحجار ففي استطاعتي اهداؤك إياها ·

<sup>(</sup>۱) ليدى مونتاج (١٦٨٩ – ١٧٦٦) نشرت سنة ١٧٦٣ في صورة خطابات وصسفا لأسفارها في أوربا ( خطابات خلال أسفارها في أوربا وأسيا وافريقيا ) وقد انتشرت ترجمة هذه الخطابات على نطاق واسع عن طريق الترجمة في فرنسا .

وبداً لى هذا الرجل مخبولا · وبمحض الصدفة اخترت الحجارة عديدة الألوان · وهنا أمسك فأسا وشق بها حجرا أبيض كبيرا جدا ، وما لبث بريق الأحجار متعددة الالوان الحبيسة في هذا الحجر الجيرى أن بهرنى · وقال في وهو يهديني جزءا من الحجر : « خذ »

رحين وصلت الى مالطة أردت تشمين بعض الا حجار متعددة الا لوان المحفوظة فى الكتلة الجيرية فتبين أن أغلبها ، أكثرها بريقا وأكبرها حجما فى الظاهر ، كانت قابلة للتفتت ، وأمكن مع ذلك نحت خمسة أأو ستة تركت لى ذكرى طيبة عن أصدقاء يبلدزخان ،

#### مالطه:

واخيرا خلصت من أيام انحجر الصحى العشرة التى ينبغى قضاؤها فى مالطة قبل بلوغ المناطق البحرية الباسمة فى ايطاليا وفرنسا ، ان قضاء مدة طويلة فى الطوابق السفلى المتربة لاحدى القلاع يعد تعذيبا مريرا بعد الايام الجميلة التى قضيناها وسط آفاق الشرق الرائعة ، وكان ذاك هو الحجر الصحى فى بيروت وأزمير قضيته هو الحجر الصحى الثالث ، الا أن الحجر الصحى فى بيروت وأزمير قضيته تحت طلال الأشجار الكبيرة على شاطىء البحس المتخبط فى الصخور التى تحدها من بعيد الملامح الزرقاء للشواطئ والجزر ، أما هنا فلم يكن لنا من أخد الموانى الداخلية والصخور المدرجة لمدينة لافاليت حيث يننزه بعض الجنسود الاسكتلنديين عارى الساقين ، يا للانطباعة المحزينة ! انى أعود الى بلد البرد والعواصف ولم يعد الشرق بالنسبة لى الاحلما من أحلام الصباح التى تتلوها مباشرة المضايقات اليومية ،

ماذا أقول لك بعد ذلك ياصديقى ؟ وأية فائدة تجددها فى تلك الرسائل المتخبطة المسهبة المختلطة بمقتطفات من مذكرات الرحلة وبالقصص والأساطير التى التقطها حيثما اتفق ؟ ان هذه الفوضى نفسها هى ضمان اخلاصى • وما كتبته رأيته رأى العين وشعرت به • فهل أخطأت فى رواية آلاف الأحداث الدقيقة التى يزدريها الناس عادة فى الأسفار الوصفية أو العلمية بمثل هذه الطريقة الساذجة ؟

هل ينبغى لى أن أدافسع عن نفسى أمامك لاعجمابى المتتالى بالاديان المختلفة فى البلاد التى عبرتها ؟ نعم لقد شمعرت أنى وثنى فى اليونان ومسلم فى مصر ووسط الدروز اعتقدت ان الاله الواحد هو كل الكائنات وأصبحت درعا تقيا فوق بحار الكواكب ـ الآلهة فى بلاد الكلدانيين •

أما في القسطنطينية فقد أدركت عظمة التسامح العالمي الذي يمارسه الأتراك في الوقت الحاضر •

ويقص هؤلاء في هذا الصدد قصة من أطرف ما أعرف:

« أراد أربعة من رفاق الطريق أحدهما تركى والثانى عربى والثالث فارسى والرابع يونانى أن يتناولوا الطعام سيويا · فاشتركوا في عشر بارات · ولكن كان المهم هو معرفة ماذا يشمسترون · وقال التركى : «أوزوم» · وقال العربي «عنب» · وقال الفارسى « انكور » وقال اليونانى «ستافيليون» · وأراد كل منهم تغليب ما يرغبه على ما يفضله الآخرون وكاد هذا يوصلهم الى التضارب بالأيدى · وحضر هذا المسمهد درويش يعرف اللغسات الأربع فاستدعى أحد باعة العنب واكتشف الجميع أن هذا هو ما طلبوه جميعا ·

لقد تأثرت كثيرا في القسطنطينية لرؤية الدراويش يحضرون القداس في الكنيسة • كان كلام الله يبدو لهم طيبا في جميع اللغات • وفوق ذلك فلم يكرهوا أحدا على الدوران مثلهم على نغمات الناى كلعبة الكرات مما يعتبرونه هم أسمى الطرق لتكريم السماء •

• الملحق الأول

أخلاف المصريب الحرَيثة



# ١ - الحاله الاجتماعية للنساء

ظل الناس لمدة طويلة يعتقدون أن الاسلام يضع المرأة في مكانة أقل بكثير من مكانة الرجل ويجعل منها على حد القول جارية تزوجها و وتلك فكرة لا تلبث أن تنهار أمام الدراسة الدقيقة للأخلاق في الشرق وكان الأحرى أن يقال ان محمدا قد جعل المرأة تتبوأ مكانة أعلى بكثير مما كانت عليه من قبله •

ولقد كان موسى يرى أن المرأة التى تلد بنتا وتجلب الى العالم فرصة أخرى للخطيئة تظل غير طاهرة لفترة أطول من تلك التى تضع طفلا ذكرا وكان الثلمود يستبعد النساء من الطقوس الدينية ويحرم عليهن دخول المعبد • أما محمد فقد أعلن على العكس من ذلك ان المرأة فخر للرجل وأباح لها دخول المساجد وضرب لها من الأمثلة التى تحتذيها أسيا امرأة فرعون ومريم أم المسيح وابنته فاطمة • ولنتخل كذلك عن الفكرة الأوربية التى تمثل المسلمين كما لو كانوا لا يعتقدون أن للمرأة روحا • وثمة رأى آخر أكثر انتشارا يرى أن الترك يحلمون بجنة مليئة بالحور اللائي يتميزن بالشباب الدائم والنضرة المتجسددة ، وهدذا خطأ • فالحور ان يكن الا زوجاتهن وقد عاد اليهن الشباب وتغيرت ملامحهن • فلقد دعا محمد الله أن يفتح جنات عدن للمؤمنين الصادقين ولآلهم وزوجاتهم وأولادهم ممن اتبعوا طريق الخير وصاح قائلا : ادخلوا الجنة أنتم ورفيقاتكم واقنعوا أنفسكم ! (١)

<sup>(</sup>۱) تلك ترجمة ماجاء في الاصل وليسبت آية قرآنية ولا حديثا شريفا . المترجم

وبعد هذا الحديث وغيره يحق لنا أن نتساءل من أين نبتت تلك الفكرة الخاطئة التي مازالت منتشرة بيننا • وربما لم نحتج للبحث عن سبب آخر غير ذلك الذي بينه أحد قدامي كتابنا الذي يقول : ان تلك الفكرة القديمة قد بنيت على دعابة وجهها محمد الى امرأة عجوز كانت تشكو اليه مصييرها فيما يختص بالجنة فقال لها أن لن تدخل الجنة عجوز • ولما لاحظ ما أصابها من جزع أضاف أن جميع النساء المسنات سوف يستعدن شبابهن قبل دخول الجنة •

ومع كل فاذا كان محمد يعطى الرجل السلطة على المرأة كما فعل القديس بطرس فقد بين أن له عليها هذا الحق لأنه ملزم باعالتها ودفع مهرها · أما الأوربى فعلى العكس من ذلك يستلزم أن تدفع له المرأة التي يتزوج بها مهرا ·

أما الأرامل واللاتي يتمتعن بحريتهن لسبب أو لآخر فلهن مثل ما للرجل من حقوق ولهن حق الملكية والبيع والارث وصحيح ان نصيب البنت في الميراث لا يتعدى ثلث (١) نصيب الولد الا أن ثروة الأب قبل بعث محمد لم يسكن يقتسسمها الا القادرون من أولاده على حمل السلاح ومبادى الاسلام لا تعترض كثيرا على تقليد المرأة مقاليد الحكم حتى أن تاريخ العرب يضم عددا كبيرا من السلطانات ذوات النفوذ المطلق وسند بغض النظر عن السلطة الحقيقية التي كانت تمارسها السلطانات الأمهات والمخطيات من داخل القصور و

ان جميع الأوربيات اللاتى دخلن الحريم قد أجمعن على اطراء ماتتمتع به النساء المسلمات من سعادة • فقالت الليدى مونتاج « اننى على يقين من أن النساء وحدهن هن اللاتى يتمتعن بالحرية فى تركيا » • بل انها ترثى قليلا لحال الازواج الذين يضطرون حينما يريدون أخفاء خيانة من خيانات النساء الى أن يتخذوا من أسباب الحيطة أكثر مما يتخذ الرجال عندنا • وربما لم تكن تلك النقطة الأخيرة صحيحة الا بالنسبة للأتراك الذين تزوجوا من نساء من الأسر الكبيرة • وتلاحظ لادى مورجان بحق أن تعدد الزوجات الذى لم يقره الا محمد أقل انتشارا فى الشرق مما هو عليه فى أوربا حيث يمارس تحت أسماء أخرى • ولذا فينبغى التخلى نهائيا عن فكرة الحريم كما صوره مونتسكيو صاحب « الخطابات نهائيا عن فكرة الحريم كما صوره مونتسكيو صاحب « الخطابات

 <sup>(</sup>٢) تلك ملاحظة غير صحيحة فالقاعدة المعروفة هي أن للذكر مثل حفل الانثيين .
 المترجم

الفارسية » حيث تضطر النساء الى الاعجاب بأوزبيك زئر النساء الشرس لأنهن لم يرين أبدا رجلا من قبل •

ويقودنا هذا الى الحديث عن عقاب الزانيات من النساء • وثمة اعتقاد عام بأن لكل زوج الحق في اصدار أحكام لصالحه والقذف بزوجته الى البحر في كيس من الجلد ومعها ثعبان وقطة • واذا كان هذا العقاب الشديد قد حدث أحيانا فلم يأمر به الا بعض السلاطين والباشوات الذين كانوا من النفوذ بحيث يتحملون مسئوليته • ولقد رأينا مثل هذه الصورة من الانتقام في العصور الوسطى المسيحية •

ولنعترف بأنه اذا قتل الرجل زوجته بعد ضبطها متلبسة فنادرا ما يعاقب الا اذا كانت من أسرة كبيرة ١ الا أن الأمر مشابه لما يعدث لدينا حين يبرىء القضاة عادة القاتل في مثل هذه الظروف والا فينبغى احضار أربعة شهود يجازف كل منهم اذا وقع في الخطأ أو وجه اتهاما كاذبا بأن يتلقى ثمانين جلدة بالسوط أما المرأة وشريكها(١) في الجريمة فاذا اعترفا بها فيتلقى كل منهما مائة جلدة بالسوط بحضور عدد من المؤمنين ويجدر بالملاحظة أن العبيد المتزوجين لا يتلقون الا خمسين جلدة طبقا لفكرة المشرع الجميلة التي ترى أن العبيد ينبغي أن يطبق عليهم نصف العقوبة التي تطبق على الأحرار لأن العبودية لم تترك لهم عليهم نصف ما في الحياة من متاع ٠

كل ذلك قد ذكر في القرآن وصحيح أن القرآن يضه الكثير مما ورد في الانجيل مما يفسره ذو النفوذ ويعدلونه حسب رغبتهم ولم يصحدر الانجيل حكما على العبودية ، ودون ما حاجة الى الحديث عن المستعمرات الأوربية فان للشعوب المسيحية في الشرق مثل ما للترك من عبيد ومع ذلك فان باي تونس قد ألغي الرق منذ قليل في ولاية دون أن يخرج على القانون الاسلامي والأمر اذن لا يعدو أن يكون مسألة وقت ولكن ما من مسافر الا ودهش لرقة العبودية الشرقية وان العبد يكاد أن يكون ابنا بالتبني ويعتبر فردا من أفراد الأسرة وكثيرا ما يصبح وريثا لسيده الذي يعتقه في معظم الأحوال لدى وفاته بعد أن يضمن له وسائل العيش ويجب ألا يرى الناس في الرق في البلاد الاسلامية الا وسيلة للادماج والا مجتمعا يؤمن بقوته التي ينشرها على الشعوب الهمجية والهمجية والهمية الهمجرية والهمية والمسلامية الهمجرية والهمية والمسلامية الهميدية والمسلامية المسلمية المسلمية المسلمية والمسلمية والمسل

<sup>(</sup> الترجم )

<sup>(</sup>١) الصحيح هو سبعون جلاة

ومن المستحيل تجاهل الطابع الاقطاعي والحربي للقرآن (١) ٠ ان المؤمن الحق هو الرجل الطاهر القوى الذي يجب أن يسود بها لشجاعته وفضائله ٠ ولما كان أكثر تحررا من نبلاء العصور الوسطي فهو يشرك كل من يعتنق ديانته فيما يتمتع به من امتيازات ٠ وهو أكثر تسامحا من العبرى الذي تتحدث عنه التوراة والذي لم يكن يقبل تغيير الدين فحسب بل كان يبيد الشعوب المهزومة ٠ أما المسلم فيترك لكل منها دينه وعاداته ولا يطلب منها الا الاعتراف بتفوقه السياسي ٠

ان تعدد الزوجات والرق ليسا بالنسبة له سوى وسائل لتجنب شرور أكبر، في حين أن البغاء ، وهو صورة أخرى من صور العبودية ، ينخر كالجذام عظام المجتمع الأوربي باهداره للكرامة البشرية ، وبطرده لمخلوقات تعسة غالبا ما تكون ضحايا جشع الآباء أو البؤس من صدر الدين الرحب كما يقضى بذلك الترتيب الطبقي الذي جرى عليه العرف وأتريد أن تسأل ، فيما عدا ذلك ، عن الوضع الذي يمنحه مجتمعنا للقطاء الذين يشكلون عشر السكان ؟ ان القانون المدنى يعاقبهم عن أخطاء آبائهم بطردهم من الأسرة ومن الميراث ، أما أبناء المسلم جميعا فهم على العكس من ذلك يولدون شرعيين ويقسم الميراث بينهم بالعدل ،

أما عن النقاب الذي تحتفظ به النساء فنعلم أنه بقايا عادة عتيقة كانت تتبعها في الشرق المسيحيات واليهوديات والدرزيات (٢) من النساء ، وهي ليست اضطرارية الا في المدن الكبرى ، ولا تخضع لها قط نساء الريف والقبائل ، ولذا فإن القصائد الشعرية التي تتغنى بحب قيس وليلي وخسرو وشيرين وجميل وشمبا (٣) وغيرهم لا تحوى أي ذكر للنقاب ولا لتحجب نساء العرب ، أن قصص الحب الوفي هذه تشبه في معظم ولا لتحجب نساء العرب ، ان قصص الحب الوفي هذه تشبه في معظم تفاصيل الحياة ذلك التحليل العاطفي الجميل الذي دقت له جميع القلوب الشابة ابتداء من دافيس خلوا الى بول وفرجيني ،

ونحتتم هذا كله بان الاسلام لا يستبعد أى شعور من المشاعر النبيلة التي تنسب عادة للمجتمع المسيحى والخلاف بين المجتمعين قائم حتى

<sup>(</sup>۱) ليس للقرآن أى طابع اقطاعى ولا حربى وهذا قول يصدر من المؤلف نتيجة لعدم فهمه للقرآن نصا وروحا ،

<sup>(</sup>٢) يجعل الكاتب الدروز غير مسلمين ، والواقع أنهم فرقة اسلامية تفرعت عن المدهب الفاطمي الذي عرفته القاهرة ومصر أيام الفاطميين ، (المترجم) (٣) لعله بقصد جميل وبثينة ،

الآن في نص الأفكار أكثر مما هو قائم في روحها • ولا يشكل المسلمون في الحقيقة الا ما يشببه فرقة مستحيحية (١) • وليست قضايا الالحاد البروتستانتية الكثيرة بأقل بعدا عن تعاليم الانجيل • والدليل على صحة ذلك أن شيئا لا يضطر المسيحية التي تتزوج من تركي الى تغيير دينها • ولا ينهي القرآن المؤمنين الا عن الزواج بالمشركات ويبيح للانسان أن يبني حياته تحت أى دين قائم على التوحيد •

<sup>(</sup>۱) قصة يونانية كتبها لونجس اللى بقال انه ولد فى جزيرة ليسبوس حوالى القرنين الاول والثانى الميلادى . ترجم هذه القصة المغفود له الاستاذ الدكتور محمد صقر خفاجه عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة ضمن مطبوعات قسم الترجمة والالف كتاب عام ١٩٥٩ .

 <sup>(</sup>۲) يريد الكاتب أن يقول أن المسلمين كالمسيحيين أهل كناب ...
 (۱) يريد الكاتب أن يقول أن المسلمين كالمسيحيين أهل كناب ...

# ٧ - الحياة العائلية في القاهرة

ان الرجل الذى يبلغ سن الزواج ولا يتزوج لا ينظر له الناس في مصر باحترام • واذا لم يستطع أن يبدى الأسباب المقبولة التي تضطره الى البقاء أعزب فان سمعته تتحمل نتيجة ذلك • ولذا فانا نشاهد الكثير من الزيجات في هذا البله •

وفى اليوم التالى للزواج تحتل المرأة الحريم وهو جزء من البيت منفصل عنه بقية الأجزاء • وترقص الفتيات والصبية أمام بيت الزوجية أو في أحد أفنيته الداخلية • وفي هذا اليوم ، اذا كان العريس شابا يحضر اليه صــديقه الذي صــحبه حتى باب الحريم برفقة غيره من الأصدقاء ويصحبون العريس الى الريف طيلة النهار ٠ ويطلقون على هذا التقليد اسم « الهروبة » • وفي بعض الأحيان يدبر العريس نفسه هذا الاحتفال ويدفع جـزءا من نفقاته اذا تعدت المبـلغ « النقـوط » الذي تكفل به أصدقاؤه و وكتيرا ما يستأجرون بعض الموسيقيين والراقصات لبعث البهجة في الحفل • واذا كان العريس من طبقة أقل فانه يعاد الى بيته في موكب يتقدمه ثلاثة أو أربعة من الموسيقيين الذين يعزفون على المزمار ويقرعون الطبول • ويحمل الأصدقاء ومن يرافقون العريس باقات الزهور • واذا لم يعودوا الا بعد غروب الشمس يرافقهم رجال يحملون المشاعل ، وهي نوع من الحوامل مزودة بوعاء اسكواني من الحديد يضعون فيه قطع خسب مستعلة • وتتحمل هذه الحوامل أحيانا ثلاث أو أربع أو خمس شعلات من هذا القبيل تنشر نورها الساطع في طريق الموكب ٠ وثمة أشخاص آخرون يحملون المصابيح بينما يحمل أصدقاء العريس الشموع المستعلة والباقات • واذا كان العريس على شيء من اليسار فانه يتخذ العدة لتعيش أمه معه ومع زوجته حتى تسهر على شرفه وشرف زوجته • ولهدذا فقد سميت أم الزوج حسب مايقولون حماة زمعناها الحامدة أو الحارسة •

وأحيانا يترك الزوج زوجته لدى أمها ويدفع تكاليف اعالة الاثنتين وربما كان ثمة اعتقاد بأن هذه الطريقة تجعل أم الزوجة تسهر على سلوك ابنتها تدفعها الى ذلك على الأقل مصلحتها المادية من أجل الاحتفاظ بالنفقة التى يدفعها لها الزوج ولتحول دون حصوله على حجة للطلاق ولكن غالبا ما يصاب هذا الأمل بالتبية و

وعادة يخشى الرجل الحندر حين يتزوج من كثرة التقاء زوجته بحماته وهدو يسعى الى انتزاع كل فرصة منها لرؤية ابنتها وقد تغلغلت هذه الفكرة في النفوس لدرجة أن الرجال يرون من الأسلم الزواج بامرأة لا أم ولا قريبة قريبة بها · بل وهم ينهون نساءهم عن استقبال أية صديقة من جنسها مالم تكن من قريبات زوجها · ومع ذلك فان هذه القيود لا تراعى بصفة عامة ·

وكما ذكرنا فيما سبق فان النساء يقمن في الحريم ، وهو جرزه منفصل في مساكن المصريين • الا أن من يحملن لقب زوجات لا يعتبرن سبجينات ويتمتعن عادة بحرية الخروج والقيام بالزيارات ويستطعن استقبال صديقاتهن في أى وقت يحلو لهن • والجاريات هن اللاتي لا يتمتعن بهذه الحرية بسبب حالة الرق التي تجعلهن خاضعات للزوجات والسادة •

ومن أهم ما يراعيه السيد وهو يعد الأجنحة المنفصلة لاقامة زوجاته البجاد الوسسيلة للحيلولة بينهن وبين أن تقع عليهن عيون الحدم من الذكور وغيرهم من الرجال حينما لا يكن متدثرات بخمهرهن التي تنص عليها قواعد الدين ويذكر القرآن في هذا الصدد الآتي من القول مما يبين ضرورة أن تحجب كل امرأة مسلمة زوجة لرجل من أصل عربي عن الرجال كل ما قد يفتنهم كما يجب أن تحجب عنهم كل ما ترتدي من زينة :

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى اخوانهن أو ملكت ايمانهن

أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (١) •

ويشير الجزء الأخير من الآية الى العادة التى اعتادتها نساء العرب فى زمن النبى بأن يضربن ما يحملن من حلى فى أرجلهن فوق الكعب بعضها ببعض وقد احتفظت كثير من نساء مصر بهذا النوع من الحلى •

ولكى نفسر تلك الآية القرآنية التى ذكرناها فيما سبق والتى لو لم نفسرها فربما أعطتنا فكرة خاطئة عن العادات الحديثة حول السماح لبعض الأشخاص بدخول الحريم أو منعهم منه فمن الضرورى جدا أن ننقل هنا بعض الملاحظات الهامة لبعض مشاهير المعلفين •

وأولى هذه الملاحظات يتعلق بالتعبير الآتي :

« أو نسائهن » (٢) وهذا يعنى أن هؤلاء النساء يجب أن يكن على دين محمد ذلك أن الدين يعتبر أن سفور المرأة المؤمنة الحقة أمام من يسميها بالمشركة أمر غير مشروع أو على الأقل غير ملائم ذلك لأن بعض العلماء يرون أن هذه الأخيرة لن تتورع عن وصفها (٣) للرجال •

ويرى آخرون أن النساء الأجنبيات يجب أن يبعدن عادة عن الحريم الا أن أئمة الدين لم يتفقوا على رأى حول هذه النقطة • وفي مصر ، وربما كذلك في جميع البلاد التي تدين بالاسلام ، لم يعد أحد ليجد غضاضة في دخول النساء الى الحريم سواء أكن من الأحرار أو الجوارى من المسيحيات أو اليهود أو المسلمات أو المشركات • أما فيما يختص بنصف الآية الثاني الذي بتحدث عن الجوارى فيقول القرآن :

ان العبيد من الجنسين مستثنون ويظن أن الخدم ممن ليسوا من العبيد يشملهم هذا الاستثناء وكذلك من ينتمون الى بلاد أجنبية(٤) وتأييدا لهذا الرأى يذكر أن محمدا (صلعم) قد أهدى ابنته فاطمة

<sup>(</sup>١) الآية ٣٠ من سورة النور ٠

<sup>(</sup>٢) فهم خاطىء لكلمة نسائهن في الآية المذكورة ٠

<sup>(</sup> المترجم )

<sup>(</sup>٣) أي المرأة المسلمة (المترجم)

 <sup>(3)</sup> يقصد « أو نسائهن أما ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولى الاربة ٠٠ »
 ( أأترجم )

عبدا · فلما رأته يدخل ولم تكن تضع على رأسها سوى غطاء ضئيل كان عليها أن تختار بين ترك رأسها عاريا أو أن تكشف عن الجزء الأسفل من جسمها · فالتفتت الى أبيها الذى شاهد حيرتها وقال لها أن ليس عليها أى حرج ما دامت لم تكشف غطاءها الا فى حضرة أبيها وأحد العبيد · وربما كانت تلك العادة متبعة لدى الأعراب فى الصحراء · الا أنه فى مصر لايرى أبدا عبد بالغ يدخل الى حريم رجل ذى مكانة سواء أكان من هذا البيت أو لم يكن · وقد لا يحصل على هذا الامتياز الا العبد الذكر الذى تمتلكه امرأة لأنه مادام عبدا لايحق له أن يكون زوجا لها ·

وندهش اذ لانجد في الآية القرآنية التي ذكرناها أى ذكر للأعمام والأخوال كأصحاب حق في رؤية بنات اخوتهم بلا حجاب • حتى لايصفوا لأبنائهم بنات عمومتهم وصفا شديد الاغراء • ويرى المصريون أن ليس من اللائق في شيء وصف ملامح المرأة • وليس من الأدب في شيء أن يقال ان لها عينين جميلتين وأنفأ اغريقيا وفما صغيرا الخ • • • مع توجيه القول الشخصي من الجنس الآخر يحرم عليه القانون رؤيتها • ولكن من المستطاع وصفها باستخدام الفاظ عامة فيقال انها لطيفة وأن الكحل والحناء يزيدانها حسنا (١) •

وعلى العمــوم لا يستطيع الرجل أن يرى دون حجاب الا زوجاته وجواريه أو النساء اللاتي يحرم عليه الزواج منهن بسبب درجة قرابة الدم بينه وبينهن أو لأنهن أرضعنه أو أرضعن ابناءه أو لقرابتهن الشديدة بمرضعته ١٠ ان الحجاب ينتمى الى العصور السحيقة ٠

ويعتقد في مصر أن حجب المرأة للجزء العلوى من جسمها ، وحتى الجزء الخلفي من رأسها ، أهم من انخفاء وجهها الا أن ماهو أهم من ذلك هو أن تحجب وجهها قبل أى جزء آخر من جسمها • فمثلا تستطيع المرأة التي لا يمكن اقناعها بخلع نقابها في حضرة الرجل أن تكشف عن صدرها أو ساقها كلها دون أدنى حرج • وتظهر أكثر معظم نساء الشعب في الأماكن العامة بلا نقاب ولكن يقال ان الضرورة هي التي تضطرهن الى ذلك لأنهن لا يمكنهن القدرة على شراء البراقع •

وحينما تباغت امرأة وقور بلا خمار فانها سرعان ما تغطى نفسها بالطرحة وتصييح :

<sup>(</sup>١) فهم خاطىء لآداب الاسلام في هذا الصدد .

يا دهوتي يا خرابي ؛ ومع ذلك فقد لاحظنا أن حب التأنق يدفعهن أحيانا الى الكشف عن وجوههن للرجال على أن يكون ذلك دائما كما لو كان من قبيل الصدفة • فمن أعلى شرفات منازلهن أو من خلال الحواجز يظهرن كما لوكن ينظرن ألى ما يدور حولهن ومن محاولة للتدخل • ولكنهن كثيرا ، ما يكشفن عن وجوههن مع وجود النية المبيتة لديهن للكشف عن مفاتنهن •

والبيوت في القاهرة عادة صغيرة ولا يوجد في الدور الأرضى أية أجنحة لاقامة الرجال وعلى ذلك فعليهم أن يصعدوا الى الطابق الأول حيث توجد عادة أجنعة النساء ولكن لكي يتجنبوا أي لقاء بالنساء ، مما يعتبرونه في مصر غير مستحب ويعتبرونه في فرنسا من الأمور المحببة ، فان من يصعد الدرج من الرجال لا يني يصيح بصوت عال : دستور! يا ست! أو يرسل صيحات أخرى حتى تنسحب من قد تكون على السلم من النساء أو على الأقل تتحجب وهذا مايقمن به بان يسدلن عليهن النقاب الذي يغطين به وجوههن بحيث لا يكاد لايبدر منهن سوى عين واحدة ،

ويبالغ المسلمون فى الاعتقاد وفى قدسية المرأة لدرجة أنه معظور على الرجال دخول قبور بعضهن • فهم مثلا لا يستطيعون دخول قبور زوجات النبى (صلعم) (١) أو غيرهن من نساء بيته التى توجد فى مدافن المدينة المنورة • بينما يسمح للنساء بزيارة تلك القبور فى حرية • ولا يحدث أبدا أن يجمع بين رجل وامرأة فى قبر واحد الا اذا أقيم حائط فاصل بين الجسدين •

وليس جميع المسلمين في مثل هذا التزمت بالنسبة للنساء ذلك لأن المستر «لين» صاحب هذه التفصيلات الشيقة يقول ان أحد أصدقائه قد أراه أمه ، وهي في الخمسين من عمرها الا أنها لا تبدو الا في الأربعين لنضارتها وحيويتها • فيقول : « لقد أتت حتى باب الحريم ، وهو الحد الفاصل بالنسبة للزوار • وجلست لدى باب الغرفة دون أن تدخل • ثم تركت خمارها يسقط كما لو كان الأمر مصادفة وكشفت عن وجهها • وكانت عيناها مكتملتين ولم تحاول تغطية ماتتحلي به من ماس وزمرد

<sup>(</sup>۱) هذه معلومات استقاها الكاتب من كتاب ويليام لين وهى تحوى الكثير من الاخطاء فليس لنساء النبى قبور تزار بالمدينة أو بغيرها ولايسمح للنساء في الوقت الحاضر بزيارة البقيع ما

وغيره من الحلى ، بل على العكس من ذلك كان يبدو أنها تريد اظهاره · ومع ذلك فلم يسمح لى هذا المسلم أبدا برؤية زوجته رغم أنه قد أباح لى التحدث اليها في حضرته في زاوية أحد الجدران بالقرب من الشرفة التي لم أكن أستطيع رؤيتها منها » ·

ومهما يكن من أمر فان النساء أقل تزمتا في مصر منهن في أي جزء آخر من الامبراطورية العثمانية وليس من الامور النادرة أن ترى النساء يمزحن في الأماكن العامة مع الرجال وقد يغلب علينا الظن بعد هذا بأن نساء الطبقات المتوسطة والطبقات الأعلى غالبا ما يشعرن بالتعاسة ويكرهن الانزواء الذي يفرض عليهن ولكن الأمر على عكس ذلك تماما فأن المصرية المتعلقة بزوجها تشعر بالاهانة اذا تمتعت بحرية زائدة وهي تظن أن زوجها اذا كان لا يراقبها بشدة كما ينبغي أن يفعل طبقا للعرف فأنه لا يحبها كما تحبه وكثيرا ما تحسد النساء اللائي يحيطهن أزواجهن بحراسة شديدة و

ورغم أن القانون يبيح للمصريين الزواج بأربع وبمعاشرة من يشانون من الجوارى المحظيات فنرى عادة أنهم يكتفون بزوجة واحدة أو جارية محظية واحدة و الأن الرجل يستطيع مع اكتفائه دائما بزوجة واحدة أن يغيرها كلما دفعته نزوته الى ذلك ومن النادر أن تجد في القاهرة أناسا لم يطلقوا زوجاتهم مرة على الأقل اذا كانوا قد تزوجوا منذ وقت طويل ويستطيع الزوج حينما يطيب له ذلك أن يقول لزوجته « أنت طالق» سواء أكانت هذه الرغبة من قبله تتسم بالحكمة أو لم تكن و وبعد النطق بهذا الحكم يجب أن تغادر الزوجة بيت الزوجية وتبحث عن مكان تأوى اليه سواء لدى أصدقائها أو أقاربها ويعتبر حق الرجال في النطق بالطلاق التعسفي مصدر القلق الأكبر بالنسبة للنساء وهذا القلق يفوق جميع الآلام الأخرى حينما يكون من نتائجه الهجر والبؤس و وثمة طائفة أخرى من النساء ، وهي التي ترى على العكس من ذلك في الطلاق وسيلة لتحسين مصيرهن ، فيعتقدن عكس ذلك تماما وينشدن الطلاق كأعز أمانيهن .

ويستطيع الرجل أن يطلق الزوجة نفسها مرتين ثم يسترجعها بعد ذلك دون أية اجراءات · الا أنه لا يستطيع في المرة الثالثة استرجاعها بصفة قانونية الا اذا كانت في فترة الطلق قد عقدت زواجا آخر وتم طلاقها منه ·

ويقول المستر لين : أستطيع أن أذكر تأييدا لما قصصته حالة شهدها أحد أصدقائى ، فقد كان فى أحد المقاهى مع رجلين آخرين ، وكان يبدو على أحدهما أنه ثائر على زوجته التى اختلف معها فى أمر من أمور البيت ، وبعد أن عرض متاعبه أرسل الزوج الثائر فى طلب زوجته ، وما أن حضرت حتى قال لها :

انت طائق ثلاثا! ثم قال موجها كلامه للرجلين الحاضرين : وأنتما يا أخوى شاهدان ، ومع ذلك فما لبث أن لام نفسه على هذا العنف وأراد استرجاع زوجه الا أن هذه رفضت ولجأت الى شرع الله ، وعرض الأمر على القداضي وكانت الزوجة هي الشاكية والزوج هو المدعى عليه ، وأعلنت أن زوجها قد نطق ضدها بيمين الطلق ثلاثا وهو الآن يريد استرجاعها ومعاشرتها كزوجة مخالفا بذلك القانون ومقترفا نتيجة لذلك للاثم ، وأنكر المدعى عليه أنه نطق بالألفاط الشرعية التي توقع الطلاق ، وقال القاضي للشاكية :

# \_ هل لديك شهود ؟ فأجابت : نعم هاهم شاهدان ٠

وكان هذان الشاهدان هما الرجلان اللذان كانا في المقهى لدى النطق بالعبارة التى توقع الطلاق و وعيا للادلاء بشهادتهما فأعلنا أن هذا الرجل قد نطق حقا يمين الطلاق ثلاثا ضد هذه المرأة وأنهما كانا حاضرين ذلك وحينئذ أعلن الزوج من ناحيته أنه حقا قد نطق بيمين الطلاق ولكن ضد زوجة أخرى من زوجاته وأكدت الشاكية أن ذلك مستحيل مادام المدعى عليه ليس له زوجة أخرى فرد القاضى على ذلك بأنه ليس في استطاعتها معرفة ذلك وحينئذ التفت الى الشاهدين وسألهما عن اسم المرأة التي طلقت في حضورهما فأعلنا انهما يجهلانه وحين سألهما عن شخصية المرأة قال الشاهدان أنهما لا يستطيعان التأكد منها ما داما لم يرياها الا محجبة وازاء الغموض الذي بدا محيطا بالقضية رأى القياضي أنه من الحق رفض شكوى المرأة وأمرها بالعودة الى بيت الزوجية وقد كان في استطاعتها طلب استدعاء المرأة التي نطق الرجل بيمين الطلاق ضدها الا أن ذلك ما كان ليفيدها كثيرا اذ أنه كان باستطاعته الحصول على امرأة القيام بهذا الدور بسهولة وما دام استخراج وثيقة الزواج ليس ضروريا

فی مصر حیث تتم معظم الزیجات دون عقد مکتوب بل وکثیرا ما تعقد دون شهود(۱) ۴

وكثيرا ما يحدث للرجل الذى نطق ضد زوجته يمين الطلاق الثالث ويريد استرجاعها بموافقتها ألا يحترم النص الذى يحرم عليه استعادتها اذا لم تكن قد تزوجت أثناء ذلك لا سيما اذا كان الطلاق قد تم دون شهود.

ويجد الرجال الذين يحرصون في تقدى على مراعاة تعاليم الشرع الوسيلة لاتباعها باللجوء الى شخص يتزوج بالمرأة المطلقة ويتعهد بتطليقها في اليوم التالى للزواج واعادتها الى زوجها السابق الذي تصبح زوجة له من جديد بموجب عقد ثان ، رغم أنهذه الطريقة في التصرف تخالف الشرع مخالفة تامة • وفي هذه الحالات تستطيع المرأة اذا كانت رشيدة أنترفض ابداء موافقتها • أما اذا كانت قاصرا فان زوجها أو الوصى عليها يستطيع تزويجها بمن يشاء •

وحين يرغب شخص ما لدى استرجاع زوجته المطلقة أن يتبع العرف الذى يقضى بزواجها بمحلل قبل أن يتمكن من استرجاعها فانه يزوجها عادة بشخص فقير قبيح الشكل وأحيانا بأعمى • ويسمى هذا الشخص بالمستحل •

رنستطيع في يسر أن نتبين أن السهواة التي يتم بها الطلاق لها تأثير رذيل على معنوية الجنسين ، ونجد الكثيرين في مصر قد تزوجوا من عشرين أو ثلاثين امرأة في مدة عشر سنوات ، وليس من النادر أن ترى نساء ما زلن في ريعان الشباب كن زوجات شرعيات على التوالي لاثني عشر رجلا ، وثمة رجال يتزوجون كل شهر بزوجة جديدة ، وقد يمارس هذا العمل بين أشبخاص فقراء ، وفي امكانك أن تختار وأنت نهر في شوارع القاهرة أرملة شابة جميلة أو زوجة مطلقة من الطبقة الاقل تقبل أن تتزوح ممن تصادف بل في الطريق مقابل مهر يبلغ عشرة فرنكات وخمسين سنتيما تقريبا ، وحين يسرحها لا يكون مضطرا الى دفع الا ضعف هذا المبلغ من أجل نففتها خلال فترة العدة التي يجب أن تتمها ، ومع ذلك فيجدر القول بأن مثل هذا التصرف يعتبر عادة مجافيا للاخلاق ، وقليل من الآباء من الطبقة الوسطى أو الطبقات العالية هم الذين يقبلون اعطاء بناتهم الى رجل عرف عنه أنه قد طلق عدة ميات ،

<sup>(</sup>۱) هذا تفصيل غير صحيح اذ أن وجود النمهود ركن لابد من توافره في عقد الزواج •

وتعدد الزوجات الذي يؤثر بدوره تأثيرا ضارا على معنوية الازواج والذي لا يقر الا لأنه يستخدم لتجنب الفساد أكثر مما يتسبب فيه يحدث بصورة أقل لدى الكبراء وفي الطبقة المتوسطة منه في الطبقة السفلي رغم أنه ليس كثير الحدوث في تلك الطبقة • وقد يحدث أحيانا أن يبيح أحد الفقراء لنفسه الزواج بامرأتين أو بنساء عديدات تستطيع كل واحدة منهن بما تقوم به من أعمال أن تعول نفسها • الا أن معظم الناس في الطبقات المتوسطة والعليا يحجمون عن هذه الطريقة بسيب النفقات والضايقات المتنوعة التي تنتج عنه •

ويحدث حين يتزوج الرجل بامرأة عاقر ويحبها لدرجة لا تمكنه من تطليقها يحدث أن يرى نفسه مضطرا للزواج من ثانية على أمل انجاب الاطفال • ولهذا السبب نفسه يستطيع أن يتزوج ما طاب له حتى أربع ولكن عدم الثبات هو العاطفة الرئيسية لدى الذين يستسلمون لتعدد الزوجات وللطلاق المتكرر • وقليل هم الذين يستخدمون هذا الحق ونكاد لا نصادف الا رجلا من كل عشرين يكتفى بزوجتين شرعيتين •

وحينما يرغب رجل سبق له الزواج في الزواج مرة أخرى من سيدة أو فتاة فان والدها أو هي نفسها يرفضان الموافقة على هذا الرباط الا اذا طلق سلفا زوجته الاولى و ورى من ذلك أن النساء عموما لا يؤيدن تعدد ازوجات ويخصص الاغنياء ومحدودو الدخل بل وحتى من يمتون الى أقل الطبقات لكل واحدة من نسائهم بيتا خاصا وتحصل الزوجة من الزوج على وصف تفصيلي للمسكن الذي خصص لها سواء أكان ذلك في بيت منفصل أم في بمناح يحتوى على غرفة للنوم وغرفة جلوس ومطبخ وملحقاته ، أو تستطيع أن تستلزم ذلك منه وهذا الجناح يجب أن يكون من المستطاع فصله واغلاقه دون اتصالى بأى منفصلا أو مغلقا أو أن يكون من المستطاع فصله واغلاقه دون اتصالى بأي جناح من أجنحة البيت الاخرى و

وتسمى الزوجة الثانية كما قلنا بالضرة(١) (وتعنى هذه الكلمة الببغاء(٢) وربما كانت تستعمل استعمالا خاطئا) ويكثر الحديث عن المشاجرات التى يتسببن فيها وهو أمر سهل الفهم اذ أنه حين تتفاسم امرأتان اهتمام رجل واحد ورعايته فمن النادر أن يعيشا سويا في وئام وكذلك كثيرا ما ينشب الشجار بين الزوجات والمحظيات اللائي يعشن تحت

<sup>(</sup>١) الجزء الثامن ص

<sup>(</sup>٢) خلط الكاتب هنا بين ضرة ودرة .

سيقف واحد · ويفرض الشرع على من يتزوجون من اثنتين أو أكثر أن يكونوا على عدالة مطلقة بالنسبة لهن · الا أن مراعاة هذا الفرض مراعاة دقيقة من الأمور النادرة ·

واذا كانت الزوجة الاولى عقيما وأنجبت زوجة أخرى أو حتى جارية طفلا لرب الاسرة فكثيرا ما يحدث أن تصبح هى المفضلة لدى هذا الرجل فتحتقر الزوجة الاولى كما فعلت زوجة ابراهيم تجاه هاجر وحينئذ كثيرا ما يحدث أن تفقد الزوجة الاولى مكانتها وامتيازاتها وتصبح الاخرى هى السيدة الأولى وتكفل لها صفة التفضيل لدى السيد جميع مظاهر الاحترام الخارجية من قبل غريمتها أو غريماتها وجميع نساء الحريم ومن يأتين للزيارة وتلك المظاهر التى كانت تتمتع بها من قبل تلك التى حلت ماتين للزيارة ولكن أيس من النادر أن يفسد السم هذا التفضيل وخين يفضل الرجل زوجته الثانية فكثيرا ما ينتج عن ذلك أن تعلن الاولى ناشزا سواء بواسطة زوجها أو بناء عن طلبها هى نفسها الى القضاء ومع ذلك فهناك عدد كبير من الامثلة لنساء هجرهن أزواجهن ومع ذلك فقد ابدين خضوعا مثاليا لأزواجهن وودا للزوجة المفضلة و

و يملك بعض النساء جاريات اشترين خصيصا لهن أو تلقينهن مدية قبل الزواج • وهؤلاء لا يمكن أن يصبحن محظيات للزوج الا بقبول من سيداتهن •

وأحيانا يحصل الزوج على هذا القبول الا أن هذه الحالات نادرة • وثمة زوجات لا يبحن للنساء من عبيدهن الظهور سافرات أمام الزوج • واذا حدث أن أصبحت احدى الجوارى محظية للزوج دون موافقة الزوجة وولات له ولدا فان هذا الطفل يصبح عبدا الا اذا بيعت الجارية أو أهديت للأب قبل مولد هذا الطفل •

والجوارى البيض يملكهن عادة الاغنياء من الاتراك ولا يمكن أن تكون الجوارى المحظيات وثنيات و فهن يأتين عادة من الحبشة ويستولى عليهن الاغنياء ومتوسطو الحال من المصريين ولون بشرتهن هو البنى القاتم أو البرنزى و وتدل سماتهن على أنهن من جنس متوسط بين الزنوج والبيض الا أنهن مختلفات عن هذين الجنسين بشكل ملحوظ ويعتقدن هن أنفسسهن أن الفرق ضئيل بين جنسهن والجنس الابيض ولذا فهن يصردن على رفض القيام بأعمال الخادمات والخضوع لزوجات سادتهن و

وترفض الزنجيات بدورهن خدمة الحبشيات الاأنهن دائما على

استعداد لخدمة النساء البيضاوات ، ولا تأتى معظم الحبشيات من الحبشة مباشرة بل من مناطق الجالا (جنوب الحبشة ) (۱) المجاور لها ، وهن عادة جميلت والثمن المتوسط للواحدة منهن يتراوح بين ٢٥٠ و منكا اذا كانت على درجة مقبولة من الجمال . ومنذ بضع سنوات يدفع الناس ضعف هذا المبلغ .

ويقيم الباحثون عن اللذة في مصر لاولئك النسوة وزنا كبيرا • ولكنهن من الرقة بحيث لا يعشن حياة طويلة ويمتن كلهن تقريبا منالذبول • ويبلغ ثمن الجارية البيضاء عادة ثلاثة أمثال الحبشية بل وقد يبلغ عشرة أمثال ثمنها • أما ثمن الزنجية فلا يبلغ الا نصف ثمن الحبشة أو ثلثيه • الا أن هذا الثمن يرتفع كثيرا اذا كانت طاهية ماهرة • وتستخدم الزنجيات عادة كخادمات •

ويعتنق العبيد كلهم تقريبا الاسلام الاأنهم من النـــادر أن يتلقنوا شعائر دينهم الجديد ، وأندر منه أن يتعلموا نظرياته · ومعظم الجواري اللاتي عشن في مصر في الزمن الماضي كن من اليونانيات اللاتي وجدن ضمن العدد الكبير من أسرى الشعب اليوناني التعس الذين أخذهم الجيشي التركي والمصري بناء على الاوامر التي أصدرها ابراهيم باشا • ولقد بيع هؤلاء التعساء ، ومنهم الاطفال الذين لم يكادوا يتعلمون المشي ، بلا شيفقة ولا رحمة في مصر • ويلاحظ فقر الطبقات العالية في البلاد من قلة الاقبال على شراء الجوارى البيض • ولقد استجلب بعضهن من بلاد الشراكسة وجورجيا بعد أن تلقين في القسطنطينية نوعاً من الثقافة الاعدادية وتعلمن الموسيقى وغيرها من الفنون الترفيهية • ولما كانت الجواري البيض غالبا هن ا'رفيقات الوحيدات للترك من الطبقات العليا ، بل وقد يصبحن أحيانا زوجاتهم ، ولما كن يتمتعن بتقدير يفوق تقدير الناس اللاحرار من النسماء فقد تبوأن لدى الرأى العام مكانة لم تبلغها هؤلاء النساء ٠ وهن يرتدين الملابس الفاخرة ، وتنهال عليهن الهدايا من المجوهرات القيمة • ويعشمن في ترف ويسر حتى انه اذا لم يكن ثمة اكراه لهن على العبودية فان وضعهن يبدو حسنا جدا • ونجـــد الدليل على ذلك في رفض كثـمر من النساء اليونانيات اللاتي عشن في الحريم في مصرحين انتهاء القتال مع اليونان الحرية التي منحت لهن • ذلك أن أحدا لا يستطيع أن يفترض انهن جميعا كن يجهلن الوضع الذي يقع فيه آباؤهن وانهن ربما خفن من التعرض للفاقة

<sup>(</sup>۱) جماعة لهم تقاطيع قوقازية وبشرتهم سوداء .

اذا ما لحقن بهم ولكن مما لايرقى اليه الشك أن بعضهن كن سعيدات على الأقل بصفة مؤقتة ومع ذلك فثمة ميل الى الاعتقاد أن معظمهن وقد قدر عليهن أن يقمن على خدمة رفيقاتهن فى العبودية ممن يقربهن السادة الى أنفسهم أو السيدات التركيات أو أصبحن مضطرات الى تحمل ملاطفة السادة من شهيوخ مسنين أثرياء أو أناس نخر الافراط بجميع ألوانه أجسامهم وأذهانهم ، لم يكن سعيدات لا سيما وهن معرضات للبيع مرة ثانية أو للاعتاق دون ما وسيلة للعيش بعد موت سادتهن أو سيداتهن والى الانتقال هكذا الى أيد أخرى اذا لم يكن لهن أطفال ، أو يجدن أنفسين مضطرات الى الزواج من صانع حقير لا يستطيع أن يوفر لهن اليسر الذى عتدن عليه و

وتنلقى الجواري في بيوت الطبقة المتوسطة في مصر عادة معاملة أطيب من تلك التي تتلقاها المقيمات في حريم الاغنياء • فاذا كن محظيات، وهو أمر لا ســـبيل الى تجنبه تقريباً فليس لهن غريمــات يعكرن صفو بيوتهن • أما اذا كن خادمات فان ما يقمن به من أعمال الخددمة ميسر وحريتهن أقل تحديدا • وإذا وجد تعلق متبادل بين المعظية والسيد فأن وضعها يكون أسعد من وضع الزوجة ، ذلك أن الزوجة قد يطلقها زوجها وفي لمطة غضب قد ينطق ضدها بصيغة الطلاق البائن ويغرقها هكذا في البؤس في حين أنه من النهادر أن يسرح أحد جاريته دون أن يوفيها ما تحتاج اليه بسخاء حتى لا يضيرها تغيير مصيرها اذا لم تكن قد دللت في حياة مسرفة في الترف • وحين يسرح السيد جاريته جرى العرف على أن يعتقها بمنحها هبة بمناسبة عتقها ثم يزوجها من رجل طيب أو يهديها الى أحد أصدقائه • وعلى العوم فان بيع جارية قضت مــدة طويلة في خدمة سميدها يعتبر من الامور التي نستحق اللوم · واذا رزقت جارية اهداؤها وتصبح حرة بعد موت سيدها • وكثيرا ما يحدث بعد ولادة طفل يعترف به السيد أن تعتق الجارية وتصبح زوجة له ، وذلك لأنه لا يمكن وفد أعتقها أن يحتفظ بها دون زواج شرعى ٠

وثمن الاناث من العبيد عادة أكبر من ثمن الذكور وثمن من لم يصب بالجديرى منهن أقل ممن أصبن به و يعطى المشترى ثلاثة أيام المتجربة. وفي خلال هذه انفترة تبقى الفتاة المشتراه في حريم المشترى أو في حريم أحد من أصدقائه ويكلف نساء الحريم بابداء تقريرهن عن القادمة الجديدة ويعتبر الشخير وصرير الاسنان أو الكلام أثناء النوم أسبابا كافية لفسخ

الشراء واعادتها الى البائع · وتلبس الجهوارى نفس ما تلبسه النساء المصريات ·

وتكلف الفتيات أو النسساء المصريات المضطرات الى الخدمة بأحط الاعمال ويظهرن عادة أمام سادتهن محجبات ، وحينما يقمن بتأدية عمل ما لهؤلاء السادة يعدلن من وضع الحجاب بحيث لا يكشفن الاعن أعينهن ولا يحركن الايدا واحدة •

وحينما يستقبل السيد رجلا غريبا عن البيت في غرفة من غرف الحريم ( بعد ابعاد النساء اللاتي تتكون منهن أسرته الى غرفة أخرى ) تقوم على خدمته باقى النساء الا أنهن يكن دائما محجبات •

تلك هي الاوضاع التي تقوم عليها مختلف طبقات الحريم · وينبغي الآن أن نلقى نظرة على عادات ساكنات الحريم ومشاغلهن ·

وكثيرا ما تحرم الزوجات والنساء من الجوارى من تناول الطعام على مائدة واحدة مع رب البيت وأسرته وقد يستدعين لخدمته حينما يتناول غداءه أو عشاءه أو حتى حين يدخل الى الحريم للتدخين وتناول القهوة وهن يقمن عادة بأعمال الخادمات وهن يتولين عادة ملء غليونه واشعاله ويعدون له القهوة وألوان الطعام التي يرغب في تناولها لاسيما حين يتعلق الامر بالالوان الدقيقة الصنع والغريبة والطبق الذي يوصيك به رب البيت لان زوجته قد أعدته بيدها هو عادة صنف جيد تماما وتدرس نساء الطبقات العليا والمتوسطة دراسة خاصة فن الحصول على اعجاب الازواج والاستحواذ عليهم بما لاحد له من الاهتمام والمضايقات ويلاحظ المرء دلالهن حتى في مساعيتهن وحينما يخرجن يعرفن كيف يعطين المحسامهن حركة متموجه خاصة يسميها المصريون «بالفنج» وهن دائما متحفظات في حضرة الزوج ولذا فيفضلن ألا يكثر من زيارتهن أثناء النهار وألا تطول زياراته وأما في غيابه فانهن ينطلقن في مرح بالغ و

وطعام النساء رغم مشابهته لطعام الرجال الا أنه أكثر تقشفا وهن يتناولن طعامهن بنفس الطريقة التي يتناولون بها طعامهم ويسمح لكثير من النساء بالتدخين حتى نساء أرقى الطبقات حيث أن رائحة التبغ المصرى الممتاز معطرة الى أقصى حد وغلايين النساء أرفع من غلايين الرجال وأكثر منها زينة وأحيانا يصنع طرفها من المرجان بدلا من الرخام ويتعاطى النساء العنبر المسك وغيره من العطور ويستعملن مساحيق التجميل وعطوره وكثيرا ما يعدون تركيبات يأكلنها أو يشربنها من أجل الحصول

على درجة معينة من اعتدال المزاج والمصريون على العكس من الافريقيين ويسعوب الشرق عموما ليسوا شديدى الاعجاب بالنساء المفرطات في البدانة ، ذلك لانه في أغاني الحب لديهم يتحدث الشعراء عن فتاة حبهم على أنها رشيقة نحيلة القوام •

وثمة صنف من أصناف الطعام التي تعتبرها النساء كفيلة بزيادة أوزانهن وهو مقزز ويتكون أسساسا من القواقع المهروسة • وكثير من النساء يمضغن البخور واللادن حتى تصير أنفاسهن عطره • وتضفى عادة الوضوء المتواتر على أجسامهن نظافة تامة • وهن لا يقضين وقتا طويلا في الزينة ، وينسدر أن يغيرن زينتهن أثناء اليسوم بعد ارتداء ملابسهن في الصباح • وهن يجدلن شعورهن في ضفائر أثناء الاستحمام ، وتكون الصباح • وهن يجدلن شعورهن في ضفائر أثناء الاستحمام ، وتكون العباد الطريقة في تصفيف الشمر من حسن السبك بحيث لا تستشعر الحاجة لتغييرها طوال أيام كثيرة •

وأهم ما يشغل السيدات المصريات هو العناية بأطفالهن كما أنهن يقمن بادارة شميئون البيت • الا أن الزوج عادة هو الذي يتولى الانفاق رينظمه . وتقضى النساء ساءات الفراغ في الحياكة والتطريز لا سيما تطريز مناديل اليد وغطااء الوجه ويتم التطريز عادة بالحرير الملون والذهب ويؤدى بواسطة جهاز يسمى المنسيج يصنع عادة من خسب الجوز المطعم بالصدف وقشور السلحفاة ، وتصنع الاصناف المعتادة منه منخشب آزان • وكثير من النساء ، حتى أكثرهن ثراء ، يتوصلن الى تضخيم حافظة نقودهن الخاصة بتطريز المناديل وغبرها ويعطينها للاللة التي تتولى عرضها في أحد المحلات أو تتولى تصريفها في حريم آخر · وكثيرا ماتستغرق الزيارة التي تقوم بها نساء الحريم لحريم آخر يوما بأسره تقريبا ٠ وهكذا تتجمع النسكاء ويأكلن ويدخن ويشربن القهعوة وآشربات ويثرثون ويسمتعرضن ما لديهن من أدوات الترف ، وفي هذا كله مايكفي لتسليتهن٠ ولا يسمح لرب البيت بحضور هذه الاجتماعات النسسائية الاللضرورة الملحة ، وينبغي في هذه الحالة أن يخطرهن بحضوره حتى يعطي الزائرات الوقت الكافي لاسدال خمرهن اأو للانسحاب الى جزء آخر من هذا الجناح. وهكذا تترك النساء الشابات وهن في مأمن من أية مفاجأة العنان لمرحهن ويتركن أنفسهن على سجيتها ، بل كثيرا ما يتركن العنان لما يتميزن به من روح المجون والصنخب •

#### ٣ \_ الاحتفالات الخاصة

يقيم المصريون حفلا بمناسبة قبول أحد أبنائهم عضوا في طائفة من طوائف التجار أو الصناع • ويتم القبول بين النجارين والغزالين والحلاقين والخياطين ومجلدي الكتب وغيرهم من أرباب الحرف بالطريقة التااية :

يتوجه الشاب الذي يرغب في الانضمام الى الطائفة برفقة أبيه الى الشبيخ ويحيطه علما برغبته في الحاقه عضوا بالطائفة • وحينئذ يستدعي الشبيخ أرباب المهنة من معلمي هذا المستجد وبعض من أصدقائه لحضور حفل استقباله • وهنا يحمل أحد « المعلمين » ويسمى النقيب باقة من العشب الاخضر أو الزهور ويقوم بتوزيعها على كل فرد من المدعوين وعويقول :

- « الفاتحة للنبي » -

ثم يضيف النقيب قائلا:

س « احضروا الى هنا في يوم كذا والساعة كيت لتناول قدح من القهوة » •

وهكذا يتجمع المدعوون سواء لدى الاب أو لدى الشماب وأحيانا في الريف حيث يستمتعون بتناول القهوة ويقدم لهم العشماء .

ويمثل المستجد أمام الشيخ · وتتلى الاشعار في مدح النبي ثميلفون له حول جسده « شالا » معقودا من طرفيه · ثم تتلى آيات من القرآن ثم يعقد الشال عقدة ثانية · وفي العقدة الثالثة التي تعقد بعد قراءة بضم آيات من القرآن مرة أخرى يرش الشال للتبريك ويعتبر الشاب قد تم قبوله كعضو في الطائفة المهنية التي كرس نفسه لها · وحينئذ يقبل يد

الشبيخ وجميع الحاضرين ويدفع رسم اشتراك زهيد ويصبح عضوا في الطائفة ·

ويظهر المصريون ، الذين يعيشه عادة في تقشف شديد ، في ولائمهم أكبر قدر ممكن من التنوع والوفرة الا أن الوقت المخصص لتناول الطعام قصير جدا • ويدخن الناس عادة في مثل هذه الاجتماعات يرشفون القهوة أو الشربات ويتسامرون •

وفى أثناء تلاوة القرآن يمتنع الاتراك عادة عن التدخين ، وهم يبجلون الكتاب المقدس لدرجة جعلت الناس يقولون عنهم : « أن الله قد وضع سلللة عثمان في مكانة تفوق غيرهم من المسلمين لأنهم يمجدون القرآن أكثر مما يفعل غيرهم !

وكل ما يدور فى هذه الاجتماعات من تسلية لا يعدو بعض لقصص. الا أن الجميع يولون الرقص الذى يدور والموسيقى التى تعزف فى أيام العيد هذه اهتاما كبيرا • ،

ويجدر بالملاحظة أن المصرى يسليه أن يلعب أية لعبة الا اذا كان فى جماعة صغيرة من شخصين أو ثلاثة أو كان فى أسرته · ورغم أن المصرى اجتماعى بطبعه الا أنه نادرا ما يقيم الحفلات الكبيرة ولابد لكى يقيمها من مناسبات غير عادية كالزواج ومولد أحد الاطفال الخ .

وثمة حفلات كذلك تقام بمناسبة الزواج وفي اليهوم السابع للزواج (ويسمى يوم السبوع) تستقبل العروس صديقاتها من السيدات في الصباح وبعد الظهر وأحيانا يستقبل الزوج في هذا الوقت أصدقاءه ويسليهم في المساء بالموسيقي والرقص وتفرض العادات المتبعة في هصر على الزوج أن يمتنع عن ممارسة الحقوق التي يمنحها له الزواج حتى اليوم السابع اذا كانت العروس عذراء شابة وفي نهاية هذه الفترة جرى العرف على اقامة حفل وجمع الاصهدة؛ وبعد أربعين يوما من الزواج تندمب العروس الشابة الى الحمام بصحبة بعض صديقاتها وحين تعود الى بيتها تقدم لهن المرطبات ثم ينصرفن وفي أثناء هذا الوقت يقيم الزوج وليمة يدور فيها الرقص وتعزف الموسيقى و

وغداة مولد أحد الاطفال يقهوم اثنان أو ثلاثة من الراقصين أو الراقصات بالتوقيع أمام البيت أو في الفناء • وتكون الحفلات التي تقام بمناسبة مولد صبى أكثر بهجة من تلك التي تقام بمناسبة مولد صبية •

وفي هذا ما زال العرب يحتفظون بالمشاعر التي كانت تحدو بأجدادهم الى وأد أبنائهم من الاناث(١) •

وبعد مولد الطفل بثلاثة أو أربعة أيام تعد نساء البيت الوانا من الطعام تتكون من العسل والسمن وزيت السمسم والعطارة والعطور يضاف اليها أحيانا البندق المحمص هسدا اذا كانت المنفساء تنتمي الى احدى الطبقات الراقية أو الميسورة •

ثم تقوم النساء أو الفتيات « برفة » الطفل فى الحريم كله وتحمل كل منهن شموعا مشتعلة ذات ألوان مختلفة : ثم توضع هذه الشموع بعد تقسيمها الى نصفين فى كتل يابسة من عجينة من الحناء ويوضع كثير منها على صحفة كبيرة • وترش القابلة أو غيرها من السيدات الحاضرات الملح المختلط بجبة البركة على الأرض • ويوضع هذا الخليط على رأس مهد الطفل فى الليلة البارحة لحماية من الارواح الشريرة • وتقول المرأة النى تتولى نثر هذا الملح :

ــ « ملحة في عين الذي لا يصلى على النبي »! « أو ملحة في عين الحسود »!

وترد عليها جميع النساء الحاضرات قائلات:

- « اللهم صلى على سيدنا محمد »!

ويقدم لكل من السيدات صحفة من الفضة فيصحن بصوت مرتفع: \_ اللهم صلى على سيدنا محمد! اللهم مد في عمره سنوات طويلة! الخ وتقدم النساء عادة في هذه المناسبة منديلا مطرزا يعقد أحد أطرافه

على قطعة ذهبية • ويوضع هذا المنديل عادة على رأس الطفل أو بجواره • وتعتبر هدية المنديل دينا مكتوبا لا بد من رده في مثل هذه المناسبة أو يستخدم في رد هدية قدمت في مناسبة مماثلة • وتستخدم النقود الذهبية التي تجمع بهذه الطريقة في تزيين شعر الطفل لسنوات عديدة • وبخلاف هذا الكرم الوفير يجزل العطاء كذلك للقابلة • وفي ليلة يوم السبوع يوضع ابرين ملى بالماء على رأس مهد الطفل النائم بعد تزيين عنقه بمنديل مطرز • ثم تتناول القابلة ابريقا وتضعه في صحفة ثم تقدم لكل من تأتي لزيارة النفساء كوبا منه تدفع كل منها هبة من لدنها ثمنا له •

وتعتبر النفساء غير طاهرة مدة من الزمن بعد الوضع تختلف تبعا للمذاهب المختلفة الا أنها تبلغ عادة أربعين يوما • وبعد انقضاء الفترة التي تدعى النفاس تذهب الى الحمام ومنذ ذلك الوقت تصبح طاهرة •

<sup>(</sup>۱) وأد البنات كان فى الجاهلية أ قاصرا على قلة من القبائل ، والعرب كقاعدة عامة يؤثرون الولد ، ( المترجم )

# ع - الراقصات في مصر

ان الغوازي هن أشهر الراقصات في مصر ، وقد أطلق عليهن هــذا الاسم نسبة الى القبيلة التي ينتمين اليها (١) • وتسمى المرأة التي تنتمي الى هذه القبيلة غازية والرجل غاز ، أما الجمع غوازي فيطلق عادة على النساء • ولا يتسم رقصهن دائما بالجمال • فهن سدأن أولا بشيء من االتحفظ ولكن ما تلبث نظراتهن ان تنتشي ويقوى وقع صاجاتهن النحاسية • وينتهي بهن الأمر بسبب الطاقة المتزايدة لجميع حركاتهن بأن يحاكين رقص نساء قادش محاكاة تامة كما وصفه لنا مارسيال وجوفنال (٢) ، ويشبه الثوب الذي يظهرن به ثياب المصريات من الطبقة المتوسطة التي يرتدينها في الحريم • وهو يتكون من « اليلك » (٣) أو « العنتري » والشنتيان النح · وتصنع من الاقمشة الجميلة ويضاف اليها الزينات المختلفة . وهن يزين حافة أعينهن بنوع من الكحل الأسود • أما أطراف أصابعهن وراحة أيديهن وبعض أجزاء من القدم فتطلى بلون الحناء الاحمر كما هي العادة المتبعة لدى المصريين من جميع طبقاتهم . ويتبع هؤلاء الراقصات عادة موسيقيون ينتمى معظمهم الى القبيلة نفسها . وآلاتهم الموسيقية هي الكمان أو الرباب والدف ( التار ) أو الدربكة والزره (٤) . وتمسك بالدف عادة امرأة عجوز وكثيرًا ما يحدث بمناسبة بعض الحفلات العائلية كالزواج والولادة أن

<sup>(</sup>١) قبيلة غزية

<sup>(</sup>٢) شاعرين لانينيين ٠

<sup>(</sup>٣) الملك ثوب منزلى مفتوح من الامام والمنترى شبيه بذلك الا أنه قصير أما الشمنتيان فهو أوع من السراويل ١٠

<sup>(</sup>٤) يقصد الزمارة ٠

تترك الفوازى لترقص فى أفنية المنازل أو في الشارع أمام الأبواب دون استقبالهن داخل اى حريم شريف ، وعلى العكس من ذلك ليس من النادر أن يؤجرن لتسلية جمع من الرجال ، وفى هذه الحالة كما نستطيع أن نتصور تكون رقصاتهن أكثر مجونا مما وصفنا فيما سبق ، وبعضهن لا يرتدين في هذه الاجتماعات الخاصة من الملابس الا الشنتيان (أى السروال) والتب وهو قميص أو ثوب فضفاض جدا من المخمل الملون شبه الشفاف ، مفتوح من الامام حتى منتصف الجونله ، واذا تظاهرن ببقية من الحياء فهذا لا يدوم طويلا أمام الشراب المسكر الذي يصبونه لهن بوفرة ،

وبعضهن يتميزن بالجمال الشديد ، ومعظمهن يرتدين الملابس الفاخرة وهن عموما أجمل نساء الاقليم ، ومما يجدر ذكره أن يعضا منهن يتسم بالأنف ذى التقويس الخفيف الا أنهن رغم جميع الاعتبارات يمثلن الجنس الاصلى .

ورغم أن الغوازى يختلفن اختلافا طفيفا فى مظهرهن عن بقية المصريين فنحن نشك بقوة فى أن يكن من أصل مميز خاص بهن كما يؤكدن هن أنفسيهن ومع ذلك فأصلهن يحيط به الكثير من الفموض . فهن يدعين أنهن يدعين البرامسكة أو البرمكة ويفخرن بأنهن من أسرة البرامسكة الشهيرة التى كانت موضع تكريم هارون الرشيد ثم صب عليها غضبه كما تحدثت عنها مرارا القصص العربية .

وقد صورت الفوازى على كثير من المقابر المصرية وهن يرقصن على نفمات مختلف الآلات بأكثر الحركات تحررا من القيود أى على طريقة مماثلة لتلك التى ترقص بها الغوازى المحدثات ، بل ربما كانت أكثر اباحيه ذلك أن واحدا أو كثيرا من هذه الوجوه قد صورت عادة رغم وجودها بجوار شخصيات جليلة في حالة عرى تام . وتدل هذه العادة التى نتحدث عنها في تزيين الآثار التى تحمل معظمها اسماء الملوك القدامي على مدى شعبية هذه الرقصات في مصر كلها في أكثر الإزمنة ايغالا في القدم ، حتى قبل هروب بنى اسرائيل وعلى ذلك فمن المحتمل أن تكون الغوازى المحدثات عن سلالة هذه الطبقة من الراقصات التي كانت ترفه عن الفراعنة الأوائل .

ويتميز الغوازي من الرجال والنساء عادة عن الطبقات الأخرى

بأنهم لا يتزوجون الا من بعضهم البعض • الا أننا نرى أحيانا احدى الفوازى تقسم على التوبة وتتزوج من أحد العرب الاشراف الذى لا يشينيه عادة هذا الرباط • والفازيات كلهن قد كرسن لأحط المهن الا أنهن لا يمتهن جميعا مهنة الرقص • وتتزوج الفالبية العظمى منهن ولكن لا يتم هذا أبدا الا بعد أن يمارسن فعلا الحالة التى اخترنها •

ويخضع الزوج لزوجه ويصير خادما لها ومتعهدا لاحضار ما يلزمها واذا كانت راقصة فهو يصبح عادة عازفا لها ومع ذلك فبعضهم يكسب عيشه من أعمال الحدادة والحياكة وصناعة القدور .

ورغم أن بعض الغازيات يمتلكن المال العريض والمصوغات الثمينة الا أن كثيرا من ملابسهن تشبه ملابس البوهيميات اللائي نشاهدهن في أوربا واللائي نظن أنهن من أصل مصرى . ولغة الفوازي من الجنسين عادة هي لغة سائر المصريين الا أنهم أحيانا يستعملون بعض الالفاظ الخاصة بهم حتى لا يفهمهم الأغسراب . أما عن الدين فهم يعتنقون الاسلام علنا ويحدث أحيانا أن يصحب بعضهم العاملة المصرية الى مكة. وترى اعداد كبيرة من الفوازى في جميع المدن المصرية تقريبا . وهم يسكنون عادة في أكواخ منخفضة أو خيام مؤقتة اذ أنهم كثيرا ما يرحلون من مدينة الى أخرى . ومع ذلك فان بعضا منهن يقمن في بيوت كبيرة ويقتنين الجوارى السود من الشباب ثم يقتنين الجمال والحمير والإبقار ويتجرن فيها • وهن يتبعن المخيمات ويحضرن جميع الاحتفالات الدينية وغيرها ويشكلن العنصر الأسهاسي الذي يجذب الكثير من الناس الي هذه الاحتفالات . وفي هذه المناسبات تشاهد خيام عديدة للفوازي ويضيف بعضهن الغناء الى الرقص وينافسن العوالم اللاتي ينتمين الى احط الطبقات • ويرتدى البعض الآخر منهن الثياب المخملية فوق ثياب أخرى مع « الشنتيان » والطرحة الصنوعة من « الكريب » أو الموسلين . وهن يفرطن عادة في التزين بالدنتلات والاساور والخلاخيل . ويلبسهن كذلك صفا من القطع الذهبية على الجبين ويضعن أحيانا حلقه في احدى فتحات أنوفهن ويصبغن جميعا أيديهن وأرجلهن بالحناء ٠

وفى القاهرة يتظاهر الكثير من الناس بالاعتقاد فى أن هذه الرقصات لا يعيبها الا أن النساء هن اللاتى يؤدينها حيث لا ينبغى أن يعرضن انفسهن هكذا على الجمهور ولذا فهم يكلفون الرجال بهذه الالوان من الترفيه ، الا أن عدد هؤلاء الراقصين ، ومعظمهم من الشباب ويسمونهم بالمخنثين محدود للغاية ، وهم من أبناء مصر ، ولما كان عليهم أن يقلدوا

رقصات النساء فهم يؤدون رقصات لها طابع رقصات الغازيات نفسها ويضربون بالصاجات بالطريقة ذاتها ولكن رغبة منهم في ألا ينظر الناس اللي الدور الذي يقومون به بعين الجد فهم يرتدون من الملابس ما يتفق مع هده المهنة الغريبة ، فهي ثياب نصفها مذكر والنصف الآخر مؤنث وتتكون أساسا من سترة مقفلة وحزام وما يشبه القرطق ومع ذلك فمظهرهم العام أقرب الى النساء منه الى الرجال وذلك بلا شك لانهم يرسلون شعورهم ويجدلونها على طريقة النساء وهم يقلدون النساء في تلوين جفونهم وصبغ أيديهم بالحناء وفي الطريق حينما لا يرقصون فأنهم يسيرون محجبين لا بدافع الخجل بل أمعانا منهم في تقليد حركات فانهم يسيرون محجبين لا بدافع الخجل بل أمعانا منهم في الافنية أو أمام أبواب المنازل في مناسبات الاحتفالات العائلية وتوجد في القاهرة طبقة أخرى من الراقصين من الرجال والفتيان يشبهون في الباسمهم وحركاتهم ومظهرهم المخنثين ، الا أنهم يتميزون عنهم بأن السمهم الجنك (۱) وهي كلمة تركية تعبر تماما عن طابع هولاء الراقصين وهم عادة من اليهود أو الأرمن أو اليونانيين ،

<sup>(</sup>١) ألبوهيميون 🙃

#### 6 - الحواة

توجد في مصر طائفة من الناس تملك على ما يظن ، كما كان يملك الرفاعية في (١) ولاية طرابلس الفرب ، ذلك الفن الغريب الذي تحدثت عنه التوراه والذي يمنح المرء مناعة ضد عض الثعابين ، ولقد روى الكثير من الكتاب قصصا عجيبة عن هؤلاء الحواة المحدثين الذين يعتبرهم الواعون من المصريين دجالين ، الا أن أحدا لم يقدم ما يكفى من التفصيلات عن المهارة التي يقدمونها سواء منها العادية أو المثيرة .

وكثير من الدراويش من الدرجات الأقل يتعيشون من ممارسة أنواع من السحر حول المنازل لابعاد الثعابين عنها وهم يجوبون مصر في جميع الاتجاهات حيث يجدون العمل على معظم الاحوال الا أن مكسبهم ضئيل ويدعى الرفاعى اكتشاف الثعابين ان وجدت دون استخدام بصره وهو يؤكد في حالة وجودها أنه يستطيع اجتذابها اليه بفضل سحر صوته وحده وحينئذ يتخذ هيئة غريبة ويضرب الجدران بعصا صغيرة من سعف النخيل ويصفر ويقلد صياح الدجاجة بلسانه ويبصق على الأرض ويقول : «سواء أكنت في أعلى أم في أسفل فاني استحلفك باسم الله أن تظهر في الحال واذا لم تطع هذا الأمر فلتمت ! لتمت التمت ! يه ويحدث عادة أن يخرج الثعبان بواسطة العصا من أحد شقوق الجدار أو يسقط من سقف الغرفة و

وأصحاب هذه الآلاعيب ، ويسمون بالحواة ، كثيرون في القاهرة · وتراهم في الميادين وقد أحيطوا بدائرة من المتفرجين ، تراهم كذلك في

<sup>(</sup>١) الذين يملكون فن السيطرة على الثعابين ٠

الاحتفالات العامة وهم ينتزعون التصفيق من الناس بألاعيب كثيرا ماتكون مبتذلة • وهم يؤدون عددا كبيرا من الألاعيب اليكم أكثرهـ شيوعا: يساعد الحاوى عادة اثنان من زملائه ، وهو يخرج أربعة أو خمسة تعابين متوسطة الحجم من كيس من الجلد ويضع واحدا منها على الأرض ويجعله يرفع رأسه وجزءا من جسمه • ثم يلف الثعبان الثاني حول رأس أحد مساعديه كما تلف الرأس بالعمامة كما يلف ثعبانين آخرين حول الرقبة ٠ ثم يستعيدها ويفتح فم الصبى ويبدو وكأنه يدخل في خده يد شيء ما يشبه القفل ثم يغلقه وبعد ذلك يتظاهر بادخال طرف عود من الحديد في حلق الصبى وهو في الحقيقة يدخله في يد خشبية تحيط به • واليكم لعبة أخرى من ألاعيبهم: يرقد الحاوى أحد صبيانه على الأرض ويضع له أحد الشفرات على أنفه ويضرب على الحد حتى يبدو وكأنه قد تعمق الى منتصف خطه العرضي • ومعظم الألاعيب التي ينفذها بمفرده أدعى للتسليب، من ذلك فهو مثلا يخرج من فمه كمية كبيرة من الحرير يلفها حول ذراعه • وأحيانا أخرى يملأ فمه بالقطن ويبصق النار • وأحيانا أخرى كذلك يحرج من فمه عددا كبيرا من القطع المعدنية في استدارة الدولار ثم يبصقها من أنفه في صورة دخان يخرج من أرجيله ٠

وثمة لعبة شائعة من هذه الألاعيب يوضع فيها عدد ما من أشرطة الورق الصغيرة البيضاء في اصيص من القصدير في شكل كوب الشراب ثم يستحبها وقد تلونت بألوان مختلفة ، ثم يصب الحاوى الماء في هذا الاناء نفسه ويضع فيه قطعة من القماش ثم يقدمه الى المساهدين وقد تحول الى شراب سكرى ، واحيانا يقص الحاوى احدى التلافيع الى قسمين أو يحرقها في وسطها ثم يعود فورا فيصلحها ، واحيانا أخرى يتجرد من جميع ملابسه الا سرواله ويطلب من شخصين أن يوثقا قدميه ويديه ويضعاه في كيس ، وبعد ذلك يطلب قرشا فيجيبه أحد المشاهدين بأنه سوف يحصل على هذا القرش لو استطاع سحب احدى يديه لتلقيه . وفي الحال يسحب احدى يديه لتلقيه . وفي الحال يسحب احدى يديه للقرف وفي الحال يسحب احدى يديه للقرا ذلك كله وهو ما يزال مشهدود الوثاق ثم يعاد الى الكيس فيخرج منه للتر وقد تخلص من وثاقه ويحمل صحفه صغيرة محاطة بالشموع المضاءة واذا مانت تلك اللعبة تمارس ليلا ) وقد عمرت بخمسة أو سعة من الصحون مليئة بألوان مختلفة من الطعام ويقدمها للمشاهدين ،

و يوجد في القاهرة طائفة أخرى من الحواة يسممون السيكة ؟ ٠ ويساعد السيكي في معظم العابهم كذلك صبى مساعد ٠ فمثلا يقوم هذا

الأخير بوضع تسعة وعشرين حجرا صغيرا على الأرض ويجلس بجوارها ويقوم بترتيبها أمامه • ثم يطلب من أحد المشاهدين أن يخفى قطعة من النقود تحت أحدها • وما أن يتم ذلك حتى يدءو السيكى الذى يكون واقفا على مسافة ما أثناء هذا الترتيب • وحين يخبره أن قطعة من النقود قد خبئت تحته ، خبئت تحت أحد الأحجار يسأله أن يدل على الحجر الذى خبئت تحته ، وهذا ما يفعله السكيم للتو • وهذه اللعبة بسيطة للغاية فالحجارة التسعة والعشرون يمثلون الحروف الأبجدية العربية • ولا يفوت الصبى أن يبدأ طلبه بالحرف الذى يمثل الحجر الذى خبئت تحته قطعة النقود •

ومن قراءة الطالع كثيرا ما يمسارس في مصر ، ويتولاه في معظم الأحوال بوهيميون مثل أولئك الذين يعيشون في بلادنا ويطلقون عليهم اسم العجر • وهم يدعون ، ومثلهم في ذلك مثل الغوازي ، أنهم من سلالة البرامكة ولكنهم من فرع مخالف لفرع البرامكة •

ومعظم النساء يقرأن الطالع ، وكثيرا ما يشاهدن في شوارع القاهرة وقد الرتدين ما ترتديه نساء الطبقة الدنيا تقريبا مع الثوب والطربوش الا أن وجوههن دائما سافرة • وتحمل الغجرية عادة كيسا من الجلد يحتوى على الأدوات اللازمة لمهنتها وتجوب الشوارع وهي تصيح : « أقرأ الطالع ! أكشف الحاضر وأقول المستقبل ! » •

ومعظم الغوازى يقرأن الطالع بواسطة عدد من القواقع وقطع الزجاج الملون وقطع النقود النج ٠٠

يقذفن بها كلها مختلطة · وحسب النظام الذي ترتبها به الصدفة يستخلصن نتائجهن · وأكبر الودع هو الشخص الذي يراد الكشف عن مصيره · • وتجسد القواقع الاخرى الخير والشر الغ · وحسب طريقة توزيعها يعرفن اذا كان الآخرون سوف يحضرون لزيارة الشخص المعنى أم لن يصلوا · وتصيح بعض من هذه البوهيميات قائلات : « ندق ونطاهر » أي اننا نرسم الوشم ونقوم بختان الطفل » ·

ويقوم بعض البوهيميين كذلك بدور « البهلوان » ، وهو اسمه يطلق بحق على البهلوانات واللاعبين بالسيوف أو مشاهير الأبطال وكل من اشتهر في القاهرة في الماضي باظهار قوته ومهارته • الا أن ألعاب البهلوانات المحدثين قد اقتصرت تقريبا على الرقص على الحبل • وكل من يمارس هذا الفن من البوهيميين • وقد يحدث أحيانا أن يربط الحبل بمئذنة أحد

المساجد على ارتفاع كبير ويمتد الى عدة مئات سن الأقدام تسنده من مكان الى مكان عروق خسبية مغروسة في الأرض •

وتمارس النساء والفتيات الصبية هذه المهنة عن طيب خاطر ١٠ الا أن الصبية يقومون الى جانبها بألعاب أخرى كألعاب القوى والقفز من الاطواق النح ٠٠٠

والقرداتية ( وهو اسم مشتق من كلمة قرد ) يقومون بتسلية الطبقات الدنيا في القاهرة بواسطة الألعاب المختلفة التي يقوم بها قرد وحمار وكلب وعنز ويقوم الرجل والقرد ( وهو عادة من فصيلة القردة الافريقية بمضاربة الثلاثة الآخرين بالعصى ويلبس الرجل القرد الغريب من الملابس كالعروس مثلا أو كامرأة محجبة وهو يتقدمه وهو يقرع طبلته الصغيرة ويستعرضه هكذا على ظهر الحمار وسط حلقة المشاهدين وعلى القرد كذلك أن يؤدي رقصات عديدة مضحكة وهو يلصق أنفه بوجه ظهر أجمل الفتيات ، فلا يلبث أن يقوم بذلك وهو يلصق أنفه بوجه أجمل فتاة وسط رضاها ورضا الحاضرين جميعا ويؤمر الكلب بتقليد حركات اللص فيأخذ في الزحف على بطنه وأخيرا فان أحسن هذه الألعاب هو ما يقوم به العنز و فهو يقف على قطعة صغيرة من الخشبب قرنية الشكل تقريبا يبلغ طولها نحو أربع بوصات وعرضها بوصة ونصف بحيث يجمع أقدامه الأربعة على هذه المساحة الضيقة و ثم ترفع هذه بحيث يجمع أقدامه الأربعة على هذه المساحة الضيقة و ثدس تحتها قطعة أخرى مماثلة ثم ثالثة ورابعة وخامسة تضاف دون أن يغير العنز وضعه وضعه وضعه و

ويسر المصريون عادة لمساهدة التمثيليات الهزلية السخيفة التى تبعث على السخرية و تؤدى هذه العروض عادة في الحفلات التى تسلم الزواج والختان لدى علية القوم وتجتذب أحيانا عددا كبيرا من المشاهدين في الميادين العامة في القاهرة و الا أنها قلما تستحق الوصف اذ أن هذه الفرق تجتذب التصفيق أساسا بالدعابات المبتذلة المسينة و ولا يقوم بالتمثيل الا الرجال فهم الذين يؤدون الادوار النسائية أو يسندونها الى صبية في أزياء النساء و

واليكم كعينة من تمثيلياتهم ملخصا لاحدى التمثيليات التي عرضت أمام محمد على بمناسبة ختان أحد أبنائه والتي كانوا يقومون فيها كذلك حسب العادات المتبعة بختان عدد كبير من أبناء العظماء .

كان شخوص التمثيلية هم « ناظر » أي حاكم ناحية ، وشيخ بلد »

وخادم هذا الأخير ، وأحد الكتبة الاقباط ورجل فقير مدين للحكومة وزوجته وخمسة شخوص آخرين يدخل اثنان منهم وهما يقرعان احدى الطبول بينما يعزف الثالث على المزمار ويرقص الاثنان الباقيان ، وبعد أن يفرغوا من الرقص والعزف على آلاتهم يدخل الناظر وغيره ويغنون في دائرة ،

ويسأل الناظر: « بكم يدين عوض بن رجب ؟ » فيجيب العازفون والراقصون الذين يقومون الآن بدور بعض الفلاحين قائلين: « اطلب من الكاتب أن يرجع الى السبجل » • أما هذا الكاتب فيرتدى ملابس الإقباط ويضع على رأسه عمامة سوداء ويحمل في حزامه كل ما يحتاج اليه من أدوات الكتابة • فيقول له الشيخ: « بكم يدين عوض بن رجب ؟ » فيجيب الكاتب: « بألف قرش » فيضيف الشيخ قائلا: « وكم دفع منها ؟ » فيجيبه قائلا: « خمسة قروش » وحينئذ يقول للمدين: « لماذا لم تحضر النقود أيها الرجل ؟ » فيجيب الرجل قائلا: « اننى لا أملك أية نقود » فيصيح فيه الشيخ قائلا: « لا تملك أية نقود! ليفرش هذا الرجل على الأرض » • وحينئذ يحضر سوط يشبه عصب الثور ويضرب الفلاح المسكين • وحينئذ يصيح في الناظر قائلا: « يا بك ؛ بحق شرف ذيل المسكين • وحينئذ يصيح في الناظر قائلا: « يا بك ؛ بحق شرف ذيل حصائك ! يا بك ! بحق شرف ذيل

وبعد أن يرسل عشرينا من أمثال هذا النداء السخيف الذي يستدر به المضررب عطف الناظر ويكف عن ضربه ويقاد الى السجن وثمة مشهد آخر : تحضر زوجة السجين لزيارته وتسأله عن حاله فيجيب : « أرجو أن تأخذى بعض البيض وبعض الفطائر وتحمليه الى منزل القبطى وتتوسلى اليه أن يعيد الى حريتي ، وتجمع المرأة الإشياء المطلوبة وتحملها في ثلاث سلال الى القبطى وتسأل عما اذا كان موجودا فيجيبها بالإيجاب فتتقدم اليه وتقول : « يا معلم حنا ! تفضل على بقبول هذه الهدية وبالحصول على حرية زوجي » • « ومن هو زوجك ؟ » • « انه الفلاح المدين بألف ق ش» • «ادفعى مائتين أو ثلاثة مئات من القروش الى شيخ البلد كجزية» وتذهب المرأة للبحث عن المال وتحرير زوجها •

نرى من ذلك أن الملهاة تهدف من وجهة نظر الشعب الى توجيسه الاندارات الى الكبراء والحصول على التحسينات والاصلاحات ولقد كان هذا في أغلب الاحوال هو معنى الفن التمثيلي وهدفه في العصور الوسطى وما زال المصريون في العصور الوسطى .

# ٦ - بيوت القاهرة

ان العاصمة الحديثة لمصر تسمى بالعربية « القاهرة » التى اشتق منها الأوربيون الاسم الذى يطلقونه على هذه المدينة • أما الشعب فيسميها مصر وهو اسم البلد كله • وتقع المدينة فى مدخل وادى مصر العليا بين النيل والسلسلة الشرقية لجبال المقطم • ويفصلها عن النهـــر لسان من الأرض مزروع كله تقريبا ويتسع من الجبهة الشرقية حيث يوجد مرفأ بولاق الى أكثر من ربع فرسخ حينما لا يبلغ اتساعه نصف هذا القدر جهــة الجنوب •

وقد يظن الاجنبى الذى لا هم له الا أن يجوب شوارع القاهرة أنها مدينة ضيقة لا تحتل الا مساحة صغيرة · أما ذلك الذى يراها فى مجملها من منزل مرتفع أو من مئذنة أحد المساجد فانه لن يلبث أن يلاحظ عكس ذلك · وأكثر الشوارع ازدحاما تتميز عادة بصف من الحوانيت من الجانبين · ومعظم الشوارع البعيدة مزودة بأبواب من الخشب فى كل طرفيها · وهذه الأبواب تغلق ليلا ويتولى حراستها بواب مهمته أن يفتح لكل مار · وان ما يسمونه حيا هو مجموعة من الحوارى الضيقة لها مدخل واحد مشترك ·

والمساكن الخاصة تستحق أن توصف • فجدران الاساس مغطاة الى ارتفاع الدور الأول من الخارج وفى معظم الاحوال من الداخل كذلك بأحجار جيريه رخوة مستمدة من الجبل المجاور • والحجر من هذا النوع حينما يكون حديث القطع يشكل سطحا ذا لون أصفر فاتح ، الا أنه سرعان ما يتحول لونه الى البنى بفعل الهواء • وتبين التقسيمات المختلفة للواجهة أحيانا بالجمرة والجير ، وترسم على التوالى باللونين الأحمر والأبيض • وتستعمل

هذه الطريقة بصفة خاصة فى البيوت الكبيرة والمساجد ، أما الأدوار العليا، وواجهته عادة تبرز الى الأمام حوالى قدمين فتحملها الأعمدة ، وتبنى هذه المبانى بالآجر الذى يغطى عادة بطبقة من الجس ، والآخر المستعمل عروق رلونه أحمر داكن ، ودهان المنازل أملس ومزود بطبقة من الجس ، أما النوافذ البارزة الى الخارج فى الادوار العليا التى تواجه بعضها البعض فتوشك أن تتلامس وتكاد تحجب أشعة الشمس تماما فى الصيف مما يتربب عليه أن يتمتع الشارع بفىء منعش فى الصيف ،

وأبواب المنازل عادة مستديرة من أعلى ومزدانة بالنقوش العربية وفي وسطها يوجد جزء تكتب عليه عادة (عبارة): «وهو الخالق المبدع الخالد» وهذه الاجزاء من الأبواب وغيرها من الأجزاء التي تتخذ الشكل نفسه ولكن في حجم أصغر مطلية باللون الأحمر ولها اطار أبيض ، أما بقية سطح الباب فمطلي باللون الاخضر ويرتبط اختيار هذه الألوان بأفكار خرافية والأبواب مزودة بمطرقة من الحديد وبقفل من الخشب ، ونجد في كل مكان تقريبا بجوار الابواب مصطبة من درجتين يستطيع المرء منها أن يمتطي حماره أو حصانه و

ولأجنحة الطابق الارضى المجاورة للشارع نوافذ صغيرة ذات قضبان من الخشب وهي مرتفعة حتى لا يتمكن المار من النظر الى الداخل و ووافذ الاجنحة تبرز الى الخارج قرابة قدم ونصف و تجمل هذه النوافذ عادة بعريشة من الخشب الملتوى تكون من الضيق بحيث تحجب نور الشمس ولا تمنع مرور الهواء وقلما تطلى هذه العرائش ، أما ما يراد تزيينه منها فيطلى بالأحمر أو الا خضر و تسمى هذه النوافذ بالمسربيات و تعنى هذه الكلمة الاماكن المخصصة للشرب وفي بعض المنازل يضعون على هذه النوافذ أواني فخارية ذات مسام ترطب الهواء بالتبخر الناشيء عن تيارات الهواء وفي أعلى النافذة البارزة مباشرة توجد نافذة أخرى مسطحة مزودة اما بعريشة أو بقضبان خشبية أو بالزجاج الملون وهذه النوافذ العليا حين تكون مزودة بعريشة فانها تحمل عادة بعض رسوم الزينة كحوض وابريق يتكرران في أعلى هذه النافذة ، أو وجه أسد أو اسم الله أو عبارة الغر،

وبعض النوافذ البارزة مبنية كلها بالخشب وبعضها ذات مربعات حانبية •

وترتفع المنازل عادة الى طابقين أو ثلاثة طوابق ويضم كل بيت فناء

غير مرصوف يسمى «حوش » يدخل الناس اليه بواسطة ممر أنشى، بحيث لا يزيد عرضه عن ذراع أو ذراعين وذلك حتى لا يرى المارون بداخله ويوجد في هذا المر شبه أريكة مستندة الى الحائط بطوله وتسمى مصطبة، ويوجد في مخصصة للبواب والخدم ويحوى الفناء عادة بئرا من ماء أجاج يتسرب من النيل عبر التربة و وجانب البئر الذي يتعرض للظل أكثر من الآخر يزود في معظم الاحوال بقدرين يملآن كل يوم بمياه النهل التي تحمل من النهر في القرب و وتطل أهم أجنحة البيت على الفناء وفي بعض الاحيان النهر في القرب وتطل أهم أجنحة البيت على الفناء وفي بعض الأحيان بمشاتل صغيرة على شكل أقواس تربى فيها الشرجيرات والأزهار والجدران الداخلية للبيت ، هي التي تشكل المربع الذي يشرخله الفناء ، مبنية بالقرميد ومطلية بالجير وللأفنية أبواب عديدة تؤدى الى الداخل مبنية بالخريم ، ومن هذا الباب يصل المرء الى السلم المؤدى يطلق على أحدها باب الحريم ، ومن هذا الباب يصل المرء الى السلم المؤدى يطلق على أحدها باب الحريم ، ومن هذا الباب يصل المرء الى السلم المؤدى يطلق على أحدها باب الحريم ، ومن هذا الباب يصل المرء الى السلم المؤدى

وفى الطابق الارضى يوجد جناح يعرف عادة باسم « المندرة » حيث يستقبل الرجال ، ولهذا الجناح نافذة عريضة وبجوارها نافذة أخرى أو نافذتان صغيرتان على الطراز نفسه ، وارضية هذه الأجنحة منحدرة الى أسفل بمقدار ست أو سبع بوصات ، وهذا الجزء الأسفل يسمى « الدركة » •

وفى بيوت الاثرياء تبلط هذه « الدركة » ببلاط من الرخام الابيض والأسود ، كما تبلط جميع الفراغات « بالموازايكو » المكون من قطع من القرميد ذى اللون الأحمر الفاقع ، مما يشكل تطعيما أنيقا رائعا ، وفى وسط البيت نجد فى الفناء نافورة تسمى « بالفسقية » تتدفق الميساه المندفعة منها كالشلال فى حوض مغطى بالرخام اللون ، والنافورات التى ترتفع مياهها الى ارتفاع كبير الى حد ما تواجه عادة منضدة من الرخام أو من الحجارة العادية يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام تقريبا وتسمى الصفة . وترتكز هذه المنضدة على اثنتين أو أكثر من الاروقة بل وقد ترتكز أحيانا على رواق واحد ، وتوضع تحتها الادوات التى تستخدم يوميا أى الاوانى التي تستخدم فى الوضوء والتى تستعمل التي تستخدم فى الوضوء والتى تستعمل التي تستخدم فى الوضوء والتى تستعمل الميات وبعده استعدادا لأداء الصلاة ،

وأكثر الأماكن ارتفاعا في هذه الاجنحة يسمى الديوان وهو تحريف لكلمة ايوان التي تعنى القصر • ولدى الدخول الى هذا الجزء من المسكن يخلع كل حذاءه قبل أن يسمح له بدخول الديوان • وهذه القاعة ، ليست

فى انواقع الا حجرة للانتظار مبلطة بالحجارة العادية · وفى الصيف تغطى الرضيتها بالحصير وفى الشتاء بأحد الابسطة · ونرى فى تسلائة جوانب منها الحشايا والوسائد · ويبلغ سمك الحشية عادة ثلاث بوصات · وعرضها ثلاثة أقدام · وتعد المضاجع اما على الأرض أو على سرر · أما الوسائد التى يبلغ طولها دائما عرض السرير نفسه وسمكها نصف هذا العرض فتستند الى الحائط · وتحشى الحشايا والوسائد بالقطن فى أكياس من القماش القطنى المطبوع أو الصوف أو غيره من الأقمشة الثمينة · وجدران البيوت مطلية بالجص ومبيضة من الداخل · ونجد فى الجدران بصورة دائمة تقريبا الدواليب قليلة العمق صنعت أبوابها من قطع صغيرة جدا · وتفسر هذه العادة بجفاف الجو وحرارته مما يلهب القطع الخشبية الكبيرة حتى ليخال المرء أنهاقد أدخلت الى الفرن · ولهذا السبب نفسه تتكون أبواب الأجنحة من قطع مجمعة · وتمنحنا هذه القطع الخشبية الصغيرة التى توزع بصورة منوع مضرة حافلة بالخيال الحصب والتكوين الفنى ·

والأستقف مصنوعة من الخشب ، والعروق العرضية منحوتة وتطلى أحيانا بالألوان أو بالذهب، • وسقف « الدركة » فى البيوت الرئيسية غاية فى التأنق تزينه متوازيات مستطيلة متقابلة تكون رسوما طريفة الا أنها منتظمة وذات تأثير زخرفى يتسم بالذوق الرفيع •

وفى وسط المربع الذى تكونه هذه الغرف تعلق احدى الثريات • ولقد كان للطريقة الحاصة التى تطلى بها الجدران وغرابة الرسوم التى تمثلها والتى تبدو وكأنها تتقاطع بصورة مفرطة فى عدم النظام فى الوقت الذى تبدو فيه هذه التقسيمات كلها منتظمة ، كان لذلك تأثير يأخذ بالأنظار •

وفى داخل بعض المنازل توجد غرفة تسمى « المقعد » وتخصص للغرض نفسه الذى تخصص له « المندرة » ، ويحمل سقف هذه الغرفة عمود أو عمودان وأقواس ، وقاعدتها جميعا مزودة بسور ، ويملك الدور الأرضى بدوره قاعة للاستقبال تسمى « التختبوش » وهى عادة مربعة ، وواجهتها المطلة على الفناء مكشوفة وفي الوسط يرتفع عمود يحمل الجدران المبنية فوقه ، وهذه القاعة مبلطة وثمة أريكة طويلة تلتف بالجدران من ثلاث جهات ، وكثيرا ما ترش هذه القاعة التي تشبه الفناء مما يجعل الا بعنحة المجاورة أو على الا قل أجنحة الدور الارضى ذات جو رطب منعش في هذه الا جواء ،

وضمن الاجنعة العليا ، أي أجنعة الحريم ، يوجسد جناح يدعى

« القاعة » ويتميز بارتفاعه الكبير • ونجد به أريكتين تمتدان بطول كل من جانبي الغرفة • واحدى الاريكتين أطول من الأخرى ، والأطول هي التي يدعى للجلوس عليها المرغوب في تكريمهم من الضيوف • وجزء من سقف غرفة الاستقبال هذه وهو الجزء الذي يظلل الأريكتين أكثر ارتفاعا من باقي الأجزاء • وفي وسطه يتدلى مصباح يسمى « الممرق » قد زينت جوانبه بعرائش كعرائش النوافذ وله قبة صغيرة • ومن النادر أن تزود « الدركة» بنافورة صغيرة الا أنها غالبا ما تكون مبلطة على الطريقة التي تبلط بها المندرة •

ونجد في كثير من الغرف أرففا خشبية ضيقة محملة بجميع أنواع الأواني الصينية التي لا تستخدم الا في تزيين المكان • وهـــذه الرفوف الموضوعة على ارتفاع يزيد على سبعة أقدام من الأرض تحيط بالغرفة فيما عدا فتحات النوافذ والأبواب والغرف كلها تقريبا مفرطة في الارتفاع ولا يقل ارتفاعها عن أربعة عشر قدما بل ومنها ما يزيد على ذلك • والقاعة مع ذلك هي أكثرها اتساعا وارتفاعا ، وفي البيوت الرئيسية تعتبر هي أجمل قاعات الاستقبال •

وفي بعض الطوابق العليا من منازل الاثرياء نجد فيما عدا النوافذ ذات العرائش طاقات صغيرة من الزجاج الملون تمثل سلالا للزهور وغير ذلك من الرسوم المرحة الخفيفة أو قد تكتفى ببعض الرسوم الغريبة ذات التأثير الساحر · وهذه النوافذ ذات الزجاج الملون وتسمى « الشمسية » كلها تقريبا يبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثة وعرضها قدمين تقريبا • وتفتح رأسا فرق الجزء العلوى البارز للنوافذ أو في الاجزاء العليا من فتحات الجدران ولذا فهي ترسل ضوءا هادئا ساحريا ذا انعكاس غاية في الروعة . وتتكون هذه النوافذ من اجزااء صفيرة من الزجاج ذي الألوان المختلفة يثبت في اطارات من الجص الناعم ثم بركب في اطار من الخشب • ونرى على الجــدران المبنية ببــلاط من الجص والرخــام في، بعض الأجنحة رسوما بدائية تمثل الكعبة أو قبر الرسول أو بعض الزهور وغيرها من موضـــوعات الزينة • ونجد كذلك بعض الحكم العــربية أو المواعظ الدينية • ومعظم هذه المواعظ والحكم مكتوبة على ورق جميل وتجملها بعض التحف الخطية ثم توضع في اطار تحت النجاج • وغرف النوم لاتحوى أي أثاث بالمعنى الصحيح اذ أن المضاجع تطوى بالنهار وتلف وتوضع في ركن من أركان الغرفة أو في قاعة تستخدم للنوم أثناء الشتاء • وفي الصيف ينام معظم السكان فوق أسقف المنازل • ويتكون الاثاث الكامل لغرفة

النوم من حصير أو بساط يفرد على البـــلاط الذى يغطى أرض الغرفــة وأريكة ، وهذا هو أثاث جميع الغرف بصورة عامة ·

وتقدم وجبات الطعام على صوان مستديرة توضع على مقعد بلا ظهر قليل الارتفاع · ويجلس المدعوون على الأرض حول الصينية · واستخدام المدافىء غير معروف وتدفأ الغرف في الشتاء بالفحم الذي يوضع في المنقد · ولا تعرف المداخن الا في المطبخ ·

وفى كثير من المنازل توجد فتحات للتهوية (شخشيخة) متجهة الى الشمال أو الجنوب الغربي وتستخدم في ترطيب الغرف العليا ٠

ولكل باب قفل من الخسب يسمى « الضبة » وبها نقط بارزة من الحديد تعادل الثقوب التي توجد في الفتحة المخصصة لها ·

وتتميز جميع منازل القاهرة تقريبا بعدم الانتظام • فالغرف عادة ذات ارتفاع مختلف ابتداء من الدور الأرضى مما يجعل المرء مضطرا دائما الى الصعود أو الهبوط بضع خطوات لدى الذهاب من غرفة الى أخرى والهدف الأساسى للمهندس فى ذلك هو منح البيت أكبر قدر من العزلة لاسيما الجزء المخصص لسكنى النساء والعمل على عدم تمكين أحد من النظر الى داخل البيت من النوافذ وتجنيب سكان البيت أن يراهم من فى المنازل المحاورة •

وفى بيوت الأثرياء من طبقة معينة يعنى المهندس بانشاء باب سرى ، وهو اسم يطلق كذلك أحيانا على أبواب الحريم ، وذلك لتسهيل الهرب في حالة وجود خطر الاعتقال أو القتل أو لادخال احدى العشيقات حتى يمكن ادخالها واخراجها بهذه الطريقة في سرية تامة · وتحتوى بيوت الأغنياء كذلك على مخابىء للكنوز ، ويدعى هذا المكان بالمخبأ · ونجد كذلك في حريم البيوتات الكبيرة غرفا للحمام تدفأ بالطريقة نفسها التي تدفأ بها الحمامات العامة ·

وحينما يشخل الخدم الجزء الأسفل من البيت تقسم الطوابق العليا الى مساكن منفصلة ، ويسمى هذا الجزء من البيت بالربع ، وهذه المساكن منفصلة تماما بعضها عن بعض كما هو الحال فى الحوانيت الموجودة أسفل البيت ، وتؤجر للعائلات التى لا تسمح مواردها باستئجار منازل كاملة ، ويتكون كل مسكن فى الربع من قاعة أو قاعتين وغرفة للنوم كما يزود عادة بمطبخ وملحقاته ، ومن النادر أن تجد مساكن لكل منها مدخل خالص للشارع على غرار تلك المساكن ،

## ٧ - مراسم المآتم

تكاد المراسم المتبعة في مناسبة وفاة رجل أو امرأة ودفنه أن تكون مماثلة · فحينما تدل الحشرجة أو غيرها من الظواهر على اقتراب منية شخص ما يديره أحد أقاربه بحيث يكون وجهه في اتجاه القبلة ويغلق له عينيه · وقبل أن يسلم الروح أو بعد ذلك بلحظة يصيح الحاضرون : « الله ! لا حول ولا قوة الا بالله ! انا لله وانا اليه راجعون ! اللهم اغفر له ! » وفي تلك الاثناء ترسل نساء الائسرة صيحات تأوه تدعى الولولة ، ثم يطلقن صرخات أكثر حدة وهن يذكرن اسم الفقيد · وأكثر الصيحات استعمالا ، تلك التي تفلت من بين شفاه زوجته أو زوجاته وأطفاله هي : « استعمالا ، تلك التي تفلت من بين شفاه زوجته أو زوجاته وأطفاله هي : وتحميل أعبائي ! يا سبعي ! يا جمل البيت ! يا عزى ! يا موردى ! يا ابي ! يامصيبتي ! » .

وبعد الوفاة مباشرة تستبدل الملابس التي كان يرتديها المتوفى بملابس أخرى • ثم يوضع على سريره أو فوق مرتبته وتفرد فوقه ملاءة الفراش • وتواصل النساء صيحاتهن ويأتي كثير من الجيران للانضمام اليهن •

وترسل الأسر عادة في طلب ندابتين أو أكثر • وتحضر كل منهما دفا خاليا من الرقائق المعدنية الرنانة التي تزود بها عادة أطواق الدفوف • وتضرب هؤلاء النسوة على هذه الآلات وهن يصحن : « ياحسرة عليه ! » ويسترسلن في مدح عمامة المتوفى وجمال شخصه ألخ • أما نساء الأسرة والخادمات وصديقات المتوفى فيصحن بدورهن ، وقد نفشت شعورهن وشقت ملابسهن ، قائلات : ياحسرة عليه ! وهن يلطمن وجوههن •

وما يلبث المغسل أن يحضر ومعه منضدة يضع عليها الجثة ونعش ٠

واذا كان الميت ذا مكانة مرموقة يصرح للفقراء الذين يجب أن يشتركوا في تشييع الجنازة بدخول منزل المتوفى وفى أثناء الاحتفال بغسل الميت يدخل هؤلاء الى غرفة مجاورة أو فى الخارج على باب الشقة ويتلو بعضهم ، أو بتعبير أصح يرتل سورة الأنعام ( السورة السادسة من القرآن) حينما ينشد غيرهم جزءا من قصيدة البردة وهى قصيدة شهيرة في مدح النبى وينزع المغسل ملابس المتوفى ويأخذها لنفسه حلالا في مدح النبى وينزع المغسل ملابس المتوفى ويأخذها لنفسه حلالا بلالا ، ثم يقفل فمه ويغلق عينيه وبعد أن يتم للجسد الوضوء العادى الذي يسبق الصلاة ، فيما عدا غسل الفم والأنف ، يكون المتوفى قد تم غسله من الرأس الى الأقدام بالماء الدافىء والصابون وبليف النخيل ، فو بالماء المغلى ببعض أوراق الشيح ويحشى منخارى الأنف والأذنين الخ وبالقطن ويرش الجسد بمزيج من الماء والكافور المدقوق ، وأوراق الشيح بالقطن ويرش الجسد بمزيج من الماء والكافور المدقوق ، وأوراق الشيح صدره و

ويتكون كفن الفقير ، وهو لباس القبر ، من قطعة أو قطعتين من القطن قد أعدتا في صورة كيس • أما كفن الغنى فيكون عادة من الموسلين. ثم بملاءة من القطن أكثر سمكا ثم يلف في قطعة مخططة من الحرير والقطن وأخيرا في شال من الكشمير • والألسوان المفضلة لهذه الاغطية هي الابيض والاخضر الا أنه في الامكان اختيار أي لون فيما عدا الازرق وكل مايقترب منه من ألوان • وحينما يعد الجسد مكذا للدفن يسجى في النعش الذي يغطى عادة بشال من الكشمير الاحمر أو أي لون آخر • ثم يتخذ المشيعون للجنازة أماكنهم حسب النظام المتبع وهو في الجنازات العادية كما يلى:

اولا : ستة من الفقهاء أو أكثر ويسمون باليمينية وهم يختارون عادة من العميان •

ويلى هؤلاء الفقهاء أقارب المتوفى وأصدقاؤه وفى كثير من الحالاتياتي تثير من الدراويش أو غيرهم من رجال الدين وهم يحملون العلامات المميزة للطرق التي ينتمون اليها فينضمون للموكب ثم يأتي بعد ذلك ثلاثة أو أربعة من طلبة المدارس يحمل أحدهم مصحفا أو جزءا من أجزاء القرآن الثلاثين ويوضع هذا الكتاب على نضد مصنوع من عصى النخيل يغطى عادة بمنديل مطرز ويقوم هؤلاء الصبية بانشاد بعض مقاطع من قصيدة شعرية تدعى « الحشرية » تصف أحداث يوم القيامة وذلك بصوت أعلى وأكثر حيوية من صوت اليمينية وأكثر حيوية من صوت اليمينية وأكثر حيوية من صوت اليمينية .

ويتقدم طلبة المدارس هؤلاء النعش الذي يحمل على الأعناق وقد اتجه الرأس الى الأمام • وقد جرت العادة على أن يتولى ثلاثة أو أربعة من أصدقاء الفقيد حمله بعض الوقت • ويقهوم غيرهم بحمله تدريجيا • وكثيرا مايشارك المارة في أداء هذه الخدمة ، مما يعتبر عملا يستحق الكثير من المثوبة الحسنة •

ويتبع النساء النعش في عدد قد يصل أحيانا الى العشرين ، ويخفين شعورهن المنفوشة عادة بطرحهن ٠

وتتميز النساء من أقارب أو خادمات البيت بشريط من القماش القطنى أو « الموسلين » ، وهو عادة أزرق ، يلففنه حول الرأس بعقدة واحدة تاركات طرفيه يتدليان من الخلف وكذلك فان مع كل منهن منديلا مصبوغا عادة بالنيلة يوضع عادة على الأكتاف • وأحيانا تمسكه بعضهن باليدين من فوق الرأس أو أمام الوجه •

وفى بعض المناسبات ينتهى الموكب بعجل خصص للذبح أمام القبر ثم يوزع لحمه بعد ذلك على الفقراء ·

والنعوش التي تستخدم للنساء والصبيان تختلف عن تلك التي تستخدم للرجال · صحيح أنها مزودة كنعوش الرجال بغطاء من الحشب يفرد عليه شال الا أنها تحمل في مقدمتها قطعة خسبية مستقيمة تسمى الشاهد ٠ ويغطى هـذا الشاهد بشهال ، ويزين الجزء العلوى منه ( اذا كان النعش يضم سيدة من الطبقة المتوسمطة أو العالية ) بمختلف أنواع الزينات التي تستعملها النساء على الرأس • فاذا كان رأس الشاهد مسطحا أو دائريا فهو يستخدم عادة في وضيع قرص ( وهو حلية مستديرة من الذهب أو الفضية قد طعمت بالماس والذهب المشغول في بروز ويحمله النساء الى قمة الرأس) . أما الى الخلف فتعلق الصفا ( وهي عدد من الضفائر الحريرية السوداء المزدانة بالحلي الذهبية والتي تضيفها النساء الى شعورهن المصففة في ضفائر ويتركنها تنسدل بطول ظهورهن ) • ويتميز نعش الصبي بعمامة تكون عادة من الكشمير الأحمر وتوضع في أعلى الشاهد • وحينما يكون الصببي حديث السن جدا تضاف اليها القرص أو الصفا • واذا كان الأمر يتعلق بطفل في بداية العمر فان رجلا يحمله بين ذراعيه الى المدفن ولا يغطى جسده الا بشال • وأحيانا يوضع في نعش صغير جدا يحمله أحد الرجال على رأسه •

وننتقل الآن الى وصف الشيعائر والاحتفالات داخل المسجد وداخل التبر ه

فاذا مادخل النعش الى المسجد يوضع على الأرض في المكان المخصص عادة للصلاة بحيث يكون جانبه الأيمن متجها الى القبلة • ويقف الامام في الجهه اليسرى من النعش وقد اتجه وجهه اليه في أتجاه القبلة ، حينما يقف المباغ و المكلفون بتكرار كلام الامام لدى فدمى الفقيد ، وبصطف الحاضرون في الجنازة خلف الامام وتقف النساء في مكان خاص خلف مكان الرجال ٠ ذلك أن دخول المساجد محرم عليهن أثناء هذه الاحتفالات ٠ وحينما يصطف الجمع بهذه الطريقة يبدأ الامام صلاة الجنازة بادئا كلامه بهذه العبارة : « اقترح تلاوة صلاة التكبير ( وهي صلاة جنائزية تقوم على تكرار كلمة الله أكبر بصوت عال ) وبعد هذه المقدمة يرفع الامام يديه المفتوحتين وهو يلمس بطرف ابهاميه قناة أذنيه وينادي « الله أكبر ! » ويكرر المبلغ هذه الصبيحة كما يكررها كل فرد خلف الامام • وبعد أن يتلو الامام الفاتحة ينادى مرة ثانية : « الله أكبر ! » ثم يضيف : « اللهم صلى على سيدنا محمد النبي العظيم وآله وصحبه واحفظه! » ثم ينادي الامام مرة ثالثة : « الله أكبر ! » ثم يطلب الرحمة من الله للمتوفى ويتجه الى الحاضرين قائلا: « اشهدوا له » فيجيبون: « لقد كان صالحا » ثم بعد ذلك يرفع النعش • واذا كان الحفل قد أقيم في مسجد أحد مشاهر الأولياء يوضع أمام المقصورة أي الحاجز الذي يحيط برفات الولي • وهنا يتلو بعض الفقراء وكذلك الحاضرون صلاة الجنازة ويسير الموكب في النظام السابق الى المدفن • ومدافن القاهرة أغلبها خارج المدينة في المناطق المهجورة التي تقع في شمال وشرق وجنوب سور المدينة · أما المدافن داخل المدينة فعددها قليل ومساحتها صغيرة ٠

وسنقوم الآن باعطاء وصف مختصر للمدفن . وهو يتكون من قبو مستطيل عليه سقف معقود . وهو عادة مبنى بالطوب المطلى بالجبس . والقبو عميق حتى يتمكن المدفونون فيه من أن يستقيموا جالسين حين يزورهم الملكان ناكر ونكير ويستجوبانهم . ويتجه أحد جوانب القبر الله القبلة أى الى الجنوب الشرقى . ومدخله فى الشمال الشرقى . وأمام هذا المدخل يوجد قبو صغير مربع الشكل مغطى بالطوب الذى يخترقه من جانب الى اخر وذلك لمنع التراب من الدخول الى القبر . وبعد أن تبنى هذه الفجوة بهذه الطريقة تغطى بدورها بالتراب . ويبنى فى أعلى القبو أثر يزيد طوله عن عرضه يدعى بالتركيبة وهى عادة مصنوعة من المجارة أو الطوب . وفوق هذا الأثر يوضع حجران متقابلان أحدهما لدى الرأس أو القدمين : وهذه المجارة فى العادة على درجمة كبيرة من البساطة . ومع ذلك فمنها ما هو محلى بالزينة وغالبا ما يحمل الحجر القائم جهمة الرأس آية من القرآن واسم المتوفى وتاريخ الوفاة . وفي بعض

الأحيان يعلو هذا الحجر تمثال يمثل عمامة أو قلنسوة أو غيرها من أغطية الرأس مما يدل على مركز الأسخاص المدفونين في القبر والطبقة التي ينتمون اليها . وتقام عادة على قبر الأجلاء من الشيوخ أو ذوى المكانة مبنى صغير تعلوه قبة • وكثير من المقابر التي أقيمت تخليدا لذكرى الأعيان من الأتراك أو المماليك تحمل تركيبات من الرخام مغطاة بصيوان في شكل قبة ترتكز على أربعة أعمدة من الرخام • وحبنئذ فأن الحجر لقائم في مقابلة الرأس يحمل كتابات بحروف من الذهب كتبت على قاعدة لازوردية • وفي المدفن الكبير في القاهرة يرى عدد كبير من القابر بهذه الطريقة • ومعظم مقابر السلاطين هي مساجد أنيقة •

ولما كان القبر قد فتح قبل وصول الجثمان فان الدفن لا يصادف أى تأخير • ولا يلبث التربي ومساعداه أن يستخرجا الجثمان من النعش ويضعونه في القبر ٠ وتفك الأربطة التي كان قد أحيط بها ويرقد على جانبه الأيمن أو بحيث يميل جسده الى اليمين ويكون الوجه متجها الى القبلة • ويثبت في هذا الوضع بواسطة بعض قوالب اللبن • واذا كان الغطاء الخارجي شالا من الكشمير يمزق حتى لا تكون قيمته حافزا على السطو على القبر بواسطة بعض الأغراب • ويقوم بعض الحاضرين بوضع حفنة من التراب بالقرب من الجثمان • ثم يعاد اغلاق مدخل القبر بواسطة أحجار الاغلاق الموضوعة على الفجوة الصغيرة التي تسبقه وبعض التراب الذي كان قد استبعد • ثم يجتمع بعد ذلك الحاضرون فيما عدا الأطفال الصغار الذين لا يعتبرون مسئولين عن أفعالهم • ويقوم أحد الفقهاء بمهمة الملقن فيجلس أمام القبر ويقول : « ياعبد الله ! يابن أمة الله ! اعلم أن ملكين مبعوثين من قبل الله سيهبطان اليك الآن • فاذا سألاك : من هو ربك ؟ فأجبهما قائلا : « الله ربي حقا » · واذا سألاك من هو نبيك فقل لهم : « محمد رسول الله صدقا » • واذا سألك عن دينك فقل لهم . « الاسلام ديني » · واذا سألاك عن الكتاب الذي يهديك سواء السبيل فقل لهم : « أنَّ القرآن هو الكتاب الذي يهديني سواء السبيل والمسلمون اخوتي » • وحينما يسألانك عن دينك فأجبهما قائلا : « لقد عشت وسيوف أموت وأنا أعتقد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله » • وحينتُذ فسوف يقول لك الملكان : « ارقد يا عبد الله ! في رعاية الله ! » •

ويعتقد المصريون أن الروح تظل مع الجسد أثناء الليلة الأولى التى تلى الدفن • ويعتقدون كذلك أن الملكين اللذين سبق ذكرهما يزورانها فى تلك الليلة ويسألانها وفى مقدورهما تعذيب الجسم •

والليلة التي تلى الدفن تسمي ليلة الوحشة حيث أن مكان المتوفى يظل شاغرا •

وما أن تغرب الشمس حتى يقاد فقيان أو ثلاثة الى بيت المتوفى حيث يتناولون العشاء المكون من الخبز واللبن في المكان الذي مات فيه المتوفى • ثم يتلون بعد ذلك سورة الملك ( تبارك ) ( وهي السورة السادسة والستون من القرآن ) • ولما كانوا يعتقدون أن الروح تظل مع الجسد في الليلة الأولى بعد الدفن ثم تذهب بعد ذلك اما الى المكان المخصص للأرواح الخيرة حتى يوم القيامة واما الى السعجن الذي يجب على الأشرار أن ينتظروا فيه صدور الحكم النهائي عليهم • وتسمى تلك الليلة كذلك بليلة الوحدة •

## ۸ - شعب مصر

من العسير دراسة شعب بلد لا تسجل فيه لا المواليد ولا الوفيات ومنذ بضع سنوات جرت محاولة لاحتساب ذلك ، وذلك بعد البيوت المنشأة في مصر كلها كقاعدة ومع افتراض أن كل بيت في العاصمة يضم ثمانية أشخاص وفي الريف ستة أشخاص • وربما يقربنا هذا الحساب بطريقة لا بأس بها من الحقيقة ومع ذلك فان نتيجة المشاهدات التي أجريت لم تعط بالنسبة لبعض المدن مثل الاسكندرية وبولاق ومصر القاهرة الا متوسطا يبلغ خمسة أشخاص للبيت الواحد • وتعتبر مدينة رشيد نصف مهجورة •

أما مدينة دمياط فآهلة بالسكان ويمكن للبيت الواحد أن يحوى ستة أشخاص واذا لم نقبل هذا الاحصاء فلن نصل أبدا الى الرقم المفترض لعدد سكان البلد وان اضافة شخص أو شخصين لكل بيت في كل مدينة لن يؤثر تأثيرا كبيرا على تعداد الشعب المصرى كله الذي قدر بما يزيد قليلا عن ٢٠٠٠٠٥٠٠ نسمة ويقدر في هذا الرقم والطبقات المختلفة التي يتكون منها هذا الشعب أساسا هي على وجه والطبقات المختلفة التي يتكون منها هذا الشعب أساسا هي على وجه وتقدر بحوالي ٢٥٠٠٠٥٠ وطبقة المصريين ( ومنهم الفلاحون وسكان المدن ) وتقدر بحوالي ٢٥٠٠٠٠ وطبقة المعمانيين أو الأتراك وتقدر بحوالي وطبقة اليونانيين وتقدر بحوالي وطبقة اليونانيين وتقدر بحوالي وتقدر بحوالي وطبقة اليونانيين وتقدر بحوالي وطبقة اليونانيين وتقدر بحوالي وطبقة اليونانيين وتقدر بحوالي وطبقة اليونانين وتقدر بحوالي وليونانين وتقدر بولي وليونانين وليونانين وتقدر بولي وليونانين وليوناني

أما الباقى ويقدر بحوالى ٧٠٠٠٠ نسمة فيتكون من العرب الغربين والنوبين والعبيد السود والمماليك (أو العبيد الذكور) والجوارى البيض والافرنج الخ • فترتيبه جد عسير • ولم نذكر هنا فى عداد سكان مصر الاعراب من سكان الصحارى المجاورة •

ولا يتكلم المصريون المسلمون والأقباط وكذلك السوريون واليهود الذين يقطنون مصر الا اللغة العربية ، فيما عدا استثناءات قليلة ، وهي كذلك اللغة التي يتكلمها الأجانب المقيمون في البلاد .

ويسكن القاهرة تقريبا ٣٠٠،٠٠٠ نسمة • ويخدع المرء لو حاول الحكم على سكان هذه المدينة من الجموع التي تتجمهر في الشوارع الرئيسية والأسواق ذلك لأن الشوارع والأحياء الأخرى تقلل ازدحاما عن ذلك كثيرا •



الملحقالثانى

الفنون لدى الشرقيبن



لدينا اعتقاد يصور لتا الامم الشرقية على أنها عدوة للوحات والتماثيل . أن ذلك لعمرى اعتقاد قديم يصلح لأن يكون بجوار مثيله الذي يتهم القائد الذي بعثه عمر بحرق مكتبة الاسكندرية وهي التي بدت قبل ذلك بوقت طويل بعد حريق السيرابيوم وتخريبه .

ونعرف جميعا أن ثمة لوحات مرسومة على رقوق في الحمراء في غرباطة وأن أحد الملوك المغاربة لهذه المدينة قد أقام تمثالا لعشيقته في مكان يسمى بحديقة الفتاة • ولقد قلت من قبل أن المرء يصادف في الحدى قاعات السراى في القسلطنطينية مجموعة مصورة من وجوه السلاطين أقدمها قام برسمه بللان وفينيس وأمثالهما ممن كانوا يدعون للقيام بهذا العمل نظير أجور عالية •

بل وقد سنحت لى الفرصة لحضهور معرض للوحات فى القسطنطينية أقيم خلال أعياد شهر رمضان فى حى غلطه بالقرب من مدخل قنطرة السفن الذى يخترق القرن الذهبى ، وينبغى الاعتراف مع ذلك بأن هذا المعرض ما كان ليرضى النقاد الباريسيين ، فلقد كانت الرسوم التشريحيه غير موجودة على الاطلاق حينما كانت الغلبة للمناظر وللطبيعة الميتة وحدها ،

ولقد كان ثمة ستمائه لوحة تحيط بها اطارات سوداء يمكن تقسيمها على النحو الآتى : لوحات دينية ، لوحات تصور المعارك ، مناظر موضوعات بحرية ، حيوانات ، وقد خصصت اللوحات الاولى لتصوير أهم المسهاجد في الامبراطورية العثمانية ولذا فقد كانت موضوعاتها هندسية محضة لا يزيد عليها الا بعض الأشهدار التي صورت لتظهر ارتفاع المآذن ، ولم تكن هذه اللوحات تتعدى تصوير

السماء الزرقاء الصبافية والأرض ذات اللون المغبر والقرميد الاحمر والقياب الرمادية مما كان يجعلها قليلة التغيير ويصيبها بنوع من الطابع التقليدي الديني ، أما المعارك فقد تعثر تنفيذها تعثرا شديدا بسبب التقليد الديني الذي يمنع تصوير أي كائن حي حتى ولو كان حصانا او جملا او حتى خنفساء . وقد كان الرسامون المسلمون يتصرفون بالطريقة التالية : كانوا يفترضون أن المشاهد قائمة في مكان بعيد كل البعد عن مكان المعركة . فكانوا يصورون ثنيات الارض والجبال والانهار وحدها بشيء من الوضوح أما تخطيط المدن والزوايا والخطوط الدفاعية والخنادق وأمكنة القوات ذات الصفوف المربعة والبطاريات فتبين بمناية شديدة . وتقوم المدافع الضخمة التي تطلق نيرانها ومدافع المورتي التي تقذف القنابل المتوهجة ببعث الحياة في المشهد وتتمثل فيها الحركة. ويصور الرجال أحيانا كنقاط صغيرة وتقوم الخيام والاعلام بالتدليل على الجنسيات المختلفة كما تقوم البيانات المدونة في أسفل اللوحات بأعلام الجمهورية باسم القائد المنتصر • وفي المعارك البحرية يصبح التأثير أشد يسبب وجود السفن التي يتمثل في قتالها نسبيا شيء من الحيوية. وكذلك فان الحركة في هذه اللوحات تكسب الكثير من التأثير بفضل جماعات من الحيتان والحيوانات البرمائية التي يباح استخدامها كشهود للانتصارات البحرية التي يحرزها الهلال .

والواقع انه من الغريب أن زى الاسلام (١) لا يبيح الا تصوير بعض الحيوانات التى تعتبر من فصيلة التنين • وهكذا نرى حيوانا ما يشبه أبا الهول يصور بالألوان فى المقاهى ولدى الحلاقين فى القسطنطينية وهو يمثل رأس امرأة غاية فى الجمال فوق جسد حصان مجنح . ويسترسل شعرها الأسود ذو الضفائر الطويلة فوق الظهر والصدر وتحيط غضون بنية بعينيها الحانيتين ويلتقى حاجباها المقوسان فوق جبينها • وفى مقدور كل رسام أن يمنحها سمات حبيبته وكل من يشاهدها يرى فيها المثل الأعلى للجمال ، ذلك لانها تمثل فى الواقع مخلوقا سماويا ، انها تمثل البراق الذى حمل محمدا الى السماء السابعة (٢) •

ذلك اذن هو الوجه الوحيد الذي يمكن دراسته • ولا يستطيع

<sup>(</sup>١) غنى عن الذكر أن الاسلام برىء من هذه الافتراءات والخرافات .

 <sup>(</sup>٢) يذكر النص السماء الثالثة ولكن العرف جرى على الحديث عن السماء.
 السابعة .

المسلم أن يعطى صورته لحبيبته أو لذويه ، ومع ذلك فتمه طريقه لإهدائهم صورة عزيزة ومتفقه تماما مع التعاليم الدينية ، وهى أن يرسم صورا مكبرة ومصفرة على العلب والميداليات للمسجد الذى يستحوذ على اعجابه فى القسطنطينية أو غيرها . ويعنى هذا أن « هنا يوجد قلبى وهو يتحرق شوقا اليك تحت أنظار الله » ، ونجد بطول ميدان السيراسكييه بالقرب من مسجد با يزيد حيث تطير الحمائم بالآلاف صفا من الحوانيت الصفيرة التى يشهفلها الرسامون ومن يقومون بعمل الرسوم والتماثيل المصغرة ، وهنا يأتى العشاق والازواج المخلصون فى بعض المناسبات ليرسموا لهم هذه المساجد المحببة اليهم ويبدى كل منهم الراءه حول الالوان والتفصيلات الاضافية ويضيفون عادة بعض الاشعار التى تصور مشاعرهم .

ولا يستطيع المرء أن يفهم تماما كيف يبيح التدين الاسلامي تلك الوجوه الصينيه الواضحة السمات والمرسومة بدقة ويستخدمها في عروض القسراجوز (١) • وينبغي أن نذكر هنا أيضا بعض العملات والمداليات في الازمنة الماضية ، بل حتى بعض رايات فرق الانكشارية القديمة التي كانت تحمل وجوه بعض الحيوانات . وكذلك فان سفينة السلطان مزينة بنسر من الذهب ذي أجنحة مفرودة .

وثمة نوع آخر من الشذوذ الفريب ، نقد جرت العادة في القاهرة على تغطية بيت كل حاج يعود من رحلته الى مكة بالرسوم ، وذلك بلاشك لابراز البلاد التي شاهدها اذ أنه لا يسمح الا في تلك المناسبة وحدها بتصوير الاشخاص ، ومع ذلك فمن العسير أن يتبين المرء أنهم من الاحياء .

وكما نعلم فان تلك المعتقدات المضادة للرسوم لا توجد الا لدى المسلمين الذين يعتنقون مذهب عمر (٢) • أما معتنقد مذهب على (الشيعة) فنجد لديهم رسوما وتماثيل مصغرة من جميع الانواع • ولذلك فلا ينبغى اتهام الاسلام جملة بهذا التحامل الذى من شأنه أن يقضى على الفنون • ويرجع الخلاف في ذلك الى تفسير نص مقدس يبعث على الظن بأنه من المحظور على الناس تصوير الأشكال ماداموا عاجزين عن خلق الأرواح • وقد حدث يوما أن كان مسافر انجليزى يرسم صورا تحت سمع وبصر اعرابي من الصحراء فقال له هذا الاخير بلهجة حادة

<sup>(</sup>١) ان الكاتب هنا يخلط الدين بشئون بعيدة كل البعد عنه .

<sup>(</sup>٢) عقصرك اأهل السنة .

مفرطة في الجد: « ماذا أنت قائل لله في اليوم الآخر حين يمثل أمامك جميع التماثيل التي صورتها ويقول لك الله: « هاهي قد أتت تشكو من أنها خلقت ومع ذلك لم تستطع أن تعيش . لقد خلقت لها جسدا فاخلق لها اليوم روحا » • فقال الانجليزي : « سوف أرد عليه قائلا : « أما عن خلق الارواح يامولاي والهي فان قدرتك على ذلك تجملني لا أسمح لنفسي بأن أنافسك . . . أما اذا كانت هذه التماثيل تبدو لك جديرة بالحياة فامنحني فضل بث الروح فيها » .

ووجد العربى هذه الاجابة مرضية ، أو على الاقل لم يجد مايرد به عليها . وبدت لى فكرة الرسام الانجليزى حاذقة للغاية ، ولو كان الله يريد حقيقة في يوم الحساب الاخير أن يمنح الحياة لجميع الصور التي رسمها أو نحتها كبار الرسامين أو المثالين لعمر العالم من جديد بطائفة كبيرة من المخلوقات الرائعة الجديرة بالحياة في أورشليم الجديدة التي تنبأ بها الرسول القديس يوحنا .

ومما تجدر ملاحظته أن الأتراك قد أولوا الآثار الفنية في الأماكن التي خضعت لنفوذهم أكثر مما يعتقد من الاحترام . وبفضل تسامحهم واحترامهم للآثار احتفظ بطائفة كبيرة من التماثيل الاشورية والاغريقية والرومانية مما كان لابد لتطاحن الاديان المختلفة من أن يحطمها عبر الأجيال . ومهما قيل في هذا الصدد فان تحطيم التماثيل لم يحدث الا في عصور التعصب الاولى حينما كان ثمة شك في أن تجعلها بعض الشعوب موضع عقيدة دينية ، أما اليوم فان أكبر دليل على تسامح الاتراك في هذا السبيل يتمثل في وجود مسلة قائمة وسط ميدان « أتميدان » في مواجهة مسجد السلطان سليم ، وقد غطيت قاعدتها برسوم بيزنطية بارزة نتبين فيها أكثر من ستين رسما احتفظ بها سليمة تماما . وقد يكون من العسير مع ذلك أن نذكر تماثيل اخرى تصور مخلوقات حية احتفظ بها في القسطنطينية فيما خلا تلك التي تضمها الكنائس الكاثوليكية . وتحت قبة آيا صوفيا غطيت تماثيل الرسل المصنوعة من الموزايكو بطبقة من الطلاء صورت عليها الكتابات العربية والزهور . أما تمشال السيدة العذراء فقد غطى بفطاء . وفي كنيسة الأربعين شهيدا التي تقع بالقرب من قناة فالنس فقد احتفظ بالتماثيل والصور المصنوعة من الموزايكو رغم أن البناء قد تحول الى مسجد .

ولكى ننتهى من الحديث عن الرسوم والتماثيل المعروضة للجمهور

استطيع أن أذكر كذلك احد الملاهي ، ويقع في طرف في حي « بيرا » ، على جانب طريق يفصل هذا الحي عن قرية سان ديمترى • ويتكون هذا الطريق من خورينساب في أعماقه جدول يتحول في الأيام العاصفة الى نهر . وهذا الموقع يعتبر من أروع المناظر بفضل الافق المتفير ذى التلال التي تمتد من الجبانة الى الساحل الاوروبي للبسفور • وتبدو المنازل المطلية المختلطة بالخضرة والتي تحول معظمها الى ملاه ومقاه ، تبدو بالمئات فوق قمم المرتفعات ومنحدراتها • وتسمارع الجموع بزيناتهم المبرقشية حول منشئات حي الملاهي الاسلامي هذا . ويصم بائعو الحلوى وبائعو الفاكهة والبطيخ الاسمماع بصيحاتهم الغريبة . فتسمع اليونانيين ينادون على العنب بعشر بارات ( البارة أقل قليلا من الصولدى ) ؟ ثم انك لتجد أهراما من كيزان الأذرة المسلوقة في ماء مضاف اليه الكركم . ولندخل الآن الى الملهى : أن داخله فسيح جدا . وثمة أروقة عالية ذات درابزين من الخشب تحيط بالقاعة الكبيرة . ويوجد الى اليمين عداد صاحب الملهى الذى انهمك دون كلل أو ملل ذي صب نبيذ جزيرة « تينيد » في الأكواب البيضاء ذات الآذان حيث نسكب المشروب العنبري كحبات اللؤلق . وفي الداخل توجد أفران الطاهى وقد غصت بطائفة كبيرة من المتبلات • ويجلس الناس للعشاء على كراس صغيرة بلا ظهر أمام موائد مستديرة لا ترتفع الا بقدر ارتفاع الركبة . ويجلس الشاربون العادبون بالقرب من الباب أو على المقاعد التي تحيط بالقاعة ، وهنا يظهر اليوناني ذو الطربوش الاحمر والأرميني ذو الثوب الطويل و «الكليك» الأسود واليهودي ذو العمامة الرمادية تحررهم التام من تعاليم محمد . ومما يكمل هذه اللوحة الزينات المحلية التي كنت أريد التحدث عنها والتي تتكون من طائفة من الصور المرسومة في لوحات كبيرة على حائط الملهي ٠ انها تمثل نزهـة محبوبة ترجع ، لوصدقنا التقاليد ، الى نهاية القرن الماضى ، وفيها نرى نحو عشرين شخصا ذوى أحجام عادية يرتدون ملابس الشعوب المختلفة التي تسكن القسطنطينية . وفيهم نرى أحد الفرنسيين في ملابس حكومة الديركتوار (١) مما يعتبر تأريخا دقيقا للوقت الذي رسمت فيه اللوحة. وقد احتفظت الألوان برونقها تماما وبعتبر التنفيذ فيها مرضيا حدا بالنسبة الوحة بيز نطية محدثة ، وهناك تفصيل ساخر تعبر عنه اللوحة

<sup>(</sup>۱) حكومة فى فرنسا حكمت ابتداء من الخامس من بردمير من السنة الرابعة الموافق ۲۷ اكتوبر سنة ۱۷۹۵ ، وقد قلبها الجنرال بونابارت فى ۱۸ برومير (٩ نوفمبر ١٧٩١) من السنة النامنة .

يبين ان رسامها ليس أوربيا ، ذلك أننا نرى فيها كلبا يرفع قدمه ليفسد الجوارب متعددة الالوان التى يرتديها ذلك الفرنسى السرف في التأنق ويحاول هذا عبثا ابعاده بعصاته ، تلك في الحقيقة هي اللوحة الوحيدة التى تصور أشخاصا وتعرض علنا والتى اسهتطعت اكتشافها في القسطنطينية ، وهكذا نرى أنه ليس من العسير على الفنان أن يضع فنه في خدمة أصحاب الملاهي كما كان يفعل الفنان لنتارا ، ولا يبقى لي الا أن اعتذر لطول هذه المذكرة التي يمكن استخدامها على الأقل في تحطيم اعتقادين أوربين خاطئين وذلك بالبرهنة على أن الصور والملاهي موجودة في البلاد التركية ، وكثير من فنانينا يعيشون حياة طيبه في تلك البلاد بعمل الرسوم المقدسة للأرمن واليونانيين ،

### ٣ ـ رسالة عمرو

ان قصة الخليفة الحاكم كانت ذريعة اتخذها الكاتب لاتمام وصف القاهرة الحديثة بوصف للقاهرة القديمة المفعمة بذكريات أجمل العصور التاريخية .

وثمة وثيقة لا ينبغى نسبيانها اذ أنها من أولى الوثائق التى تعطينا فكرة أولى عن مصر بعد تحويلها الى بلد اسلامى ، الا وهى خطاب خطى كتبه عمرو بن العاص الى الخليفة عمر الذى كان يطلب منه تفصيلات عن الفزو الجديد:

« من عبد الله عمرو بن العاص الى خليفة رسول الله عليه سلام الله ورحمته ورضوانه عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الخليفة الذى يتبع الهدى والسراط المستقيم أما بعد فقد تلقيت رسالته وقرأتها وفهمت مقصده ولذا فانى أود أن أمحو من فكره سحابة عدم الثقة بحديثى الصادق ان الله هو الذى يمنحنا القوة والجهد واليه يرجع كل شيء . لتعلم يا أمير المؤمنين أن بلاد مصر تختلف عن تلك الاراضى السوداء والنباتات الخضراء بين الجبل المغبر والرمال الحمراء . وبين جبل تلك البلاد ورمالها توجد سهول قد ارتفعت وأكمات قد انخفضت ويحيط بها سفح يمنحها ما تعيش منه ويحتاج من الفارس الذى يمتطى صهوء جواده شهرا من الزمان لكى يجوبه من أسوان الى نهاية الارض وعلى شاطىء البحر و أما في وسط البلد فيهبط نهسر مبارك في الصباح وتختصه السماء ببركتها في المساء وهو ينساب بين الزيادة والنقصان طبقاً لدورتي الشمس والقمر . وله موسمه الذى تتفتح له فيه عيون الرض وينابيعها بأمر خالقه الذى يسيطر على مجراه ويحفظه ليمنح الحباة لتلك الولاية . وهو يجرى حسب ما هو مقادر له حتى تتنفخ الحياة لتلك الولاية . وهو يحرى حسب ما هو مقادر له حتى تتنفخ التحفية تنتفخ

جوانبه بالمياه وتدور أمواجه في صخب وحينما تبلغ مياهه أقصى ارتفاعها لا يستطيع أهل البلد التنقل من قرية الى أخرى الا في قوارب صغيرة . وحينئذ نرى القوارب غير ذات الشراع تروح وتجىء على صفحته وتبدو للمخيلة وكأنها جمال سوداء وبيضاء وما أن يصبح النهر في هذه الحال حتى يبدأ يتراجع وينحسر في مجراه كما خرج منه من قبل وارتفع شيئا فشيئا ، وحينئذ يستعد أكثر الناس نشاطا وأشدهم كسلا على السواء للعمل فينتشرون في البسلاد في فرق وجماعات سواء كذلك منهم رجال القانون الذين يحفظهم الله أو الموالين لنا الذين يتولى الناس ينهكهم العمل الذي أمروا بانجازه ، وتراهم يشقون الأرض وما ارتوى ينهكهم العمل الذي أمروا بانجازه ، وتراهم يشقون الأرض وما ارتوى منها وينشرون فيها جميع أنواع الحبوب التي يريدون الاكثار منها بعون الله ، ولا تلبث الأرض بعد أن يسود سمادها أن تكتسى بحلة خضراء وتنشر عبيرا لطيفا ما دامت تنتج السيقان والاوراق والسنابل وتبدو دات منظر بهيج وتمنح الآمال الجميلة ويرويها الندى من أعلى وتغذى الرطوبة محاصيلها من أسفل ،

وتمر أحبانا بعض السحب محملة بأمطار ضعيفة ولا تسقط أحيانا الا بعض قطرات من الماء أو لا تسقط اطلاقا .

وبعد ذلك يا أمير المؤمنين تتخذ الارض رونقها وتعرض جمالها باعثةالسعادة في نفوس سكانها وتطمئنهم على محاصيل ثمارها من أجل غذائهم وغذاء دوابهم وتصديرها الى خارج البلاد والاكثار من نتاج ماشيتهم • وهي تبدو اليوم يا أمير المؤميين كأرض مغبرة ثم لا تلبث أن تبدو كبحر أزرق أو كلؤلؤة بيضاء ثم كالطمى الاسود ثم كالديباج الاخضر ثم كوشي متعدد الالوان ثم كمذاب التبر الاحمر . وحينئذ يحصد قمحها ( برها ) ويضرب لاستخراج الحب الذي يمر بعدة مراحل بين أيدي الناس فيأخذ بعضهم ماله منه وبعضهم ماليس له . وتعود هذه الأحداث كل عام كل شيء في وقته وموسمه تبعا لقدرة الله القدير • والحمد لله سيبحانه وتعالى أبدا وهو أشرف الخالقين • أما عما يلزم لانجاز هذه الاعمال مما يزيد الحرث والنسل والحفاظ عليها وتنميتها لانجاز هذه الاعمال مما يزيد الحرث والنسل والحفاظ عليها وتنميتها بسبطة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد بصفة خاصة ثلاثة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد بصفة خاصة ثلاثة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد بصفة خاصة ثلاثة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد بصفة خاصة ثلاثة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد بصفة خاصة ثلاثة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد بصفة خاصة ثلاثة أمور أولها الا نتقبل ما تقوله الغوغاء عن أعيان البلد بينه ذو حسد وجحود بالنعمة التي قدمت لهم . وثانيها أن نستخدم

ثلث الجزية التى تجبى فى العناية بالطرق والقناطر ، وثالثها ألا تجبى المجزية من مال من الأموال أو على المال نفسه الا اذا كان فى أحسن صورة (١) .

هذا هو وصف مصر يا أمير المؤمنين ومنه تستطيع أن تعرفها كما او كنت تراها بنفسك . ليحفظك الله ويهديك سواء السبيل وليؤيدك ويعينك على حكم بلادك ويعينك على تحمل التبعات التي القاها عليك والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته والحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وأبناء أمته والمؤيدين له .

<sup>(</sup>١) يقول المؤلف في الهامش أن تاك جملة غامضة ويقول .

<sup>(</sup>۱) يسون المولك في النص اللي ذكره الرحالة الفرنسي الولني تقول : «وثالثها الا تجبى الجزية الا على المحاصيل أي على ماتنتج الارض من ثمار » ١٠

س \_ هل أنت درزى ؟

ج ـ نعم بعون مولانا القوى القدير .

س ـ ومن هو الدرزى ؟

ج \_ هو الذي كتب الشريعة وعبد الحالق •

س \_ وما الذي أمركم به الخالق ؟

ج ـ الصدق واتباع دينه واتباع الشروط السبعة ٠

س  $_{-}$  وما هى الواجبات الصعبة التى أعفتكم ديانتكم منها وألغتها وكيف تعرف أنك درزى حق  $^{9}$ 

ج ـ بأن أبتعد عن كل ماهو محرم وآتى كل ماهو حلال ٠

س \_ وما هو الحلال وماهو الحرام ؟

ج ـ الحلال هو كل ماينتمى الى الدين والزراعة · والحرام هو كل مايتعلق بالمراكز المؤقتة والردة ·

س \_ متى وكيف ظهر مولانا القوى القدير ؟

ج \_ في السنة الأربعمائة من هجرة محمد • وقد ذكر حينئذ بأنه

من نسل محمد ليخفى ألوهيته •

<sup>(</sup>۱) حدیث المؤلف عن الدروز فیه تشویه کثیر والقصود بالمسیحیة هنا شيء آخر غیر المسیحیة ، فان الحدیث یجری علی أن المسیح عند الدروز هو سلمان الفارسی ، ( الفاحص )

س \_ ولماذا كان يريد اخفاء ألوهيته ٠

ج \_ لأن ديانته أهملت وقل عدد من يعبدونه ·

س \_ ومتى ظهر معلنا ألوهيته ؟

ج \_ فی عام ۲۰۸ ۰

س \_ وكم من الوقت ظل هكذا ؟

ج \_ طوال عام ٤٠٨ ثم اختفى فى عام ٤٠٩ لأنها كانت سنة مشئومة • ثم عاد فظهر فى بداية عام ٤١٠ واستمر طوال عام ٤١١ • وأخيرا فى بداية عام ٤١٦ اختفى عن الأنظار ولن يعسود الا فى يوم الحساب •

س \_ وماهو يوم الحساب ؟

ج \_ هو اليوم الذي يظهر فيه الخالق بوجه انسان ويحكم العالم بقوة السيف •

س \_ ومتى يحدث هذا ؟

ج \_ ذلك أمر غير معروف ولكن ستكون هناك علامات تنبيء عنه •

س ـ وماذا ستكون هذه العلامات ؟

ح \_ حينما يرى الناس الملوك يتغيرون ويتغلب المسيحيون على المسلمين •

س ۔ وفی أی شهر يحدث هذا ؟

ج \_ في شهر جماد أو شهر رجب حسب التقويم الهجري ٠

س \_ وكيف يحكم الله الشعوب والملوك ؟

ج \_ سوف يظهر بقوة السيف وينتزع منهم الحياة جميعا .

س \_ وماذا يحدث بعد موتهم ؟

ج \_ سوف يولدون من جديد بأمر القوى القدير الذي سوف يوجه اليهم ماشاء من أوامر ·

س \_ وكيف ستكون معاملته لهم ؟

سيوف يقسمون الى أربعة أقسام هى : المسيحيون ، اليهود ، المرتدون وعباد الله المخلصون .

س يـ وكيف تنقسم هذه المذاهب المختلفة ؟

ج ـ ســوف ينشىء المسيحيون الديانة النصرانية والمتولية ، وينسلخ الأتراك من اليهود • أما المرتدون فهم الذين تخلوا عن الايمان بالهنا •

س ـ اية معاملة سوف يوجهها الله لعباد وحدثه ؟

ج \_ سوف يمنحهم الحكم والملك والسيادة والخيرات والذهب والفضة وسوف يظلون في هذا العالم أمراء وباشوات وسلاطين •

س ـ والموتدون ؟

ج ـ سوف يكون عقابهم رهيبا • سوف يحل في طعامهم فحينما يرغبون في الأكل أو الشرب سيجدون طعامهم مرا • كما أن العبودية ستضرب عليهم كما ستضرب عليهم المشقة والجهد لدى عباد الله الحقيقيين وسوف يسام المسيحيون واليهود هذا العناب نفسه ولكن في صورة أخف من ذلك كثيرا •

مس \_ كم مرة ظهر الهنا ومولانا في صورة بشرية ؟

ج \_ عشر مرات تسمى محطات والأسماء التى حملها على التوالى هى : العلى ، البار ، العلياء ، المعلى القائم ، المعنى ، العزيز ، أبو ذكريا ، المنصور ، الحاكم .

س \_ وفي أي مكان كانت المحطة الأولى ، محطة العلى ؟

ج. \_ في مدينة من مدن الهند تسمى رشين \_ ما \_ تشين .

س \_ كم مرة ظهر حمزة وكيف كان يسمى في كل مرة ظهر فيها ؟

ج ـ لقد ظهر سبع مرات فى القرون المنصرمة منذ آدم حتى النبى محمد ا؟ • وقد كان يسمى شاتنيل فى عصر آدم ، وفى زمن نوح كان يدعى فيثاغورس • وكان داود هو الاسم الذى لقب به فى زمن ابراهيم • وفى أيام موسى سمى شعيب وفى عصر عيسى سمى بالمسيح الحقيقى وكذلك بعازر • أما فى عصر محمد فقد كان اسمه سلمان الفارسى وفى زمن السيد زيد كان اسمه صالح •

<sup>(</sup>۱) لعله زيد بن ثابت من صحابة النبى وأول من خط القرآن الكريم أو زيد بن على في القرن التالى للهجرة وهو اللهى حمل المذهب الزيدى اسمه ، هكذا يقول الكاتب .

س ـ أخبرني عن أصل كلمة درزي ٠

ج - ان هذا الاسم مقتبس من طاعتنا للحاكم بامر الله ، وهذا الحاكم هو سيدنا محمد بن اسماعيل الذي يظهر هو نفسه بنفسه ولنفسه ولل ظهر دخل الدروز بأمره في طاعته وهذا ماجعسل هذا الاسم يطلق عليهم · ذلك لأن الكلمة العربية « اندراز أو اندراج » هي نفس كلمة درها » التي تعنى الدخول · ومعنى هذا أن الدرزي قد كتب الشريعة وتشمع بها ودخل في طاعة الحاكم · وفي مقدورنا أن نجد أصلا آخر لتلك الكلمة بأن نكتب كلمة دروز بحيث تنتهى بحسرف السين « دروس » وحينئذ تكون مشتقة من درس يدرس ، ومعنى هذا أن الدرزي قد درس كتب حمزة وعبد القدير القهار كما ينبغي له أن يفعل ·

س \_ وما هو قصدنا من عبادة الانجيل ؟

ج ـ لتعلم أن غرضنا من هذا هو تكريم اسم القائم بأمر الله وهو حمزة لانه هو الذي نطق بالانجيل • وفوق ذلك فمن الملائم ، أمام كل أمة أن نعترف بديانتها • وأخيرا فاننا نعبد الانجيل لأن هذا الكتاب برتكز على الحكمة الالهية ويحتوى على الدلائل الحقة على الدين الحق •

س \_ ولماذا نكفر بكل كتاب آخر عدا القرآن حينما توجه الينا الأسئلة في هذا الموضوع ؟

ج \_ لأننا في حاجة الى ألا نعرف على حقيقتنا وذلك حين ندخل في زمرة أصحاب المذاهب الاسلمية ، ولذلك فمن الملائم أن نعترف بكتاب محمد ، وحتى لا يساء الظن تبنينا جميع الشلم الأمر فقط وحتى يظل حتى شعائر الصلاة على الموتى ، كل هذا في ظاهر الأمر فقط وحتى يظل الناس يجهلون حقيقتنا ،

سى \_ وماذا نقول عن هؤلاء الشهداء الذين يسرف المسيحيون في تقريظ شيجاعتهم واقدامهم وعددهم الكبير ؟

ج \_ نقول ان حمزة لم يعترف بهم أبدا مهما صدقهم وشهد بهم المؤرخون .

س \_ ولكن اذا أتى المسيحيون وقالوا لنا ان ديانتهم ليست موضع شك لأنها تستند الى براهين وحجج مباشرة أقوى من أقوال حمزة فكيف نرد عليهم ، وكيف اعترفنا بأن حمزة لا يخطى، وهى الفكرة التى تعتبر عماد الحقيقة التى ينبعث منها سلامنا •

ج \_ بالشهادة التي أدلى بها هو نفسه عن نفسه حينما قال في رسالة القيسادة والدفاع: « اننى أول مخلوقات الله وأنا أملك صوته وفوته • وأملك العلم بأمره ، أنا البرج والبيت المشيد ، أنا سيد الموت والبعث ، أنا الذي سوف أنفخ في الصور وأنا الرئيس العام للدين وسيد العفو مقيم العدالة وهادمها • أنا ملك العالم ومحطم الشهادتين • أنا النار التي نلتهم كل شيء » •

س ـ وماهو الدين الحق لرجال الدين الدروز ؟

ج ـ انه صورة مضادة لكل عقيدة من عقائد الأمم أو القبائل الأخرى ، وكل ما هو محرم لدى الآخرين نؤمن نحن به كما ذكر فى رسالة الخيانة والنذير .

س ـ ولكن اذا ماعرف أحد الناس ديننا المقدس وآمن به وسأر على هديه فهل ينقذ ؟

ج ـ أبدا ، أن الباب مغلق ، لقد قضى الأمر وجف القلم · وبعد موته تذهب روحه للحاق بأمته الأولى ودينه الأول ·

س \_ ومتى خلقت جميع الأارواح ؟

ج ـ لقد خلقت بعد حمزة بن على · فقد خلق الله بعده من النور جميع العقول المعدودة التي لن يقل عددها ولن يزيد الى آخر الدهر ·

س \_ وهن يمنح ديننا السلام للنساء ؟

ج \_ بلاشك لأن مولانا وسيدنا قد كتب فصلا عن النساء ، ولقد أطعنه على الفور كما هو مذكور في رسالة قانون النساء وكذلك في رسالة الفتيات •

س ـ وماذا نقول عن باقى الأمم التى تؤكد أنها تعبد الله خالق السماوات والارض ؟

ج ـ مهما قالت ذلك فهو خطأ · ومهما عبدته فعلا فان عبادتها تعتبر كفرا مادامت لا تعرف أن الله هو الحاكم ·

س ـ ومن هم القدامى الذين بشروا بالحكمة الالهية هؤلاء الذين انشئوا نيانتنا ؟

بن م ثلاثة هم حمزة واسماعیل وبهاء الدین ٠
 س ـ والی کم جزء ینقسم العلم ٠

ج \_ الى خمسة أجزاء ينتمى جزءان منها الى الدين وجزءان أخران الى الطبيعة • أما الجزء الخامس وهو أكبرها جميعا فهو لا يقسم أبدا • وهو العلم الحق أى علم الحب الالهى •

س ـ كيف نعرف أن شخصا ما هو أخونا ويتبع الدين الحق اذا صادفناه في الطريق أو اقترب منا وهو يمر بنا وذكر لنا أنه درزى ؟

ج \_ تعرفه هكذا: بعد المجاملات المعتادة نقول له: هل يزرعون في بلادكم حبة الأهليلج (١) فاذا أجاب: « نعم ، انهم يزرعونها في قلوب المؤمنين » نأخذ حينئذ في سؤاله عن ديننا ، فاذا أجاب اجابات صحيحة فهو من مواطنينا والا فهو لا يعدو أن يكون شخصا غريبا ·

س \_ ومن هم آباء ديننا ؟

ج ـ انهم أنبياء الحاكم أى حمزة واستماعيل ومحمد وأبو الخير وبهاء الدين ·

س \_ وهل يحصل الجهلاء من الدروز على السلام وعلى عمل الى جوار الحاكم حينما يموتون على جهالتهم ؟

جى \_ لا سلام لهم وسوف تضرب عليهم المهانة والعبودية في رحاب مولانا وسيدنا الى أبد الآبدين ·

س \_ ومن هو دوماسة ؟

ج ـ انه آدم الأول ، انه آرخنـورا وهرمس وادريس ويوحنا واسماعيل بن محمد التيمى · وفي زمن محمد بن عبد الله كان يسمى دالمختار ·

س \_ ومن هو العنيق والحالم ؟

ج ـ العتيق هو حمزة والخالد هو الروح قرينه ٠

س \_ وماهى أقدام الحكمة ؟

ج انهم المبشرون الثلاثة .

س \_ ومن هم ؟

ج \_ يوحنا ومرقس ومتى ٠

<sup>(</sup>١) ثمرة من ثمار الهند كانت تستتخدم كثيرا فيما مضى في تحضير الدواء .

س \_ وكم مرة قاموا فيها بالتبشير ؟

ج ـ احدی وعشرین سدیة ٠ وقد بشر کل منهم سبع سنوات ٠

س ـ وما هي هذه المنشآت القــائمة في مصر والتي يسمونها الأهرام ؟

ج \_ لقد شيدها القوى القدير وهو يرمى بذلك الى بلوغ هدف ملى بالحكمة تصوره في قدرته الالهية ·

س \_ وماهو هذا الهدف المليء بالحكمة ؟

ج ـ هو أن يضع فيها الحجج والصكوك التي تناولتها يده المقدسة من جميع المخلوقات ويحفظها ·

س ـ ولأى سبب ظهر لدى كل شريعة جديدة ؟

ج \_ لتحفيز المؤمنين لدينه الحـق حتى يزدادوا ثبـاتا على دينهم ويعلموا أنه هو الذى يغير العدالات بارادته وحتى لا يؤمنوا بأحد غيره ·

س \_ وكيف تعود الأرواح الى أجسادهم ؟

ج ـ في كل مرة يموت فيها شخص يولد شخص آخر وهكذا الكون العالم •

س \_ وكيف يسمى المسلمون ؟

ج \_ التنزيل •

س ـ والمسيحيون ؟

ج ـ التأويل • وهذان الاسمان يعنيان بالنسبة لهؤلاء المسيحيين أنهم فسروا قول الانجيل ، ويعنى بالنسبة للمسلمين الفول الشائع بأن القرآن تنزيل من السماء •

س ــ وماذا كانت ارادة الله حين خلق الجن والملائكة الذين تحدث عنهم كتاب حكمة حمزة ؟

جلا - الجن والأشباح مثلهم مثل من لم يستجب لدعوة سيدنا ومولانا الحاكم من البشر و والعفاريت هم أشباح بالنسبة لمن لهم جسد وأما الملائكة فينبغى أن نرى منهم من يمثلون المؤمنين الحقيقيين بالله الذين لبوا دعوة الحاكم وهو الاله الذي عبد في جميع ثورات العمر وهو

## س ـ وماهي ثورات العمر ؟

ج \_ انها العدالات التي بشر بها الأنبياء الذين ظهروا على التوالى والذين اعترف بهم الناس في أزمانهم مثل آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد والسيد • كل هؤلاء الأنبياء ليسبوا الا روحا واحدا انتقل من جسد الى آخر ، وهذا الروح وهو العفريت اللعين الحارس ، روح بن طرماح ، وهو كذلك روح آدم العاصى الذي طرده الله من جنته أى الذي التزع الله منه معرفته بوحدته •

س \_ وماذا كانت وظيفة العفريت لدى سيدنا ومولانا ؟

ج \_ لقد كانت وظيفة عزيزة لديه · ولكن أوداجه انتفخت بالغرور ورفض اطاعة الوزير حمزة · وحينئذ لعنه الله وطرده من الجنة ·

س \_ ومن هم رؤسياء المسلائكة الذين يحملون عرش مولانا وسيدنا ؟

ج ـ انهم الخمسة أصحاب الولاية اللذين يطلقون عليهم أسماء جبريل وهو حمزة وميكائيل وهو الأخ الثانى واسرافيل وهو سلامة بن عبد الوهاب وعزرائيل بهاء الدين وميتاترون على بن أحمد وهم الوزراء الخمسة الذين يسمى الواحد منهم السمابق والثانى والجسد والفتح والفارس و

س \_ ومن هم النساء الأربع ؟

ج ـ انهن يدعين : اسماعيل ومحمد وسلامة وعلى وهن : الكلمة والنفس وبهاء الدين وأم الخير ·

س \_ وماهو انجيل المسيحيين وماذا نقول عنه ؟

ج \_ لقد صدر الانجيل حقا عن لسان · الهنا المسيح الذي كان يدعى سلمان الفارسي في زمن محمد ، وهذا المسيح هو حمزة بن على · أما المسيح الدجال فهو الذي ولدته مريم اذ أنه ابن يوسف ·

س \_ وأين كأن المسيح الحقيقى حينما كان المسيح الدجال مع حوارييه ؟

ج \_ لقد كان في عسداد هؤلاء الحواريين · كان يبشر بالانجيل ويعطى التعليمات الى المسيح ، ابن يوسف ويقول له : «افعل كذا وكيت» طبقا للدين المسيحى ، وكان ابن يوسف يطيعه · ومع ذلك فقد شعر اليهود بالكراهمة ضد المسيح الدجال وصلبوه ·

س \_ ومادًا حدث بعد صلبه ؟

ج \_ لقد وضعوه فى قبر من القبور · وأتى المسيح الحقيقى وسرق الجثمان من القبر وأخفاه فى الحديقة ثم أشاع خبر أن المسيح قد بعث حما ·

س \_ ولماذا تصرف المسيح الحقيقي هذا التصرف ؟

ج \_ لكى يساعد الدين المسيحى على البقاء ويمنحه مزيدا من المقوة ·

س \_ ولماذا شجع المسيح كذلك البدع ؟

ج \_ حتى يستطيع الدروز أن يتشحوا بغطاء ما مشتق من الدين المسيحي فلا يقول أحد عنهم أنهم دروز .

س ۔ ومن هو ذلك الذى خرج من القــــبر ودخل لدى الحواريين حينما كانت النوافذ مغلقة ؟

ج \_ انه المسيح الحي الذي لا يموت أبدا ، ألا وهو حمزة •

س \_ و لماذا لم يعتنق المسيحيون الديانة الدرزية ؟

ج \_ لأن الله أراد ذلك •

س \_ ولكن كيف يرضى الله عن الشر والالحاد ؟

ج \_ لأن عادته الدائمة هي خداع البعض واظهاره عقول البعض الآخر كما قال في القرآن : « يعطى الحكمة لمن يشاء ويأخذ الحكمة ممن يشاء » •

س \_ ولماذا أمرنا حمــزة بن على باخفاء الحكمة وعـدم الكشف عنها ؟

ج \_ لأنها تحوى أسرار الهـان وقدراته ولا ينبغى أن نكشف للناس عن أشياء يتوقف عليها سلام النفوس وحياة العقول •

س \_ نحن اذن أنانيون اذا كنا لا نريد انقاذ الناس جميعا ٠

ج \_ ليس ثمة أنانية في ذلك • ذلك لأن الدعوة قد حذفت وأغلق الباب • وليلحد من يلحد ويؤمن من يؤمن وستظل الأمور كما ينبغى لها أن تكون •

والصوم الذي كان مفروضا من قديم الزمان قد ألغي اليوم · ولكن اذا صام شخص في غير الزمن المخصص للصوم وعذب نفسه بالصيام فان

س \_ ولماذا ألغيت الصدقة ؟

ذلك أمر مشكور لأنه يقربنا من الله •

ج \_ ان الصدقة لدينا بالنسبة لاخواننا الدروز مشروعة · ولكنها جريمة بالنسبة لمن عداهم ولا ينبغي تقديمها ·

س \_ وما هو هدف النساك الذين يعذبون أنفسهم ؟

ج ـ ان الغرض من وراء ذلك هو أن يقلد الحاكم ، حين يبعث ، كلا منا منصب الوزير أو الباشا أو الحاكم ·

## چ۔ اسطورۃ سلیمان

لا ينبغى للقارى، أن يدهش من الاتجاه الفلسفى لهذه القصة أو لاتسامها بأسلوب فولتير الساخر ، فهذا هو الروح الذى تتسم به معظم القصص العربية والفارسية ، بل كثيرا ما تؤخذ الأمور الخارقة للعقل على محمل الجد ، ولذا فاننا نجد فى الشام آثارا عديدة لديانة أبناء قابيل ، وكذلك فان التراث العربي كثيرا ماندد بغرور الملك سليمان وضعف تقواه فى الفترة الأخيرة من حكمه ، ومن العبث أن نضيف أن بعض أجزاء تاريخ التوراة تتخذ آفاقا جديدة حينما تتخللها الروح العربية وربما كان من العسير على الأوربيين ادراك ما يقصده الشرقيون من الأجناس قبل البشرية نهم يغترضون أن الأرض قبل أن يسكنها الإنسان كانت تسكنها طيلة سبعين ألف عام أجناس أربعة خلقت أول ماخلفت كما يقول القرآن من سمبعين ألف عام أجناس أربعة خلقت أول ماخلفت كما يقول القرآن من مادة راقية ومضيئة » (١) ،

وهذه الأجناس هي المردة والشياطين والجن والعفاريت التي تنتمي أصلا الى العناصر الأربعة مثلها في ذلك مثل جنيات الماء والأقزام المشوهين وجن الهواء والسمندل في أساطير شعوب الشمال • وثمة عدد كبير من المقطوعات الشميعرية والفارسية تحكي القصة المفصلة للأجيال قبل الآدمية •

وبعد أن ترك الله هذه الشعوب البدائية تشغل الكرة الأرضية طيلة اثنى عشر ألف عام ، وبعد أن تعب من مشهد الحروب التى تنشب بينهم وما يشب بينهم من حب ومن الانتاج الواهى لذكائهم أراد أن يخلق جنا جديدا أكثر ارتباطا بالأرض ويحسن تحقيق التزاوج الصعب بين المادة

<sup>(</sup>١) ليست تلك آية من القرآن وانما ترجمة للاصل .

والعقل أكثر من سابقيه · ولذلك فقد قيل « لقد خلق آدم من تراب رملي ومن طين أما الجن فقد خلقوا وصورناهم من نار حمئة ·

ولذا فقد أعد الخالق قالبا يتكون أساسا من الرمل الناعم أصبح لونه اسما لآدم (١) ، ولما جف التمثال عرضه على الملائكة والجن حتى يقول كل منهم رأيه فيه • وأتى ابليس ، الذى كان يسمى فيما مضى عزازيل ، وهو مايعرفه المسيحيون باسم الشيطان ، ولمس التمثال وضربه على بطنه وعلى صدره ولاحظ أنه أجوف • فقال ان هذا المخلوق الأجوف سوف يتعرض للامتلاء وسوف يجد الاغراء الكثير من السبل للدخول فيه • ومع ذلك فقد نفخ الله الحياة في منخرى الرجل ومنحه ليليت الشهيرة لتكون رفيقة له ، وهي من جنس الجن • ولكنها اتبعت نصائح ابليس وخانت رفيها فيما بعد وقطعت رأسها •

ولما أدرك الآله أنه أخطأ بمزج طبيعتين مختلفتين قرر في هذه المرة أن يخلق المرأة من نفس كيان الرجل · فأغرقه في نوم عميق وأخذ يستخرج أحد أضلاعه كما هو مذكور في قصتنا ·

وهنا ثمة قصة طريفة تستحق الذكر · فبينما كان الاله منهمكا في رتق الجرح أبعد عينيه لحظة عن الضلع الثمين الذي كان موضوعا على الأرض بجواره · وهنا أتى قرد أرسله ابليس والتقطه بسرعة واختفى في أعماق غابة مجاورة · ولما تضايق الاله من هذا التعدى أمر أحد ملائكته بمتابعة هذا الحيوان · وتوغل القرد وسط الأغصان التي كانت تزداد كثافة · وتوصل الملك الى الامساك به من ذيله الا أنه لم يجد في يده الا الذيل وكان هذا هو كل ماعاد به الى سيده وسط الضحكات العالية التي كان يطلقها الجمع · ونظر الخالق الى هذا الشيء بشيء من الضيق وقال : « حسن ، مادمنا لا نملك شيئا غيره سوف نحاول العمل رغم كل هئء باللؤم والحسة ، وربما كان الدافع الذي دفعه الى ذلك هو غرور ملىء باللؤم والحسة ، وربما كان الدافع الذي دفعه الى ذلك هو غرور الفنان •

هل نجد أن هذه القصة لا تعدو أن تكون قصة بدائية ساذجة أو نرى فيها أثرا لنوع من السخرية الفلسفية ليس غريبا على الشرق ؟ (٢)

<sup>(</sup>١) يقصد المؤلف أن كلمة آدم تعنى الاحمر .

<sup>(</sup>٢) انها سخرية فولتير .

ربما كان من الأوفق ، لكى نفهمها ، أن نرجع الى عصصور الكفاح الدينى الأولى من أجل وحدانية الله التى أعلنت سصقوط المرأة بسبب كراهيتها لمذهب التعدد الالهى لدى السوريين حيث كانت المرأة تسيطر تحت أسماء أستارتية ودير سيتو وميليتا · كانوا يرجعون المصدر الاول للشر والخطيئة الى أبعد من حواء ذاتها الى هؤلاء الذين كانوا يرفضون فكرة الاله الواحد الأبدى ، وكانوا يتحدثون عن جرعة ارتكبتها تلك الزوجة المقدسة العتيدة استحقت من أجلها عذابا ارتعد له العالم فرقا وحرم على أى ملك أو مخلوق أرضى أن ينطق باسمها الى الأبد · ولم تحتو الظلمات الأولى التى كانت تحيط بتكوين الكون ماهو أشد هولا من غضب الاله الخالد هذا الذى قضى حتى على ذكرى أم العالم العتيدة ·

وتمتلى، آلاف من الأسماطير العربية بهذه التصورات الغريبة التى نصت على طائفة كبيرة من الخرفات والبدع رقصة آدم وحواء هى قصة طويلة للمعارك التى خاضها أول رجل فى العالم ضد جنس الجن الذين كانوا ينافسونه على ملك الارض .

وقد هزم آدم آخر أباطرتهم مما دفع هذا الجنس الذي سبق الآدمية كله الى الخضوع التام •

ونجد في رواق من أروقة جبل قاف (١) صور السبعين امبراطورا (أو السبعين سليمان) الذين حكموا قبل خلق الانسان · وأكثر هؤلاء الأباطرة ايغالا في القدم مشوهو الخلقة ويرتبطون بمختلف الأجناس الحيوانية ببعض الصلات · ومن المحتمل أن يكون العرب قد استمدوا فكرة هذه المخلوقات الأسسطورية من مسساهد الآلهة الهنود والأشوريين والمصريين · ويمكننا أن نرجع في جميع هذه النقاط الى كتاب المملكة الشرقية لهربلو ·

ويلاحظ مؤلف كتاب ظهر في هذا الوقت ( ١٨٥١) عن تركيا ، ويدعى مسيو أوبيسينى ، يلاحظ بحق أنه رغم اختراع السفن البخارية ورغم تقدم علم الاحصاء الحديث فان الشرق ليس معروفا اليوم أكثر مما كان في القرنين الماضيين ومن المؤكد أنه رغم زيادة عدد المسافرين فان الروابط التجارية التي كانت تربط ولاياتنا في الجنوب بمدن الشرق قد أصابها الكثير من الضعف ولا يقيم السواح في العصر الحاضر فترات

<sup>(1)</sup> يقول المؤلف انه جبل يلتف بالارض كالخاتم وذلك فى معتقدات الشرقيين وهذه المعلومات ينقلها نرفال عن دى هامير مؤلف : «قصص لم تنشر من ألف لينة ولبلة» ، (١٨٢٨)

طويلة تكفى لتعمق أسرار مجتمع ما لا تستطيع الملاحظة العابرة أن تكشف عن عاداته وأخلاقه وفوق ذلك فان آلية النظم التركية قد تغيرت تماما منذ اصدار التنظيمات الجديدة وأصبحت هى الانجازات التى طالما تمنى الشريف (السلطان) المقيم فى قصر كل – خانة (١) تحقيقها واليوم قد وطدت تركيا مركزها بحكومة منظمة قائمة على المساواة التامة بين مختلف رعاما الامبراطورية و

ان الرسائل وذكر بات السفر التي يضمها هذان الجزءان (٢)لا يمكنها أز. تقدم للقارىء انتظام الحركة والعقدة والخاتمة التي يمنحها الهيكل الروائي اذ انها لا تعدو ان تكون مجرد سرد لحوادث حتيقية . انالحقيقة هي ماتستطيع أن تكون • ويبدو أن الجزء الأول من هذا المؤلف قد حصل على ماحصل من نجاح بسبب ما اتسمت به قصة الجاربة الهندية التي اشتريتها في القاهره من الجلاب عبد الكريم من تشويق ، أن الشرق لا يبعد عنا بالقدر الذي نتصوره • ولما كانت هذه الجارية حية ترزق فقد اضطررت الى تغيار اسمها في القصة المطبوعة • وهي الآن متزوجة في احدى مدن الشام ويبدو أن مصيرها قد استقر بصورة سعيدة ، ان الرحالة الذي ألفي نفسه دون تفكر عميق قد تسبب إلى الأبد في تغيير حياة هذه الفتاة لم يطمئن بالا على مستقلبها الا حينما علم أن وضعها الحالي كان من اختيارها المطلق · وقد ظلت الجارية على العقيدة الاسلامية رغم الجهود التي بذلت لحملها على اعتناق الافكار المسيحية • ولن يستطيع الفرنسيون من الآن فصاعدا شراء الجوارى من مصر لأن أحدا منهم لن بجازف اليوم بالقاء نفسه في المتاعب التي تجرها مثل تلك المسئولية الأدبية ٠

<sup>(</sup>۱) فصر السلطان في القسطنطينية حيث وقع السلطان عبد الميجد في ٣ نوفهبر المدر العتماد «التنظيمات الخيرية» .

<sup>(</sup> المترجم )

<sup>(</sup>٢) نشرت رحلة الى الشرق في طبعتها الاولى سنة ١٨٥١ في جزأين ٠



## الفهثرس

مرية م	٠٠وع	الموخ
٣	« لیالی رمضان ۰۰ استامبول _ بیرا »	
٥	. سوق السمك	_ \
٩	. الســـلطان الســـلطان	_ ٢
١٤	ساجة الموت الكبيرة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	۳ ـ
۲.	. ســان ديمتـري ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	
۲۷	مغامرة في السراي القديمة بي من السراي القديمة	_ 0
47	. قرية يونانية ١٠٠٠	~
۲٦	. وجوه أربعــة ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	_ ∨
٤١	« المسارح والأعياد » مد مد مد المسارح	
٤٣	ـ خان ييلدز ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠ ٠٠	_ \
٤٧	. زيارة لبيرا	٢
۹١	. القراقوز به معتد	_ ٣
7 £	ـ شاربو الماء	
٧,	ـ باشا اســكودار و و م م م م م م م	_ 0
٧٤	ـ الدراويش · · · · · · · · · · · · · · · · · · ·	۳ -
۸١	« الرواة : أسطورة في أحد المقاهي »	
٨٥	ـ قصمة ملكة الصمباح وسليمان « أمير الحن »	_ \
٩١	ـ بلقيس	Y
١٠٤	ـ بيت الرب ما ١٠٠٠ - ١٠٠٠ ما ١٠٠٠ ما ١٠٠٠ ما	_ ٣
119	پ میللو	<u>.</u>
۱۳.	_ بحر الفولاذ ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ، ،	- 0
۱۳۷	1. 01	7

لصفحة	Si										ع	الموضو
120			 				٠.	نس	الأرة	نحت	العالم	V
107			 • •					٠.	يلو		مغسل	_ ^
179			 			٠.		٠.	رثة	الثـــا	الرفاق	_ ٩
١٧٧			 				٠.			<u> د لـ</u>	اللق	-11.
۱۸٤			 							الملك	عشــاء	_11
198			 	· · ·						ــاخ	ماكبيت	_17
7 . 0			 								العيب	
٧٠٧			 			یا .	·~ ?	بة لأ	العذ	المياه	نافورة	_ \
317			 						لفطر	عيد ا	أمسية	_ 7
۸/7			 		٠.				ی	السرا	حفلات	_ ٣
771		:	 							دان	الأتميب	_ չ
777			 ية	الحديث	ر يېن	المصر	ىلاق	÷1 :	ول	نق الأ	الملح	
779			 		٠.		- لى	للند	اعية	لاجتنما	الحالة ا	_ \
377			 				اهرة	، الق	ة فى	لعائليا	الحياة ا	_ 7
۲٤٨			 					ä	لخاصا	ات ا-	الإحتفالا	_ ٣
701	• •		 					صبر	ی ۵۰	ات فر	الراقصد	_ £
700			 								الحسواة	_ 0
۲٦٠			 						ــرة	القاهـــ	بیوت ا	_ 7
777			 						-		مراسيم	_ V
777			 				., .			•	شبعب	_ ^
770											•	
777											ـالة	یم ر
777											بانة الد	
797												_
											- )	(39)



onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دارالكاتب العربي للطباعة والنشر بالعشياحيية







Bibliotheca Alexandrina

الهيئة المصرية العامة للتاليف والنش ( دار الكاتب العربي ) ١٩٦٩

الثمن 👌 قرشا